البحث الثالث

إتحاف الناظر في تفسير سورة فاطر

دراسة تحليلية

دكتور / محمد نشأت محمد أحمد

مدرس التفسير وعلوم القرآن . فى الكلية

المقدمة

الحمد لله رب العامين ، نحمده سبحانه علي إنزال القرآن ، وأن هـدانا للإسـلام وجعلنا من أتباع خير الأنام ، نحمده تعالي ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونصلي ونسلم علي رسول الإنسانية ومعلم البشرية سيدنا ونبينا محمد ، وعلي آله وأصحابه ومن سلك سـبيله واتبع نهجه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن كتاب الله تعالي هو دستور التشريع ومنبع الأحكام ، ومنهج الحياة ، يكمن فيه سر صلاح الأمة ومستقبلها وفلاحها ورخاؤها ، فقد تكفل بكل حاجات الأمة مـن أمـور الدين والدنيا من عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات ، وهو الوسيلة الوحيـدة لإصـلاح المسلمين إذا اهتدوا بهديه ولم يحيدوا عن طريقه .

قال تعالي : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الـصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } . يونس٥٧

وقال سبحانه : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَـةٌ لِّلْمُـؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً } . الإسراء٨٢

فكتاب الله هو الضياء والغذاء والدواء والشفاء . قال صاحب الظـلال – رحمـه الله– : " ... لا صلاح لهذه الأمة ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنـسان ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع الي الله .

والرجوع الي الله له صورة واحدة وطريق واحد لا سواه إنه العودة بالحياة كلها الي منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها

والتحاكم إليه وحده في شئونها وإلا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للناس والارتكاس في الحمأة والجاهلية التي تعبد من دون الله ... "[1]

وإذا كانت سعادة الأمة وتقدمها تكمن في اتباع هذا الكتاب المجيد ، فوسيلة ذلك الإقبال عليه تلاوة وتدبراً وفهما وعملاً . كما قال تعالي : { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } .ص٢٩

يقول الشيخ الزرقاني – رحمه الله – : " ... نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ولا سهلة متيسرة ولا رائعة مدهشة إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم وبدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره والوقوف على ما حوى من نصح ورشد والإلمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحملها أسلوبه البارع المعجز وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن وهو ما نسميه بعلم التفسير خصوصا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس وإعزاز العالم .

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن وتوفروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها."[2]

لقد أدرك سلفنا الصالح أن استخراج كنوز القرآن الكريم يتوقف علي تفسيره وفهم معانيه ، فأعروه اهتمامهم ، وجعلوه محط رحالهم .

يقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن) .[3]

وقال أبو عبد الرحمن السلمي – رحمه الله – : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا) .[4]

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ١٥

(٢) مناهل العرفان ٢ / ٦ – ٧.

(٣) تفسير الطبري١ / ٢٧

(٤) تفسير الطبري١ / ٢٨

قال في اللباب : " وإذا كان هؤلاء العرب الخلص الذين لم تعكر عربيتهم عجمة يحتاجون إلى التفسير فنحن أولي وأحوج بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم إذ صار البون بعيدا بين العرب والفصحي "[1]

يقول الإمام السيوطي – رحمه الله –: ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير.[2]

ومما يدل علي شرف التفسير وعلو منزلته ورتبة أهله قوله تعالي : { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } . البقرة٢٦٩

أخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : في قوله : { ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا } يعني : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وعن قتادة قال : الحكمة : القرآن والفقه في القرآن .[3]

فيجب علي الأمة أن يكون فيها من يشتغل بعلم التفسير ، وتبيين مراد الله من كلامه ، وإلا نالهم ما نال الأمم قبلهم من الذم والنكال لإعراضهم عن تدبر كلام الله واشتغالهم بزخرف الحياة الدنيا .

قال تعالي : { وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } . آل عمران١٨٧

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال { وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } . آل عمران١٨٧ .

وقال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }. آل عمران٧٧ .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ١ / ٣١ – ٣٢ .

(٢) الإتقان ٢ – ١٧٤

(٣) تفسير ابن جرير ٣ / ٦٠

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه .[1]

فتفسير القرآن واجب علي الأمة إذ عليه يتوقف العمل بكتاب الله تعالي فمن لم يعرف معاني القرآن خبط في عبادته خبط عشواء مهما كانت منزلته في العلوم الأخرى .

يقول إياس بن معاوية – رحمه الله –: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب .[2]

فما أجمل أن يعيش الإنسان مع كتاب ربه يستضيء بنوره ، ويسترشد بهداه , ويتخذه دليله وهاديه الي طريق السعادة في الدنيا والآخرة .

وهذه سورة من سور القرآن المجيد عشت في ظلالها تفسيراً ودراسة لمقاصدها وبياناً لأهدافها ، ألا وهي سورة فاطر ، وقبل الشروع في تفسير السورة وبيان أهم مقاصدها أقف وقفة في التعريف بالسورة الكريمة .

التعريف بسورة فاطر :

سورة فاطر : هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف والثالثة والأربعون في ترتيب نزول القرآن الكريم ، نزلت بعد سورة الفرقان .[3]

اسم السورة :

تسمي هذه السورة الكريمة بـ (سورة فاطر) كما اشتهرت –أيضاً – بـ (سورة الملائكة) وقد ترجم البخاري : (باب : تفسير سورة الملائكة) .[4] وهذا الاسم

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١ / ٤٠

(٣) ينظر : تنزيل القرآن / ابن شهاب الزهري ص : ٢٦ . الناشر : دار الكتاب الحديث – بيروت – الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ تحقيق : د. صلاح الدين المنجد

(٤) صحيح البخاري – كتاب التفسير – باب : تفسير سورة الملائكة ٤ / ١٨٠٤ .

ورد أيضاً في سنن الترمذي.[1] وفي معظم كتب التفسير . فالاسمين من ناحية الشهرة كادا أن يكونا كفرسا رهان .

وجه التسمية :

" ووجه تسميتها بـــ (سورة فاطر) وقوع هذا الوصف في مطلع السورة ولم يذكر في مطلع سورة غيرها ، ووجه تسميتها بـــ (سورة الملائكة) ذكر صفة الملائكة في مطلعها ولم يقع ذلك في مطلع سورة أخري .[2]

عدد آياتها :

وعدد آيها: ست وأربعين في عد أهل المدينة والشام ، وفي عد أهل الكوفة خمساً وأربعين.[3]

مكان نزولها :

ذكر ابن الجوزي – رحمه الله – إجماع السادة العلماء علي أنها مكية .[4]

وشذ الطبرسي فاستثني آيتين وذكر ذلك عن الحسن فقال : مكية . قال الحسن إلا آيتين قوله تعالي: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } [فاطر الآية ٢٩]. وقوله تعالي : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .. } [فاطر الآية ٣٢].[5]

وهذه رواية تخالف الإجماع فلا يعول عليها . فالمتأمل لأسلوب السورة ومقاصدها والوحدة الموضوعية فيها يري أنها مكية .

مناسبتها لما قبلها :

هذه السورة شديدة المناسبة لما قبلها – سورة سبأ – حتى لكأن السورتان سورة واحدة .

قال السيوطي : أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ تآخيهما في الافتتاح بالحمد مع تناسبهما في المقدار.

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها من قوله : {وَحِيلَ

---

(١) سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن باب : ومن سورة الملائكة ٥ / ٣٦٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٤٦

(٣) الألوسي ٢٢ / ٢٣٧

(٤) ينظر : زاد المسير ٦ / ٤٧

(٥) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن ٨ / ٦٢٤ دار المعرفة للطباعة والنشر .

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ... }[سبأ٥٤] كما قال تعالي : { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الأنعام :٤٥] فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة . (١)

فمناسبة السورة لما قبلها تتلخص في النقاط الآتية :

١ – التآخي في الافتتاح فكل سورة منهما افتتحت بالحمد .

٢ – التقارب في المقدار وعدد الآيات .

٣ – سورة سبأ تحدثت عن هلاك الظالمين وما حل بهم من خراب لدورهم وتمزق لشملهم ، وهذه السورة افتتحت بالحمد فكأن حمد الله وشكره تعين علي المؤمنين بعد هلاك الظالمين . كما قال تعالي: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام٤٥.

أهم مقاصد السورة الكريمة :

وأما أهم مقاصد السورة وأهدافها فتتجلي في الأمور الآتية :

١ – تفرد الله – عز وجل – بالألوهية حيث إنه مبدع الكائنات وأنه المتصرف في خلقه كما يشاء، وأن كل شيء في الكون خاضع لقدرته ، وتابع لمشيئته بلا معقب أو شريك أو ظهير، وأنه تعالي مفيض الخيرات ، يقبض ويبسط ، فلا أحد يمسك رحمته إن أرسلها ، أو يرسلها إن أمسكها كما بينت أنه سبحانه خالق الكون ، رازق من فيه ، فلا رازق غيره ، فالكل محتاج إليه ، فقير لما في يديه، وأنه تعالي الغني الحميد , وهذا من دلائل تفرده بالألوهية .

٢ – إثبات صدق الرسول فيما جاء به ، وأنه جاء بما جاءت به الرسل من قبله ° وتسليته والتسرية عنه ببيان أن التكذيب من ديدن البشر ، وأنه إن كذبه هؤلاء المشركين ، فقد كُذِّبَ إخوانه الأنبياء من قبله ، فلا عليه من هذا التكذيب فهو ليس بدعاً من الرسل فما عليه إلا البلاغ وحساب المكذبين علي الله فإليه مرجعهم ومآلهم .

٣ – إثبات البعث وبيان أنه حق، وذكر الدلائل علي ذلك بما يراه الناس من عجائب في هذا الكون ، وفي أنفسهم ، فالأرض الميتة والتي كانت جرزاً بلقعاً ، لاحياة فيها ، يسوق إليها الماء فتسري فيها الحياة وتهتز بالكلأ والعشب ، والإنسان الذي خلق من تراب ثم تقلب في أطوار شتي ، حتى صار إلى هذا الخلق الراقي العجيب ، فهذه أدلة علي إمكان البعث والنشور.

٤ – تذكير الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون

(١) أسرار ترتيب القرآن ١٢٧

عنهم شيئاً وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم شيئاً ، فقد بينت السورة خلق الإنسان من عدم وإمداده من عدم ،بأن خلق الله تعالي له الأنهار تجري بالماء العذب السائغ الشراب القاطع للعطش ، وخلق له البحار تجري فيها السفن العظام يستخدمها في السفر والتجارة ، ومن الماء العذب والملح يأكل اللحم الطري ويستخرج الحلية ويبتغي من فضل الله بالتجارة ونحوها .

٥ – إبطال عبادة الأصنام وبيان أنها لا تملك شيئا ، مهما بلغ هذا الشيء من الضئالة والحقارة ، وأن هذا الكون البديع وما فيه من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وتسخير الشمس والقمر، وجريانهما إلي أجل معلوم، دليل ظاهر علي توحيد الله وبطلان ما كانوا يدعونه من شركاء.

٦ – تذكير الناس بأنهم فقراء إلى الله محتاجون إليه ، وقصر الفقر عليهم حتى كأنه لا فقير سواهم، وبيان أن الله تعالي غني عنهم ، ولو شاء لأذهبهم وجاء بغيرهم .

٧ – الإشادة بفضل العلم والعلماء وذلك ببيان أن العلم يؤدي إلى خشية الله تعالي ويسوق إلى طاعته ، وبيان ثواب العلماء العاملين بعلمهم .

٨ – بيان فضل القرآن الكريم وأنه الحق من عند الله تعالي وأنه مصدق للكتب التي قبله ، ثم بيان ثواب من آمن بهذا الكتاب وعمل به ، وما له من نعيم مقيم ، وبيان حال من كفر وما له من عذاب وهوان .

٩ – وكان ختام السورة الكريمة يشتمل علي جولات شتي : " جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة، يخلف بعضها بعضاً ، وجولة في الأرض والسموات للبحث عن أي أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله . وجولة في السموات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية القادرة تمسك بالسموات والأرض أن تزولا . وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدي من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . وجولة في مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم ولا يخشون أن تدور عليم الدائرة وأن تمضي فيهم سنة الله الجارية .. ثم الختام الموحي الموقظ الرهيب {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. } [فاطر٤٥]وفضل الله العظيم في إمهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المبيد .."[1] .

---

(١) الظلال ٥ / ٢٩٤٦ – ٢٩٤٧ .

استحقاق الله للحمد
وبيان عجائب قدرة الله في خلق الملائكة

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

اللغة ومعاني المفردات:

الحمد : نَقيض الذَّمِّ، وقال اللِّحيانيُّ: الحَمْدُ: الشُّكْرُ، فلم يُفرّق بينهما. وقال ثَعْلَبٌ الحَمْدُ : يكون عن يَد، وعن غير يَد، والشُّكْرُ لا يكون إلا عن يَد. وقال الأَخفشُ: الحَمْدُ لله: الثَّناءُ. وقال الأَزهريُّ: الشُّكْر لا يكون إلا ثَناءً لِيد أولَيْتَهَا، والحمدُ قد يكون شُكْراً للصنيعة، ويكون ابتداءً للثّناء على الرَّجل. فحَمَدُ الله: الثّناءُ عليه، ويكونُ شُكراً لِنعَمه التي شَملَت الكُلُ. والحمْدُ أَعمُّ من الشُّكر.

والحَمْدُ: الرِّضَا والجزاءُ، وقَضَاءُ الحقِّ وقد حَمِدَه كسَمِعَه: شَكَرَه وجَزَاه وقَضَى حَقَّه، حَمْداً، بفتح فسكون ومحْمداً بكسر الميم الثانية، ومحْمداً بفتحها، ومَحْمدَة ومحْمدَةً بالوَجْهين، ومَحْمدَةٌ، بكسرها نادرٌ. والحَميدُ، من صفات الله تعالى بمعنى المَحْمُود على كلّ حال، وهو من الأَسماء الحُسْنَى. وأَحْمَدَ الرَّجلُ: صار أَمْرُهُ إلى الحَمْد، أَو أَحْمَدَ: فَعَل ما يُحْمَدُ عليه.

والتَّحْميدُ: حَمْدُكَ الله عز وجلّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، وفي التهذيب: التَّحميد: كَثْرَةُ حَمْد الله سبحانَه، بالمحامد الحَسَنة، وهو أَبلغُ من الحَمْد، وإنَّهُ لحمَّادٌ لله عَزَّ وجَلَّ. ومنه أَي : من التَّحميد مُحَمَّد، هذا الاسمُ الشريف الواقعُ عَلَماً عليه ﷺ وهو أَعظم أَسمائه وأشهرُهَا كأَنّه حُمِدَ مَرَّةً بعْدَ مَرّة أُخْرَى. (١)

(١) ينظر : تاج العروس ٨ / ٣٨ / لسان العرب ٢ / ١٥٥

لله : قال في اللسان :الإِلَهُ: الله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إِلَهٌ عند متخذه، والجمع آلِهَةٌ. والآلِهَةُ: الأَصنام، سموا بذلك لاعتقادهم أَن العبادة تَحُقُّ لها، وأَسماؤُهم تَتْبَعُ اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه .

واختلف في اشتقاق اسم (الله) في اللغة :

روى المنذري عن أَبي الهيثم أَنه سأَله عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللغة فقال: كان حقه إلاهٌ، أُدخلت الأَلف واللام تعريفاً، فقيل : أَلإلاهُ، ثم حذفت العرب الهمزة استثقالاً لها، فلما تركوا الهمزة حَوَّلوا كسرها في اللام التي هي لام التعريف، وذهبت الهمزة أَصلاً فقالوا أَللاهٌ، فحرَّكوا لام التعريف التي لا تكون إلاَّ ساكنة، ثم التقى لامان متحركتان فأَدغموا الأُولى في الثانية، فقالوا الله، كما قال الله – عز وجل– : { لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي } [الكهف٣٨] معناه لكنْ أَنا، ثم إن العرب لما سمعوا اللهم جرت في كلام الخلق توهموا أنه إذا أُلقيت الأَلف واللام من الله كان الباقي لاه، فقالوا لاهُمَّ .

واختلف في اشتقاق(إله)

فقيل أَصل إِلَهٍ وِلاهٌ، فقلبت الواو همزة كما قالوا للوِشاح إشاحٌ وللوِجاحِ وهو السِّتْر إِجاحٌ، ومعنى ولاهٍ أَن الخَلْقَ يَوْلَهُون إليه في حوائجهم، ويَضْرَعُون إليه فيما يصيبهم، ويَفْزَعون إليه في كل ما ينوبهم، كم يَوْلَهُ كل طِفْل إلى أُمه .

وقيل: أَصله إلاهٌ، على فِعالٍ بمعنى مفعول، لأَنه مأْلُوه أَي معبود، كقولنا إمامٌ فِعَالٌ بمعنى مَفْعول لأَنه مُؤْتَمّ به، فلما أُدخلت عليه الأَلف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام.

وقيل في اسم الباري سبحانه إنه مأْخوذ من أَلِهَ يَأْلَه إذا تحير، لأَن العقول تَأْلَهُ في عظمته. وأَلِهَ أَلَهاً أَي تحير، وأَصله وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهاً. وقد أَلِهْتُ على فلان أَي اشتدّ جزعي عليه، مثل وَلِهْتُ، وقيل: هو مأْخوذ من أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا أَي لجأَ إليه لأَنه سبحانه المَفْزَعُ الذي يُلْجأُ إليه في كل أَمر. (١)

والقول بأن هذا الاسم الجليل مشتق لم يرتضه بعض العلماء .

قال في اللباب : واختلف الناس : هل هو مرتجل أو مشتق ؟ والصواب الأول وهو أعرف المعارف [حكي أن سيبويه رؤي في المنام فقيل : ما فعل الله بك ؟ فقال : خيرا كثيرا؛ لجعل اسمه أعرف المعارف](٢) .

---

(١) اللسان ١٣ / ٤٦٧

(٢) ينظر : اللباب لابن عادل ١ / ١٣٧ – ١٣٨

فاطر : أصل الفطر الشق وجمعه فطور, ومنه أُخذ فِطْرُ الصائم لأَنه يفتح فاه، والفطرة الابتداء والاختراع ومنه : (فاطر السموات والأرض) [الأنعام : ١، فاطر : ١] قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: ما كنت أَدري ما فاطِرُ السماوات والأَرض حتى أَتاني أَعرابيّان يختصمان في بئر فقال أَحدهما: أَنا فَطَرْتُها . أَي : أَنا ابتدأْت حَفْرها. وفطر الشيء أَنشأَه، وفَطَر الشيء بدأَه، وفَطَرْت إصبع فلان أَي ضربتها فانْفَطَرتْ دماً وذكر أَبو العباس أَنه سمع ابن الأَعرابي يقول: أَنا أَول من فَطَرَ هذا أَي ابتدأَه.،والفطرة الخلقة التي خلق عليها المولود في بطن أمه، وما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، . وقد فَطَرَهُ يَفْطُرُه، بالضم، فَطْراً أَي: خلقه. وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ }[الزخرف٢٧] أَي: خلقني؛ وكذلك قوله تعالى: (وما لِيَ لا أَعبدُ الذي فَطَرَنِي) [يس : ٢٢]. (١)

الملائكة : والمَلاَئِكَةُ : جمع مَلأْكَة ومَلأَك، ثم تُرك الهمز، فقيل مَلَك في الوحدان ، وأصله مَلأَك ، والملك مشتق من الألوك وهي الرسالة سميت أَلوكاً لأَنه يُؤْلَكُ في الفم مشتق من قول العرب: الفرس يَأْلُك اللُّجُمَ وأَصله مَأْلَك، ثم قلبت الهمزة إِلى موضع اللام فقيل مَلأَك، ثم خففت الهمزة بأَن أُلقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فقيل مَلَك؛وقد يستعمل متمماً والحذف أَكثر:

فلسْتَ لإِنْسيٍّ، ولكن لَمَلأَكٍ تَنَزَّلَ من جَوِّ السماء يَصُوب

والجمع ملائكة، دخلت فيها الهاء لا لعجمة ولا لنسب، ولكن على حد دخولها في القَشاعِمَة والصيَّاقلة، وقد قالوا المَلائك.(٢)

رسلاً: الإِرْسال: التوجيه، وقد أَرْسَل إِليه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة والرَّسُول والرَّسِيل؛ الأَخيرة عن ثعلب .

وأَنشد:

لقد كَذَب الواشُون ما بُحْتُ عندهم بلَيْلى، ولا أَرْسَلْتُهم برسيل

والرَّسول: بمعنى الرِّسالة، يؤنث ويُذكَّر، فمن أَنَّث جمعه أَرْسُلاً؛ قال الشاعر:

قد أَتَتْها أَرْسُلي

ويقال : هي رَسُولك. وتَراسَل القومُ: أَرْسَل بعضُهم إِلى بعض.

والرَّسول : الرِّسالة والمُرْسَل؛ وأَنشد الجوهري في الرسول الرِّسالة للأَسعر الجُعفي :

---

(١) ينظر اللسان ٥ / ٥٥ ، وتاج العروس ١٣ / ٣٢٥

(٢) ينظر: تهذيب اللغة ١٠ / ٢٠٢ / اللسان ١٠ / ٣٩٢ .

أَلا أَبْلِغ أَبا عمرو رَسُولاً بأَني عن فُتاحتكم غَنِيُّ

عن فُتاحتكم أي حُكْمكم .

والرَّسول: معناه في اللغة الذي يُتابِع أَخبار الذي بعثه أَخذاً من قولهم جاءت الإِبل رَسَلاً أَي :متتابعة. وسُمِّي الرَّسول رسولاً لأَنه ذو رسالة.

وأَرْسَلَهُ في رِسَالة فهو مُرْسِلٌ و رَسُولٌ والجمع رُسْلٌ و رُسُلٌ و المُرْسَلاتُ الرياح وقيل الملائكة و الرَّسُولُ أيضا الرسالة وقوله تعالى : { إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الشعراء :١٦] ولم يقولا رسولا رب العالمين لأن فعولا و فعيلا يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل عدو وصديق ، ورَسِيلُ الرجل الذي يراسله في نضال أو غيره و اسْتَرْسَلَ الشعر صار سبطا واسترسل إليه انبسط واستأنس و تَرَسَّلَ في قراءته اتأد[1] .

أولى : جمع لا واحد له من لفظه واحده ذا للمذكر وذه للمؤنث يمد ويقصر فإن قصرته كتبته بالياء وإن مددته بنيته على الكسر فقلت أولاءِ ويستوي فيه المذكر والمؤنث وتدخل عليه ها للتنبيه فتقول هؤُلاءِ .

قال أبو زيد: ومن العرب من يقول هؤلاء قومك فيكسر الهمزة وينون أيضا وتدخل عليه كاف الخطاب تقول أولئكَ وأولاَكَ . قال الكسائي : من قال أولئك فواحده ذلك و أولالِكَ مثل أولئك وربما قالوا أولئك في غير العقلاء قال الشاعر:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وقال تعالى {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}[الإسراء٣٦] وأما الأُلَى بوزن العلى فهو أيضا جمع لا واحد له من لفظه واحده الذي .[2]

أجنحة : جَنَحَ يَجْنَحُ ويَجْنُحُ ويَجْنِحُ جُنوحاً: مالَ،ــ كاجْتَنَحَ وأجْنَحَ،ــ وــ فلاناً: أصابَ جَناحَه.ــ وأجْنَحَهُ: أَماله.ــ وجُنوحُ اللَّيْلِ: إِقْبالُه.ــ والجَوانِحُ: الضُّلوعُ تَحْتَ التَّرائب مما يَلي الصَّدْر، واحِدَتُهُ: جانِحَةٌ. ــ وجُنِحَ البعيرُ، كعُنِيَ: انْكَسَرَتْ جَوانِحهُ لثقَلِ حِمْلِه. ــ والجَناحُ: اليَدُ، ــ ج: أجْنِحَةٌ وأجْنُحٌ، والعَضُدُ، والإِبْطُ، والجانبُ، ونَفْسُ الشيءِ، ــ وــ من الدُّرِّ: نَظْمٌ يُعَرَّضُ، أو كُلُّ ما جَعَلْتَهُ في نِظامٍ، والكَنَفُ، والناحِيَةُ، والطائِفَةُ من الشيءِ.[3]

(١) ينظر: اللسان ١١/ ٣٨١ ، مختار الصحاح ٢٦٧ ، تاج العروس ٢٩ / ٧٢

(٢) مختار الصحاح ص : ٢٠

(٣) القاموس المحيط ١ / ٢٧٦

مثنى وثلاث ورباع : قال الزَّجّاج:- في قوله تعالى: { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ }[النساء :٣] معناه: اثْنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَثَلاثًا ثَلاثاً . ولَمْ يَنْصَرِفْ. لأَنَّهُ اجتمَع فيه علّتان: إحداهما أنه مَعْدُولٌ عن اثْنَيْن وثَلاث ثَلاث، والثانية أنّه عُدِلَ عن تَأْنيث. وفي الصّحاح: ثُلاثُ ومَثْلَثُ "غيرُ مَصْرُوف" للعَدْلِ والصِّفَة.

ومعدول العَدَد ، إنْ صَغَّرْتَه صَرَفْتَه، فقلتَ: أُحَيِّدٌ ورُبَيِّعٌ؛ لأَنَّه مثل حُمَيِّر، فخرج إلى مِثَالٍ ما يَنْصَرِف، وليس كذلك أَحْمَدُ وأَحْسَنُ؛ لأَنَّه لا يَخْرُجُ بالتَّصْغِير عن وزْنِ الفِعْل؛ لأَنَّهم قد قالوا- في التَّعَجّب-: ما أُمَيْلِحَ زَيْداً، وما أُحَيْسِنَهُ.(١)

يزيد في الخلق ما يشاء: الزّيدُ بالفتح والكسر والتحريك ، والزِّيادةُ، بالكسر والمَزِيدُ، والمَزَادُ، والزَّيْدَانُ، بفتح فسكون، كلّ ذلك بمعنى، أي بمعنى النُّمُوّ والزّكَاة.

وزِدْتُه أَنا أَزيده زِيادةً: جَعَلْت فيه الزِّيادة. والازدياد أبلغُ من الزِّيادة، كالاكتساب والكَسب.

ومن المجاز: استزادَهُ : استقصَرَه وشَكَاه، أَي عتب عليه في أَمرٍ لم يَرْضه وطَلبَ منه الزِّيادة، ويقال: لا مُستزادَ على ما فعَلْت، ولا مَزِيدَ عَلَيْه(٢).

قدير: القَديرُ والقادرُ: من صفات الله عز وجل يكونان من القُدْرَة ويكونان من التقدير. وقوله تعالى: { إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[البقرة ٢٠] من القُدْرة، فالله عز وجل على كل شيء قدير، والله سبحانه مُقَدِّرُ كُلِّ شيء وقاضيه. ابن الأَثير: في أَسماء الله تعالى القادرُ والمُقْتَدرُ والقَديرُ، فالقادر اسم فاعل من قَدَرَ يَقْدِرُ، والقَدِير فعيل منه، وهو للمبالغة، والمقتدر مُفْتَعِلٌ من اقْتَدَرَ، وهو أَبلغ .

والقُدْرَةُ: مَصْدَرُ قَوْلكَ: له على الشَّيْءِ قُدْرَةٌ: أي مِلْكٌ، فهو قَدِيرٌ وقادِرٌ.(٣)

قال الراغب: القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شئ ما وإذا وصف الله تعالي بها فهي نفي العجز عنه ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معني وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال قادر على كذا ومتى قيل هو قادر فعلي سبيل معنى التقييد ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه والله هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالي والمقتدر

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٢ / ٨ ، تاج العروس ٥ / ١٨١
(٢) ينظر: تاج العروس٨ / ١٥٥ - ١٥٦
(٣) ينظر:اللسان ٥ / ٧٤

يقاربه لكن قد يوصف به البشر وإذا استعمل في الله تعالى فمعناه معنى القدير , وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة.(١)

المعنى العام :

يمدح تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السموات والأرض وما اشتملتا عليه من المخلوقات لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه ٤ ولما ذكر الخلق ذكر بعده ما يتضمن الأمر وهو أنه جاعل الملائكة رسلا في تدبير أوامره القدرية ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم بأن جعلهم أولي أجنحة تطير بها فتسرع بتنفيذ ما أمرت به ، ثم ذكر تعالى أن الملائكة من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذة النغمات ما يشاء إن الله على كل شيء قدير فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه ولا يستعصي عليها شيء ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض . (٢)

الشرح والبيان :

فضل الحمد :

هذه السورة الكريمة ضمن سور خمس افتتحت بالحمد وهي : هذه السورة والفاتحة والأنعام والكهف وسبأ . ومن فضل الحمد أنه جعل أول الفاتحة وآخر الدعوات الخاقة (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [يونس : ١٠] .

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث منها:

١- ما أخرجه الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) .(٣)

٢- وأخرج الحاكم وصححه عن الأسود بن سريع قال : قلت يا رسول الله ألا أنشدك

(١) مفردات القرآن ٤٠٩

(٢) المعنى العام مقتبس من : تفسير السعدي ج١:ص٦٨٤

(٣) صحيح مسلم كتاب : الطهارة ٤ باب : فضل الوضوء ١ / ٢٠٣ حديث رقم ٢٢٣

محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى فقال أما إن ربك يحب الحمد[1] .

٣- وأخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله)[2].

٤- وأخرج ابن ماجة أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم-:(ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ)[3].

٥- وأخرج مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[4] .

الفرق بن الحمد والشكر

ذهب بعض العلماء إلى عدم الفرق بين الحمد والشكر وأن معناهما متحد وممن ذهب إلى ذلك شيخ المفسرين ابن جرير الطبري - رحمه الله .

مستدلا على ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر.[5]

وتعقبه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقال : وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان .[6]أ . هـ

والذي عليه أكثر العلماء التفرقة بين الحمد والشكر بالأمور الآتية:

١ـ وهو أن الحمد قد يقع ابتداء للثناء والشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة.

٢- الحمد الثناء على الرجل بما فيه من كرم أو حسب أو شجاعة وأشباه ذلك والشكر الثناء عليه بمعروف أولاكه.[7]

---

(١) المستدرك علي الصحيحين ٣ / ٧١٢ - حديث رقم ٦٥٧٥ وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) سنن الترمذي ٥ / ٤٦٢ حديث رقم ٣٣٨٣ وحسنه الألباني.

(٣) سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٥٠ حديث رقم ٣٨٠٥ وحسنه الألباني .

(٤) صحيح مسلم كتاب : الذكر والدعاء ، باب : استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب : ٤ / ٢٠٩٥ حديث رقم ٢٧٣٤

(٥) ينظر : تفسير ابن جرير ١ / ٤٦

(٦) ينظر : تفسير ابن كثير ١ / ٢٢

(٧) ينظر : زاد المسير ١ / ١١

٣- قال أبو هلال العسكري : الفرق بين الشكر والحمد: أن الشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، والحمد الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به أيضا ويصح على النعمة وغير النعمة، والشكر لا يصح إلا على النعمة ويجوز أن يحمد الإنسان نفسه في أمور جميلة يأتيها ولا يجوز أن يشكرها لان الشكر يجري مجرى قضاء الدين ولا يجوز أن يكون للإنسان على نفسه دين فالاعتماد في الشكر على ما توجبه النعمة وفي الحمد على ما توجبه الحكمة.ونقيض الحمد الذم ويقال الحمد لله على الإطلاق ولا يجوز أن يطلق إلا لله لان كل إحسان فهو منه في الفعل أو التسبيب، والشاكر هو الذاكر بحق المنعم بالنعمة على جهة التعظيم .[١]

الله وحده هو المستحق للحمد علي الحقيقة:

يبين الله-عز وجل- في مستهل هذه السورة أنه المستحق للحمد وأن الحمد مقصور عليه .

وهذا القصر يحتمل أن يكون قصراً إضافياً ذكر للرد علي المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيلوه من إسدائها إليهم نعما ونصرا وتفريج كربات، فقد قال أبو سفيان حين انتصر هو وفريقه يوم أحد: اعل هبل لنا العزى ولا عزى لكم . ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا على معنى الكمال وأن حمد غيره تعالى من المنعمين تسامح لأنه في الحقيقة واسطة صورية لجريان نعمة الله على يديه. والمقصود هو هو، وهو الرد على المشركين، لأن الأصنام لا تستحق الحمد الصوري بله الحقيقي كما قال إبراهيم عليه السلام :(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً }[مريم٤٢] .[٢]

وفي هذا الصدد يقول الشوكاني -رحمه الله-: وتعريفه-أي الحمد- لاستغراق أفراد الحمد وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به لأن المنعم هو الله عز وجل أو على أن حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادعائيًا .

ورجح صاحب الكشاف [٣] أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق والصواب ما ذكرناه وقد جاء في الحديث [٤] (اللهم لك الحمد كله) . [٥] أ-هـ

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ص : ٦٠ منشورات دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولي ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م علق عليه ووضع حواشيه / محمد باسل عون .

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ١٢٦

(٣) ينظر : الكشاف ١ / ٤٩

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١ / ٦٨٦ برقم ١٨٦٨ وصححه وسكت عنه الذهبي .

(٥) ينظر : فتح القدير ١ / ٣٠

معنى الاسم الجليل(الله) :

ذهب بعض السادة العلماء إلى الإمساك عن البحث عن معنى الاسم الجليل تعظيما وإجلالاً.

قال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور-رحمه الله-: ومن أعجب الآراء ما ذكره صاحب المنهل الأصفى في شرح الشفاء التلمساني عن جمع من العلماء القول بأن اسم الجلالة يمسك عن الكلام في معناه تعظيما وإجلالا ولتوقف الكلام فيه على إذن الشارع. أ.هـ

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الاسم الجليل علم للمعبود بحق ولم يتسم به أحد غيره -عز وجل- وأما المعبودات الباطلة فإنه لم يطلق عليها لفظ الإله معرفاً باللام وإنما كان يضاف إليها فيقولون إله بنى فلان

قال الإمام القرطبي-رحمه الله-: (الله) هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ولذلك لم يثن ولم يجمع وهو أحد تأويلي قوله تعالى: { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم:٦٥] أي: من تسمى باسمه الذي هو الله فالله أسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه وقيل معناه الذي يستحق أن يعبد وقيل معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال والمعنى واحد .(١)

وقال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور-رحمه الله-: وأحسب أن اسمه تعالى تقرر في لغة العرب قبل دخول الإشراك فيهم فكان أصل وضعه دالا على انفراده بالألوهية إذ لا إله غيره فلذلك صار علما عليه، وليس ذلك من قبيل العلم بالغلبة بل من قبيل العلم بالانحصار مثل الشمس والقمر فلا بدع في اجتماع كونه اسم جنس وكونه علما، ولذلك أرادوا به المعبود بحق ردا على أهل الشرك قبل دخول الشرك في العرب وإننا لم نقف على أن العرب أطلقوا الإله معرفا باللام مفردا على أحد أصنامهم وإنما يضيفون فيقولون: إله بني فلان والأكثر أن يقولوا: رب بني فلان، أو يجمعون كما قالوا لعبد المطلب: أرض الآلهة، وفي حديث فتح مكة وجد رسول الله البيت فيه الآلهة .

(١) تفسير القرطبي ١ / ٨٨ - ٨٩

فلما اختص الإله بالإله الواحد واجب الوجود اشتقوا له من اسم الجنس علما زيادة في الدلالة على أنه الحقيق بهذا الاسم ليصير الاسم خاصا به غير جائر الإطلاق على غيره على سنن الأعلام الشخصية، وأراهم أبدعوا وأعجبوا إذ جعلوا علم ذاته تعالى مشتقا من اسم الجنس المؤذن بمفهوم الألوهية تنبيها على أن ذاته تعالى لا تستحضر عند واضع العلم وهو الناطق الأول بهذا الاسم من أهل اللسان إلا بوصف الألوهية وتنبيها على أنه تعالى أولى من يؤله ويعبد لأنه خالق الجميع فحذفوا الهمزة من الإله لكثرة استعمال هذا اللفظ عند الدلالة عليه تعالى كما حذفوا همزة الأناس فقالوا: الناس؛ ولذلك أظهروها في بعض الكلام.(٢)

ويقول الحافظ ابن كثير– رحمه الله– : الله : علم على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : (هُوَ اللَّهُ الَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{٢٢} هُوَ اللَّهُ الَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{٢٣} هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٢٤}) الحشر .

فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى : { وَلِلّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[الأعراف١٨٠] وقال تعالى : { قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء }[الإسراء١١٠]. أ٠هـ (٢)ابن كثير

قوله تعالي : (فاطر السماوات والأرض) :

تقدم في المفردات معني فاطر السماوات والأرض وكيف أن هذه الكلمة خفي معناها على ابن عباس – رضى الله عنهما – حتى علمها من أحد الأعراب والذي نزيده هنا أن الفاطر: فاعل الفطر، وهو الخلق، وفيه معنى التكون سريعا لأنه مشتق من الفطر وهو الشق، ومنه { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ } [الشوري : ٥] { إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ }[الانفطار:١] . وعن ابن عباس–رضي الله عنهما– كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض٠ أي: لعدم جريان هذا اللفظ بينهم في زمانه حتى أتاني أعرابيان

(١) التحرير والتنوير ١ / ١٦٢ – ١٦٣
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩

يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها. وأحسب أن وصف الله ب(فاطر السماوات والأرض) مما سبق به القرآن . [1]

لماذا جمع السماوات وأفرد الأرض ؟

جاء لفظ السماء في القرآن الكريم بصيغة الجمع تارة والإفراد تارة أخرى وأما لفظ الأرض فلم يأت إلا بصيغة الإفراد وذلك في جميع آيات القرآن الكريم.

وفي النص الذي نحن بصدده نري أن الله –عز وجل– جمع السماوات وأفرد الأرض، والأرض متعددة كالسماوات، والمؤاخاة بين الألفاظ من محسنات الكلام فإذا جمع أحد المتقابلين أو نحوهما ينبغي أن يجمع الآخر.

وقد ذكر العلماء في جمع السماوات وإفراد الأرض وجوها :

أحدها: أن السماوات عوالم كثيرة بخلاف الأرض فإنها عالم واحد.

قال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – : وجمع (السماوات) لأنها عوالم كثيرة، إذ كل كوكب منها عالم مستقل عن غيره، ومنها الكواكب السبعة المشهورة المعبر عنها في القرآن بالسماوات السبع فيما نرى. وأفرد الأرض لأنها عالم واحد، ولذلك لم يجيء لفظ الأرض في القرآن جمعا.[2]

ثانيها: ما ذكره البيضاوي–رحمه الله– بقوله : وجمع السماوات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات.وتبعه العلامة أبو السعود فقال: وجمع السموات لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض [3]

ويقول النسفي –رحمه الله– : جمع السموات لأنها طباق بعضها فوق بعض والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال لبعض[4].

ثالثها: قال القرطبي جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووحد الأرض لأنها كلها تراب والله تعالى أعلم[5].

رابعها: جمع السموات وأفرد الأرض للإشارة إلى تفاوتهما في الشرف فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده وأفرد غير الأشرف وأشرفية السماء لأنها محل الملائكة المقدسين على تفاوت

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٤٩
(٢) المرجع السابق ٧ / ١٢٦
(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ٣٦٧
(٤) تفسير النسفي جـ ٢ صـ ٢
(٥) القرطبي ١ / ٥٧٢

مراتبهم وقبلة الدعاء ومعراج الأرواح الطاهرة ولعظمها وإحاطتها بالأرض علـــى القـــول بكريتها الذاهب إليه بعض منا وعظم آيات الله فيها ولأنها لم يعص الله تعالى فيها أصلا وفيها الجنة التي هي مقر الأحباب ولغير ذلك والأرض وإن كانت دار تكليف ومحل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس ذلك إلا للتبليغ وكسب ما يجعلهم متأهلين للإقامة في حظيرة القدس لأنها ليست بدار قرار وخلق أبدان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منها ودفنهم فيها مع كون أرواحهم التي هي منشأ الشرف ليست منها ولا تدفن فيها لا يدل على أكثر من شرفها وأما أنه يدل علي أشرفيتها فلا يكاد يسلم لأحد وكذا كون الله تعالي وصف بقاعا منها بالبركة لا يدل على أكثر مما ذكرنا .[1]

خامسها: قال أبو حيان لم تجمع الأرض لأن جمعها ثقيل وهو مخالف للقياس ورب مفـــرد لم يقع في القرآن جمعه لثقله وخفة المفرد وجمع لم يقع مفرده كالألباب .[2]

وكل هذه الأقوال محتمله وإن كنت أميل إلي قول أبي حيان – رحمه الله – ذلك لأن كلمـــة الأرض بالإفراد أرشق وأخف علي السمع من الجمع .

من صفات الملائكة في الآية الكريمة:

وصف الله –عز وجل– الملائكة بصفتين :

الصفة الأولي : أنهم رسله إلي أنبيائه وعباده . قال القرطبي–رحمه الله–جاعل الملائكة رســـلا أي بينه وبين أنبيائه .

وقال القرطبي – رحمه الله –: قال يحيى بن سلام يرسلهم الله إلى الأنبيـــاء وقـــال السدى إلى العباد بنعمه أو نقمه .[3]

الصفة الثانية :أنهم أولي أجنحة منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاث ومنهم من له أربع .

قال ابن أبي حاتم–رحمه الله–: عن قتادة رضي الله، عنه – قال: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة.[4]

هذا وقد اختلف العلماء– رحمهم الله– في المراد بهذه الأجنحة علي قولين :

الأول : أنها أجنحة علي الحقيقة وهذا القول عليه جمهور المفسرين وتؤيده الأحاديث الواردة

(١) الألوسي ٧ / ١٧

(٢) نقلا عن تفسير الألوسي ٢ / ٤٦ عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة البقرة ولم أجده في البحر .

(٣) القرطبي ٨ / ٥٤٠٠

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣١٧٠

في هذا المجال قال القرطبي–رحمه الله–:(أولي أجنحة) نعت أي أصحاب أجنحة (مثنى وثلاث ورباع) ي : اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة قال قتادة : بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة يترلون بها من السماء إلى الأرض ويعرجون من الأرض إلى السماء وهي مسيرة كذا في وقت واحد . وفي صحيح مسلم[1] عن ابن مسعود أن النبي–صلي الله عليه وسلم– رأي جبريل–عليه السلام–له ستمائة جناح. وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلي كاهله وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع والوصع: عصفور صغير .أ.هـ

الثاني : وقال قوم إن الجناح إشارة إلى الجهة وبيانه أن الله تعالى ليس فوقه شيء وكل شيء سواه فهو تحت قدرته سبحانه والملائكة عليهم السلام لهم وجه إلى الله تعالى يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذنه سبحانه كما قال تعالى : { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ } [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] وقال تعالى :{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى }[النجم: ٥] وقال تعالى : {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }[النازعات :٥] وهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة منهم من له ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات وأكثر .[2]

وذكر الرازي– رحمه الله–: أن القول الأول هو الظاهر وعليه إطباق المفسرين[3].

وقال الألوسي–رحمه الله– مفنداً القول الثاني : وهذا خلاف الظاهر جدا ولا يحتاج إليه السني القائل بأن الملائكة – عليهم السلام أجسام لطيفة نورية يقدرون على التشكل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقة وإنما يحتاج إليه أو إلى نحوه الفلاسفة وأتباعهم فإن الملائكة عندهم هي العقول المجردة ويسميها أهل الإشراق بالأنوار الظاهرة وبعض المتصوفة بالسرادقات النورية وقد ذكر بعض متأخر يهم أن لها ذوات حقيقية وذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن فأما ذواتها الحقيقية فإنما هي أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم إسرافيل عليه السلام وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول كالمدبرات العلوية والسفلية من النفوس

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهي ١ / ١٥٨ برقم ١٧٤

(٢) الرازي١٣/٢٤

(٣) الرازي١٣/٢٤

والطبائع وأطالوا الكلام في ذلك وظواهر الآيات والأخبار تكذبهم والله تعالى الموفق للصواب[1].

وأري أن القول الأول هو الصواب فهو المتبادر إلي الذهن أما غيره من الأقوال فهو أقرب إلي شطحات أهل الفلسفة وتخميناتهم .

هل لبعض الملائكة أكثر من ثلاثة أجنحة؟ وهل هذه الأجنحة علي الحقيقة؟

الذي نصت عليه الآية الكريمة : أن من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان ، وخلقا لكل منهم ثلاثة أجنحة ،وخلقا لكل منهم أربعة أجنحة ،ولا دلالة في الآية على نفي الزائد أو الأقل من ذلك وما ذكر في الآية من عدد الأجنحة للدلالة علي التكثير وليس للحصر.

قال الألوسي –رحمه الله–:بل قال بعض المحققين إن ما ذكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن أثنين . و عن ابن مسعود [2]في قوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) رأى جبريل له ستمائة جناح . [3]

وقال الزمخشري مر بي في بعض الكتب أن صنفا من الملائكة عليهم السلام لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في أمر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله– عز وجل –[4].

قال الألوسي–رحمه الله–:والبحث عن كيفية وضع الأجنحة شفعا كانت أو وترا فيما أرى مما لا طائل تحته ولم يصح عندي في ذلك شيء ولقياس الغائب علي الشاهد قال بعضهم:إن المعني إن في كل جانب لبعض الملائكة –عليهم السلام– جناحين ولبعضهم ثلاثة ولبعضهم أربعة ،وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت. أ.هـ[5]

وجملة القول : أن أجنحة الملائكة أجنحة حقيقية وهي أكثر من العدد المذكور في الآية ، فالعدد في الآية ليس للحصر بدلالة حديث ابن مسعود السابق أما كيفية هذه الأجنحة فلا علم لنا بها .

---

(١) تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٤٢

(٢) سبق تخريجه ص : ٢٣

(٣) ينظر : تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٤١

(٤) الكشاف ٣ / ٢٩٨

(٥) ينظر : الألوسي ٢٢ / ٢٤١

معني الزيادة في الخلق :

وقوله تعالي :(يزيد في الخلق ما يشاء) مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف[1].

وفي قوله تعالي (يزيد في الخلق ما يشاء) أقوال :

أحدها : يزيد في أجنحة الملائكة وخلقهم ما يشاء .

قال ابن أبي حاتم [2]: عن السدى رضي الله، عنه في قوله:(يزيد في الخلق ما يشاء) يزيد في أجنحتهم وخلقهم ما يشاء .

الثاني : إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة .

قال الزهري وابن جريج :إنها حسن الصوت. وقال قتادة : الملاحة في العينين ، والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم . وقيل: الوجه الحسن . وقيل :الخط الحسن. قيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل :العلوم والصنائع . ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة . [3]

أقول : وما خصه بعض المفسرين من الزيادة مجرد تمثيل لا للحصر وإلا فالنص الشريف يشمل كل زيادة في خلق الملائكة أو خلق غيرهم ممدوحة كانت هذه الزيادة في نظر المخاطب أو مذمومة إذ يلاحظ أن المفسرين–رحمهم الله– ذكروا عند تفسير هذه الزيادة أوصافاً محمودة .

قال القرطبي–رحمه الله– في تفسير هذا النص الشريف : وقال الزهري وابن جريج يعني حسن الصوت ، وقال قتادة (يزيد في الخلق ما يشاء) الملاحة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم . وقيل الخط الحسن .

وقيل : الوجه الحسن ، وقيل :هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ، وقيل العقل والتمييز وقيل العلوم والصنائع .[4]

---

(١) أبو السعود ٧ / ١٢٤

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣١٧٠

(٣) فتح القدير ٤ / ٣٣٨

(٤) ينظر : تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٠٢

والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجرأة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم وحسن تأت في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

قدرة الله تعالي عامة تشمل كل شيء :

وقوله تعالي: (إن الله علي كل شيء قدير) تعليل لما ذكر وبيان لشمول قدرته- تعالي- لجميع الأشياء

قال الإمام الألوسي -رحمه الله- (إن الله على كل شيء قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته لجميع الأشياء مما يوجب قدرته سبحانه على أن يزيد في كل خلق ما يشاؤه تعالى إيجابا بينا[1] .

ما يستفاد من النص الشريف :

١ – الله عز وجل هو المستحق للحمد فهو الذي أبدع السموات والأرض وما بينهما علي غير مثال سابق ، وأحكم تدبير هذا الكون علي أتم نظام وأكمل وجه .

٢ – الملائكة وسائط بين الله تعالي وبين أنبيائه ، وهم سفراؤه إلي خلقه ، يبلغونهم ما يأمر الله تعالي بتبليغه .

٣ – الملائكة خلقهم الله تعالي لهم أجنحة متعددة وكيفية هذه الأجنحة لا علم لنا بها .

٤ – أن قدرة الله تعالي في خلقه قدرة مطلقة ومن مظاهر طلاقة هذه القدرة أنه يزيد في الخلق ما يشاء ، من اعتدال في الصورة ، وتمام في الأعضاء ، ووسامة في الوجه ، وجزالة في الرأي، ولباقة في التكلم إلي غير ذلك من الأمور التي لا يحيط بها وصف .

(١) ينظر : الألوسي ٢٢ / ٢٤٣

نفوذ مشيئة الله ونفوذ أمره

قال تعالى: { مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ }

صلة الآية الكريمة بما قبلها:

قال الإمام الرازي–رحمه الله – :لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر وقال ما يفتح الله للناس،يعني إن رحم فلا مانع له ،وإن لم يرحم فلا باعث له عليها .(١)

المفردات:

ما : اسم شرط جازم مبني علي السكون بمعني"أي شيء"في محل نصب مفعول بـه مقـدم للفعل" يفتح" وهو اسم مبهم.(٢)

يفتح : قال الراغب – رحمه الله–: الفتح إزالة الإغلاق والإشكال ،وذالك ضربان، أحدهما : يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه والثاني : يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم ،وذلك ضروب،أحدها:في الأمور الدنيوية كغم يفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه والثاني: فـتح المستغلق من العلوم ، نحو قولك فلان فتح من العلم بابا مغلقا وفاتحة كل شيء مبدؤه . (٣)

وفي مختار الصحاح: فتح: فَتح الباب فَانْفَتَحَ وبابه قطع و فَتَّحَ الأبواب شُدد للكثرة فَتَفَتَّحتْ و اسْتَفْتَحَ الشيء و افْتَتَحَهُ بمعنى و الاسْتِفْتَاحُ الاستنصار و المِفْتَاحُ مفتاح البـاب وكل مُستغلق والجمع مَفَاتِيحُ و مَفَاتِحُ أيضا و فَاتَحَةُ الشيء أوله و الفَتَّاحُ الحاكم تقول افْتَحْ

(١) الرازي١٣/٢٤

(٢) الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل٩/٣٧٤

(٣) المفردات٣٨٤ بتلخيص

بيننا أي احكم و الفَتْحُ النصر وبابهما أيضا قطع. [1]

للناس: الناس قيل أصله أناس فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام ، وقيل:قلب من نسي وأصله إنسيان علي إفعلان وقيل أصله من ناس ينوس إذا اضطرب ،ونست الإبل سقتها ... والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزاً وذلك إذا اعتبر معني الإنسانية وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعني المختصة به، فإن كل شيء عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه كاليد فلأنها إذا عدمت فعلها الخاص بها فإطلاق اليد عليها كإطلاقها علي يد السرير ورجله ، فقوله" كما آمن الناس" [البقرة : ١٣] أي كما يفعل من وجد فيه معني الإنسانية ، ولم يقصد بالإنسان عيناً واحداً بل قصد المعني وكذا قوله "أم يحسدون الناس"[النساء : ٥٤] أي : من وجد فيه معني الإنسانية أي إنسان كان وربما قصد به النوع كما هو وعلي هذا قوله" أم يحسدون الناس" [النساء : ٥٤] [2]

قال في اللسان :الناسُ: قد يكون من الإنس ومن الجنِّ، وأَصله أَناس فخفف ولم يجعلوا الأَلف واللام فيه عوضاً عن الهمزة المحذوفة، لأَنه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوَّض منه في قول الشاعر:

إنَّ المَنايا يَطَّلِعْنَ على الأُناسِ الآمنينا

والنَّوْس: تَذَبْذُبُ الشيء. ناسَ الشيءُ يَنوسُ نَوْساً ونَوَساناً: تحرك وتَذَبْذَبَ متَدَلِّياً. [3]

من رحمة: الرَّحْمة: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمرْحَمَةُ مثله، وقد رَحِمْتُهُ وتَرَحَّمْتُ عليه. وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضهم بعضاً. والرَّحْمَةُ: المغفرة؛ ورَحِمَهُ رُحْماً ورُحُماً ورَحْمةً ورَحَمَةً؛ حكى الأَخيرة سيبويه، ومَرحَمَةً. وتَرَحَّمْتُ عليه أَي قلت : رَحْمَةُ الله عليه. والرَّحَمُوتُ: من الرحمة. وفي المثل: رَهَبُوتٌ خير من رَحَمُوت أَي : لأَنْ تُرْهَبَ خير من أَن تُرْحَمَ . والرَّحْمَةُ في بني آدم عند العرب: رِقَّةُ القلب وعطفه. ورَحْمَةُ الله: عَطْفُه وإِحسانه ورزقه. والرُّحْمُ، بالضم: الرحمة. [4]

فلا ممسك لها:

مَسَكَ به وأَمسَكَ به وَتماسَكَ وَتَمَسَّكَ واسْتَمْسَكَ ومَسَّكَ تَمْسِيكًا كُلُّه بمَعْنى احْتَبَسَ.

---

(١) مختار الصحاح ٣٨٣ – ٣٨٤ مادة " فتح "

(٢) المفردات ٥٣١

(٣) اللسان ٦ / ٢٤٥ مادة : "نوس"

(٤) اللسان ١٢ / ٢٣٠ مادة " رحم "

وفي الصحاح: اعْتَصَمَ به وفي المُفْرَدات إمْساكُ الشيء: التَّعَلُّقُ به وحِفْظُه. (١)
وجملة فلا ممسك لها جواب الشرط وأنث الضمير علي معني الرحمة وإن كان عائداً إلي"ما" بمعني : فلا مانع لها.وذكر الضمير في قوله" فلا مرسل له" لأن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه .ولأن الأول أي:الضمير المؤنث في "لها"فسر بالرحمة فحسن اتباع التفسير ولم يفسر الثاني فترك علي أصل التذكير.ولم يفسر الثاني لدلالة الأول عليه.(٢)
العزيز: العِزّ في الأصل القُوَّةُ والشِّدَّة والغلَبَة والرِّفْعة والامْتناع. وفي البَصائر: العِزَّة: حالةٌ مانعةٌ للإنسان من أن يُغلَب، وهي يُمدَح بها تارةً، ويُذَمُّ بها تارةً، كعِزَّة الكُفّار: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ }ص٢ ووَجهُ ذلك أنّ العِزَّة لله ولرسوله، وهي الدائمةُ الباقية، وهي العِزَّة الحقيقية، والعِزَّةُ التي هي للكفّار هي التَّعَزُّز، وفي الحقيقة ذُلّ لأنّه تشبُّع بما لم يُعطَه، وقد تُستَعار العِزّة للحَمِيَّة والأَنَفَة المذمومة، وذلك في قَوْلهُ تَعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ } [البقرة :٢٠٦] وعَزَّ الشيءُ يَعِزُّ عِزّاً وعِزَّةً وعَزازَة: قَلَّ فلا يكادُ يُوجَد، وهذا جامعٌ لكلّ شيءٍ، فهو عَزيزٌ قليلٌ. وفي البَصائر: هو اعْتِبار بما قيل: كلّ موجودٍ مَمْلُولٌ وكلّ مَفْقُودٍ مَطْلُوبٌ، ج عِزَازٌ، بالكسر، وأَعِزَّةٌ وأَعِزَّاء. قال اللهُ تعالى: { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة : ٥٤] أي جانبُهم غليظٌ على الكافرين، لَيِّنٌ على المؤمنين. والعزيز الذي يقهر ولا يقهر.(٣)
الحكيم: الحُكْمُ القضاء وقد حَكَم بينهم يحكم بالضم حُكْما و حَكَم له وحكم عليه و الحُكْمُ أيضا الحكمة من العلم و الحكِيمُ العالم وصاحب الحكمة والحكيم أيضا المتقن للأمور.(٤)
والحكيم من الرجال يجوز أن يكون فعيلا في معنى فاعل ويجوز أن يكون في معنى مفعل والله حاكم وحكيم والأشبه أن تحمل كل واحد منهما على معنى غير معنى الآخر ليكون أكثر فائدة فحكيم بمعنى محكم والله تعالى محكم للأشياء متقن لها كما قال تعالى : { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }[النمل :٨٨].(٥)

---

(١) تاج العروس ٢٧ / ٣٣٣ وما بعدها
(٢) ينظر: الإعراب المفصل٩/٣٧٥
(٣) ينظر: تاج العروس ١٥ / ٢١٩ مادة : " عزز " / مفردات القرآن٣٤٤
(٤) مختار الصحاح ١٦٧
(٥) تفسير أسماء الله الحسني ٥٢

والحكيم : معناه الحاكم وبينهما مزيد المبالغة وقيل محكم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل صرف عن مفعل إلى فعيل كما صرف عن مسمع إلى سميع ومؤلم إلى أليم قاله أبن الأنباري وقال قوم الحكيم المانع من الفساد ومنه سميت حكمة اللجام لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد قال جرير:

بني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي امنعوهم من الفساد وقال زهير:

القائد الخيل منكوبا دوابرها قد أحكمت حكمات القد والأبقا

القد الجلد والأبق القنب والعرب تقول إحكام اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه والسورة المحكمة الممنوعة من التغيير وكل التبديل وأن يلحق بها ما يخرج عنها ويزاد عليها ما ليس منها والحكمة من هذا لأنها تمنع صاحبها من الجهل ويقال أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد فهو محكم وحكيم عن التكثير.(١) والحكيم : فعيل من أحكم إذا أتقن الصنع بأن حاطه من الخلل. وأصل مادة حكم في كلام العرب للمنع من الفساد والخلل.(٢)

المعنى العام:

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع وأنه- تعالي ذكره- مفاتيح الخير ومغالقه كلها بيده؛ فما يفتح الله للناس من خير فلا مغلق له، ولا ممسك عنهم، لأن ذلك أمره لا يستطيع أمره أحد، وكذلك ما يغلق من خير عنهم فلا يبسطه عليهم، ولا يفتحه لهم، فلا فاتح له سواه، لأن الأمور كلها إليه وله وهو العزيز في نقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه، وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة.(٣)

الشرح والبيان :

المراد بالرحمة هنا :

ذكر العلماء – رحمهم – الله في المراد بالرحمة وجوهاً فقيل:هي المطر والرزق وقيل: النبوة وقيل التوبة . والصحيح العموم وما ذكر فمن باب التمثيل.

(١) القرطبي ١ / ٢٤٦

(٢) التحرير والتنوير١ / ٤١٥ .

(٣) ينظر: ابن جرير وابن كثير ٣ / ٥٤٦

قال ابن الجوزي –رحمه الله–: قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة) أي : من خير ورزق وقيل أراد بها المطر.[1]

وقال الشوكاني: ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها آي: ما يأتيهم الله به من مطر ورزق لا يقدر أحد أن يمسكه وما يمسك من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه وقيل المعنى إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله وقيل هو الدعاء وقيل التوبة وقيل التوفيق والهداية ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه ولا مانع غيره[2]

قال القرطبي– رحمه الله–: ولفظ الرحمة يجمع ذلك إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام فهي متناولة لكل رحمة على البدل فهو عام في جميع ما ذكر وفي موطأ مالك أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) .[3]

ولصاحب الظلال–رحمه الله– كلام طيب تحت تفسير هذه الآية أنقله إتماما للفائدة.

قال–رحمه الله– : ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد ، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه ، وتكريمه بما كرمه ، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته ، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح و يجدها من يفتحها الله له في كل شيءٍ ، وفي كل وضع ،وفي كل حال وفي كل مكان ، يجدها في نفسه وفي مشاعره ويجدها فيما حوله ،وحيثما كان وكيف ما كان.ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان ... ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء وفي كل وضع وفي كل حالة وفي كل مكان .ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان وعلامة الرضوان ! وما من نعمة– يمسك الله عنها رحمته – حتى تنقلب هي ذاتها نقمة . وما من محنة –تحفها رحمة الله – حتى تكون هي بذاتها نعمة ..ينام الإنسان علي الشوك–مع رحمة الله–فإذا هو مهاد .وينام علي الحرير –

(١) زاد المسير ٦ / ٤٧٣

(٢) فتح القدير ٤ / ٣٣٨

(٣) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٠٣

وقد أمسكت عنه فإذا هو شوك القتاد .ويعالج أعسر الأمور –برحمة الله–فإذا هي هـوادة ويسر.ويعالج أيسر الأمور –وقد تخلت عنه الرحمة فإذا هي مشقة وعسر . ويخـوض بهـا المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام . ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله .إنما الضيق في إمساكها دون سواه .لا ضـيق وإن كـان صاحبها في غياهب السجن,أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك.ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم وفي مراتع الرخاء.فمن داخل النفس برحمة الله تتفجـر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقـارب القلـق والتعب والنصب والكد والمعاناة ![1]

ما يؤخذ من الآية الكريمة:

١ – الرحمة من أنفس الخزائن ومن أعز الأشياء التي يتنافس فيها المتنافسون ولذلك عبر عن إرسالها بالفتح.

٢ – أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فأي شئ يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به فلا ممسك لها أي لا أحد يقدر على إمساكها وما يمسك أي شئ يمسك فلا مرسل له أي لا أحد يقدر على إرساله فهو سبحانه وحده المعطي و المانع, والضار والنافع وهو علي كل شيء قدير.

٣ – دعت الآية الكريمة إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عما سواه عز وجل وإراحة البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليالي وقد أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسى(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } يونس١٠٧ و { سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً }الطلاق٧ .و {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

(١) – الظلال ٥/٢٩٢١-٢٩٢٢

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }هود٦.[الدر المنثور ٧ / ٥]

٤- في الآية دليل أن رحمة الله تسبق غضبه وذلك من وجوه :

أحدها: التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر.وهو وإن كان ضعفاً لكنه وجه من وجوه الفضل.

وثانيها: هو أنه أنث الكناية في الأول فقال :{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا } وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلي ما،ولكن قال تعالي"لها"ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلي من رحمته.

وقال عند الإمساك { وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ} بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة.

فإن قوله تعالي (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالي: { مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ } فإن قوله مخصص مبين.

وثالثها: قوله" من بعده" أي من بعد الله , فاستثني هاهنا وقال لا مرسل له إلا الله فترل له مرسلاً , وعند الإمساك قال لا ممسك لها ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فإن من رحمه في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان.[1]

(١) - الرازي١٣/٢٤

تفرد الله- عز وجل- بالخلق والرزق وتسليته لرسوله-صلي الله عليه وسلم

قال تعالي : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤ }

صلة النص الشرف بما قبله :

لما بين- سبحانه وتعالي – أن الحمد له وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد علي سبيل التفصيل بين علي سبيل الإجمال فقال (ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ) وهي علي كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال تعالي (هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ) إشارة إلي نعمة الإيجاد في الابتداء وقال تعالي (يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ) إشارة إلي نعمة الإبقاء بالرزق إلي الانتهاء ثم بين أنه (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) نظراً إلي عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر علي كل شيء نافذ الإرادة في كل شيء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرا إلي نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

ثم قال فأني(تؤفكون) أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر , فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت.[1]

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٢٥

المفردات :

يأيها الناس : يا: أداة نداء ."أي" اسم منادي مبني علي الضم في محل نصب و"ها" زائدة للتنبيه.

اذكروا : قال الراغب-رحمه الله-: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتبارا باستحضاره ,وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول,ولذلك قيل الذكر ذكران :ذكر بالقلب وذكر باللسان,وكل واحد منهما ضربان , ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ.(١)

نعمة الله: النِّعْمَةُ اليد والصنيعة والمِنة وما أُنعم به عليك وكذا النُّعْمَى فإن فتحت النون مددت فقلت النَّعْمَاءُ ..و النَّعِيمُ مثله وفلان واسع النِّعْمَةِ ،أي: واسع المال وقولهم: إن فعلت ذلك فبها و نِعْمَتِ أي ونَعِمت الخُصلة.(٢)

هل من خالق غير الله: هل أداة استفهام , والاستفهام هنا إنكاري ، قال الشهاب :فإن قلت : قال الرضي وغيره من النحاة في الفرق بين الهمزة وهل أن الهمزة ترد للاستفهام والإنكار وهل لا تستعمل للإنكار فقد أجيب عنه بأن الإنكار ثلاثة أقسام إنكار علي مدعي الوقوع كقوله تعالي : {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ }الإسراء٤٠ . ويلزمه النفي وإنكار علي من أوقع الشيء نحو : أتضربه وهو أخوك؟ وإنكار لوقوع الشيء, ويستعمل هل في الأخير دون الأولين،وهذا معني قولهم الاستفهام بهل يراد به النفي.(٣)

فأني تؤفكون: أني للبحث عن الحال والمكان ولذلك قيل هو بمعني أين وكيف لتضمنه معناهما، والإفك الكذب والصرف من الحق إلي الباطل .

قال الراغب: الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: مؤتفكة. قال تعالى: ﴿والمؤتفكات بالخاطئة﴾ [الحاقة/٩]، وقال تعالى: ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ [النجم/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ [التوبة/٣٠] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، ومنه قوله تعالى: ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ [الذاريات/٩]، ﴿فأنى تؤفكون﴾

(١) مفردات القرآن ١٨٢

(٢) مختار الصحاح ٦٨٨ .

(٣) حاشية الشهاب٧ /٢١٥

[الأنعام/٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ولجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ [الأحقاف/٢٢]، فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل، فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا، وقال تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ [النور/١١]، وقال: ﴿لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية/٧]، وقوله : ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون﴾ [الصافات/٨٦] فيصح أن يجعل تقديره: أتريدون آلهة من الإفك .[١]

ترجع الأمور: الأمور: جمع أمر وهو الشأن والحال،أي إلى الله ترجع الأحوال كلها يتصرف فيها كيف شاء، فتكون الآية تهديدا للمكذبين وإنذارا.[٢]

قال الراغب: الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئا، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ [هود/١٢٣]، وقال: ﴿قل: إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء﴾ [آل عمران/١٥٤]، ﴿أمره إلى الله﴾ [البقرة/٢٧٥] ويقال للإبداع: أمر، نحو: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف/٥٤]، ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق وقد حمل على ذلك قوله تعالى: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ [فصلت/١٢] وعلى ذلك حمل الحكماء قوله: ﴿قل: الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء/٨٥] أي: من إبداعه، وقوله: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل/٤٠] فإشارة إلى إبداعه، وعبر عنه بأقصر لفظة، وأبلغ ما يتقدم فيه فيما بيننا بفعل الشيء، وعلى ذلك قوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ [القمر/٥٠]، فعبر عن سرعة إيجاد بأسرع ما يدركه وهمنا.[٣]

المعنى العام:

يقول تعالى ذكره للمشركين به من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش: {يا أيها الناس اذكروا نعمة الله} التي أنعمها {عليكم} بفتحه لكم من خيراته ما فتح وبسطه لكم من العيش ما بسط وفكروا فانظروا هل من خالق سوى فاطر السموات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها {يرزقكم من السماء والأرض} فتعبدوه دونه {لا إله إلا هو} يقول: لا معبود تنبغي له العبادة إلا الذي فطر السموات والأرض، القادر على كل شيء ، الذي بيده مفاتح الأشياء وخزائنها، ومغالق ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناس شيئا سواه ،

(١) مفردات القرآن ٢٠ / ٢١

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٥٧

(٣) ينظر: المفردات ٢٠

فإنه لا يقدر على نفعكم وضركم سواه، فله فأخلصوا العبادة، وإياه فأفردوا بالألوهة فأي وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم تصرفون. ثم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله من قومك فلا يحزننك ذاك، ولا يعظم عليك، فإن ذلك سنة أمثالهم من كفرة الأمم بالله، من قبلهم، وتكذيبهم رسل الله التي أرسلها إليهم من قبلك، ولن يعدو مشركو قومك أن يكونوا مثلهم، فيتبعوا في تكذيبك منهاجهم، ويسلكوا سبيلهم {وإلى الله ترجع الأمور} يقول تعالى ذكره: وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم، فمحل بهم العقوبة، إن هم لم ينيبوا إلى طاعتنا في اتباعك، والإقرار بنبوتك، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة، نظير ما أحللنا بنظرائهم من الأمم المكذبة رسلها قبلك، ومنجيك وأتباعك من ذلك، سنتنا بمن قبلك في رسلنا وأوليائنا.[1]

الشرح والبيان :

معني ذكر النعمة والمراد بها:

أمر الله- عز وجل- بذكر نعمته. وقد ورد هذا الأمر في آيات كثيرة من كتابه المجيد منها قوله تعالي: (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليم...)"البقرة١٢٢،٤٧، ٤٠ " وقوله تعالي : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم...)"المائدة: ١١" وقوله تعالي: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا)" الأحزاب٩" .

وليس المرد بذكر النعمة ورودها علي الذهن أو تلفظها باللسان فحسب بل يجب أن ينضم إلي ذلك شكرها والاعتراف بالمنعم بها وطاعته.

قال البيضاوي -رحمه الله-: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) احفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها.أ.هـ [2]

وقال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور- رحمه الله - : والمقصود من تذكر النعمة شكرها وقدرها قدرها. ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي. فالمراد بالذكر هنا التذكر بالقلب وباللسان فهو من عموم المشترك أو من إرادة القدر المشترك فإن الذكر باللسان والذكر بالقلب يستلزم

(١) ينظر ابن جرير ٢٢ / ٧٧ – ٨٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ٤ / ٤١٠

أحدهما الأخر وإلا لكان الأول هذيانا والثاني كتمانا. قال عمر ابن الخطاب أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه ، أي وفي كليهما فضل. ووصفت النعمة بـ (عليكم) لأن المقصود من التذكر التذكر الذي يترتب عليه الشكر، وليس المراد مطلق التذكر بمعنى الاعتبار والنظر في بديع فضل الله، فذلك له مقام آخر. (١)

والمراد بالنعمة هنا قيل: ما من الله به علي قريش من إسكانهم الحرم ومنعهم الغارات.(٢)

وقيل : هي نعمة الخلق والإيجاد . قاله ابن عطية .(٣)

وقيل : نعمة العافية. ذكره الألوسي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- ثم قال الألوسي : والأولي عدم التخصيص.(٤)

أقول : وإن كان اللفظ عام يشمل كل نعمة لكن المناسب للمقام هنا نعمة الخلق والإيجاد لذكره في السياق .

والخطاب في قوله:(يا أيها الناس) لأهل مكة,عند كثير من المفسرين.

قال ابن عطية- رحمه الله-:" يا أيها الناس " خطاب لقريش وهو متجه لكل كافر ولا سيما لعباد غير الله.(٥)

وقال الجمل- رحمه الله-:" يا أيها الناس " أهل مكة. (٦)

أقول: والخطاب وإن كان موجهاً إلي أهل مكة إلا أنه عام، يتناولهم ويتناول غيرهم, إذ ما من أحد إلا ومأمور بذكر نعم الله -عز وجل- وشكره عليها .

الله وحده هو الخالق والرازق فهو وحده المستحق للعبادة :

ثم ينكر الله -عز وجل- أن يكون لغيره مدخل في خلق هذا الكون العظيم فقال(هل من خالق غير الله...) الآية. وإذا كان الله تعالي هو الخالق لهذا الكون وما فيه من منافع فهو وحده المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي لا تخلق ولا ترزق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٥٤

(٢) الجمل في حاشيته ٣/٤٨٥

(٣) المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٩

(٤) تفسير الألوسي١٢/٢٤٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤ / ٤٢٩

(٦) الفتوحات الإلهية ٣/٤٨٥

يقول الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور تحت تفسير هذه الآية: وجملة (يرزقكم) يجوز أن تكون وصفا ثانيا ل(خالق). ويجوز أن تكون استئنافا بيانيا.

وجعل النفي متوجها إلى القيد وهو جملة الصفة كما هي سنته في الكلام المقيد لأن المقصود التذكير بنعم الله تعالى ليشكروا، ويكون ذلك كناية عن الاستدلال على انتفاء وصف الخالقية عن غيره تعالى لأنه لو كان غيره خالقا لكان رازقا إذ الخلق بدون رزق قصور في الخالقية لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم فيكون خلقه عبثا يتره عنه الموصوف بالإلهية المقتضية للحكمة فكانت الآية مذكرة بنعمتي الإيجاد والإمداد.

وزيادة (من السماء والأرض) تذكير بتعدد مصادر الأرزاق، فإن منها سماوية كالمطر الذي منه شراب، ومنه طهور، وسبب نبات أشجار وكلأ، وكالمن الذي ينزل على شجر خاص من أندية في الجو، وكالضياء من الشمس، والاهتداء بالنجوم في الليل، وكذلك أنواع الطير الذي يصاد، كل ذلك من السماء.

ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار وزيوت وفواكه ومعادن وكلأ وكمأة وأسماك البحار والأنهار.

وفي هذا القيد فائدة أخرى وهي دفع توهم الغُفَّل أن أرزاقا تأتيهم من غير الله من أنواع العطايا التي يعطيها بعضهم بعضا، والمعاوضات التي يعاوضها بعضهم مع بعض فإنها لكثرة تداولها بينهم قد يلهيهم الشغل بها عن التدبر في أصول منابعها فإن أصول موادها من صنع الله تعالى فآل ما يعطاه الناس منها إلى أنه من الله.[1]

وقد قرر الله– عز وجل –هذا المعني في آيات كثيرة منها :

١ – قوله تعالي : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ [سورة البقرة] .

يقول ابن جرير–رحمه الله–: فأمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواء عليهم أأنذروا أم لم ينذروا أنهم لا يؤمنون، لطبعه على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم، وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدي بلسانه من قبله: آمنا بالله واليوم الآخر، مع استبطانه خلاف ذلك، ومرض قلبه، وشكه في حقيقة ما يبدي من ذلك؛ وغيرهم

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٥٤ – ٢٥٥

من سائر خلقه المكلفين، بالاستكانة والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له، والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة ؛ لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم، فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم وهو يقدر على ضركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر.(١)

٢ – وقوله تعالى: { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ }[الأعراف]

قال الحافظ ابن كثير–رحمه الله–: هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعبادها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى" يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز" [الحج ٧٣ : ٧٤] أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ولهذا قال تعالى لا يخلق شيئا وهم يخلقون أي بل هم مخلوقون مصنعون.(٢)

٣ – وقوله تعالى:{ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ }[النحل]

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة؟ يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرفهم بذلك عظم جهلهم وسوء نظرهم لأنفسهم وقلة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عددها عليهم التي لا يحصيها أحد غيره.أ.هـ(٣)

(١) تفسير ابن جرير ١ / ١٢٤ – ١٢٥

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٧٦

(٣) تفسير ابن جرير ١٤ / ٦٤

كما قرر الله عز وجل في آيات كثيرة من كتابه المجيد أن المشركين معترفون بأنه – سبحانه– الخالق الرازق ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل.ومن الآيات التي قررت ذلك:

١ – قوله تعالي:{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ } [العنكبوت].

يقول الحافظ ابن كثير– رحمه الله –: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره من خلقهم ليقولن الله أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ولهذا قال تعالى فأنى يؤفكون.(١)

٢ – وقوله تعالي:{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ } [سورة لقمان] .

٣ – وقوله تعالي:{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ }[سورة الزمر]

٤ – وقوله تعالي: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ } [الزخرف]

تسلية الله لرسوله –صلي الله عليه وسلم–:

وقوله تعالى وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله بين خطابي الناس مسارعة إلي تسليته بعموم البلية أولًا والإشارة إلي الوعد والوعيد ثانيًا أي وان استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من

(١) – ابن كثير ٤ / ١٣٦

الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل في المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه إلى المصابرة أي رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الأحوال التي من جملتها صبرك وتكذيبهم وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والأول ادخل في التهويل.[1]

أين جواب الشرط في الآية الكريمة؟

ذكر الألوسي-رحمه الله- أن جملة (قد كذبت رسل من قبلك) قائمة مقام جواب الشرط والجواب في الحقيقة تأس , وأقيمت تلك الجملة مقامه اكتفاءً بذكر السبب عن ذكر المسبب ,وجوز أن تجعل هي الجواب من غير تقدير,ويكون المترتب علي الشرط الإعلام والإخبار كما في قوله تعالي(وما بكم من نعمة فمن الله){النحل ٥٣}.[2]

ما يؤخذ من الآيات:

١- وجوب ذكر نعمة الله -عز وجل- وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقيادا، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره.

٢- نبهت الآية على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }

٣- أن الخلق والرزق دليل على ألوهية الله -عز وجل- وعبوديته، ولهذا قال: { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

٤ – في قوله تعالي:{ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ } الآية تعزية للرسول-صلي الله عليه وسلم- بأن له أسوة بمن قبله من المرسلين،فأهلك المكذبون، ونجى اللّه الرسل وأتباعهم.

روي ابن جرير عن قتادة {وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك} يعزي نبيه كما تسمعون.[3]

---

(١) أبو السعود ٧ / ١٤٣

(٢) الألوسي ٢٤٧/١٢

(٣) تفسير ابن جرير ٢٢ / ٧٨

التحذير من الدنيا والشيطان

قال تعالي:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾

مناسبة النص الشريف لما قبله:

بعد أن بين الله-تعالي- الأصل الأول وهو التوحيد ثم تحدث عن الأصل الثاني وهو الرسالة تحدث هنا عن الأصل الثالث وهو البعث والحساب .

المفردات:

إن وعد الله حق: الوَعْدُ يُستعمل في الخير والشر يُقال وَعَد يَعِدُ بالكسر وَعْدًا قال الفـــرَّاء يُقال وَعَدْتُهُ خيرا ووعدته شرا فإذا أَسْقطوا الخير والشر قالوا في الخير الوَعْدُ و العِـــدَةُ وفي الشر الإيعَادُ و الوَعِيدُ فإن أَدخلوا الباء في الشر جاءوا بالألف فقالوا أَوْعَدَهُ بالسجن ونحوه و العِدَةُ الوعد وقول الشاعر:

*** وأَخلفوك عِدَ الأمر الذي وَعَدوا ***

أَراد عِدَة الأمر فحذف الهاء عند الإضافة و الميعَادُ المُوَاعَدَةُ والوقت والموضع وكذا المَوْعِدُ و تَوَاعَدَ القوم وعد بعضهم بعضا هذا في الخير وأما في الشر فيُقال اتَّعَدُوا والاتِّعَادُ أيضا قَبول الوعد و التَّوَعُّدُ التهدد.(١)

(١) مختار الصحاح ١٠ / ٧٤٠

والحَقُّ: نقيض الباطِل، وجمعه حُقوقٌ وحِقاقٌ. وقال الراغب: أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه (هي عقب الباب) لدورانه على استقامة.

والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى: هو الحق.

والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله الحق.

والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق.

والرابع: للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حق وقولك حق.

وفي شَرْح العَقائد: الحَق عُرْفاً: الحُكْمُ المُطابقُ للواقِع،يُطلَقُ على الأقوالِ والعَقائدِ والأدْيان والمَذاهب باعتبار اشْتمالها عَلَى ذلك، ويُقابلُه الباطِلُ، وأَمَّا الصِّدْقُ، فشاعَ في الأَقْوالِ فَقَط، ويُقابلُه الكَذبُ، وفُرِّقَ بينَهُما بأنَّ المُطابَقَةَ تُعْتَبَرُ في الحَقِّ من جانبِ الواقِع، وفي الصِّدق من جانبِ الحُكْم، فمَتَى صَدَق الحُكمُ صَدَقَ مطابَقَتُه للواقِع.(١)

فلا تغرنكم الحياة الدنيا:أي: فلا تخدعكم بزخرفها وزينتها ونعيمها وتشغلكم عن أمر الآخرة.فالغرور هو الإطماع بالباطل والخداع.

قال الزبيدي: غَرَّه الشَّيْطَانُ خَدَعَهُ وأَطْمَعَهُ بالبَاطِلِ . والغَرُورُ، كصَبُورٍ: الدُّنْيَا صِفَةٌ غالبَة، وبه فُسِّر قولُه تعالى: (وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ) قيل لأَنَّهَا تَغُرّ وتَمُرّ.. والغَرُورُ، أَيضاً: مَا غَرَّكَ من إِنْسَان وشَيْطَانٍ وغَيْرِهِمَا؛ قاله الأَصْمَعِيّ. وقال المُصَنّف في البَصَائر: مِنْ مالٍ وجَاهٍ وشَهْوَةٍ وشَيْطَان، أَو يُخَصّ بالشَّيْطَان ، أَي لأَنَّهُ يَغُرّ النّاسَ بالوَعْد الكاذب والتَمْنِيَة، وبه فُسِّرَ قولُه تعالَى: ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ، وقِيلَ: سُمِّيَ به لأَنّه يَحْمِلُ الإِنْسَانَ على مَحابِّه ووَرَاءَ ذلك ما يَسُوءُه، كَفَانَا اللهُ فِتْنَتَه. وقِيل: إِنّ الشَّيْطَانَ أَقْوَى الغارِّين وأَخْبَثُهُم. وقال الزَّجّاج: ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الغُرُور بالضَّمّ، وقال في تَفْسيره: الغُرُور: الأَباطِيلُ، كأَنَّهَا جمع غَرّ مصدر غَرَرْتُهُ غَرّاً. وقال أَبو زَيْد: الغُرُورُ: الباطِلُ، وما اغْتَرَرْتَ به من شَيْءٍ فهو غُرُورٌ. وقال الزَّجّاج: ويَجُوزُ أَنْ يكونَ جَمْع غارٍّ، مثل شاهِدٍ وشُهُودٍ، وقاعِدٍ وقُعُودٍ.(٢)

---

(١) ينظر اللسان ١٠ / ٤٩

(٢) ينظر: تاج العروس ١٣ / ٢١٥ مادة " غرر"

وقال ابن جرير–رحمه الله–: والغرور مصدر من قول القائل: غرني فلان، فهو يغرني غرورا بضم الغين؛ وأما إذا فتحت الغين من الغرور فهو صفة للشيطان الغرور الذي يغر ابن آدم حتى يدخله من معصية الله فيما يستوجب به عقوبته. (١)

الحياة الدنيا: الحياة ضد الموت, والحياة الدنيا أي: الحياة القريبة.قال في اللسان: دَنا من الشيء دُنُوّاً ودَناوَةً: قَرُبَ. وبينهما دناوة أَي قَرابة. والدَّناوةُ: القَرابة والقُربى.ويقال: ما تَزْدادُ منِّا إلا قُرْباً ودَناوةً؛ فرق بين مصدرِ دنا ومصدر دَنُوَ، فجعل مصدر دَنا دَناوةً ومصدر دَنُوَ دَناءَةً. وسُمِّيت الدُّنْيا لدُنُوِّها، ولأَنها دَنتْ وتأَخَّرَت الآخرة، وكذلك السماءُ الدُّنْيا هي القُرْبَى إلينا، والنسبة إلى الدُّنيا دُنياوِيٌّ، ويقال دُنْيَوِيٌّ ودُنْيِيٌّ.(٢)

الشيطان: والشيطان: معروف، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان. وتَشَيْطَنَ الرجل وشَيْطَن إذا صار كالشَّيْطان وفَعَل فِعْله.

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح وعليه يدل كلام العرب, قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال

فقال أيما شاطن ولم يقل أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني:

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين

يقول بعدت بها طريق بعيدة. وقال سيبويه العرب تقول : تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تشيط. فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانا قال الله تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } الأنعام١١٢ . وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقلت أو للإنس شياطين قال نعم.(١)

(١) تفسير ابن جرير ٤ / ١٣٣

(٢) اللسان ١٤ / ٢٧١ مادة " دنا "

(٣) ابن كثير ١ / ١٥ ، واللسان ١٣ / ٢٣٧ مادة "شطن" والحديث في المسند ٥ / ١٧٨ وقال المحقق إسناده ضعيف .

حزبه: الحزب:أصْحابُ الرَّجُلِ مَعَه على رَأْيه وأمْره، والجَميعُ: الأحْزَابُ. وتَحَزَّبَ القَــوْمُ: اجْتمعوا فصاروا أحْزاباً. وحَزَّبَهُم فلانٌ. وحازَبْتُه: كُنْتَ من حِزْبِه. وفلانٌ يُحَازِبُ لفلانٍ: أي يَعْصَبُ به ويَنْصُرُه. (١)

السعير: السعر: التهاب النار، وقد سعرها، وسعرها، وأسعرها، والمسعر: الخشب الذي يشعر به, والسعار: حر النار، وسعر الرجل: أصابه حر.

قال الزبيدي:والسَّعِيرُ: النّار، قال الأَخفش: هو مثْل دَهِينٍ وصَرِيع، لأَنَّك تقول: سُعِرَت فهي مَسْعُورَةٌ، وقال اللِّحْيَانِيّ: نارٌ سَعِيرٌ: مسعُورةٌ بغير هاءٍ كالسّاعُورَة. قيل: السَّعِيرُ والسَّاعُورةُ: لَهَبُها. (٢)

المعنى العام

يقول الله تعالى: يا أيها الناس إن المعاد كائن لا محالة فلا تغرنكم العيــشة الدنيئــة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ولا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماتــه فإنــه غرار كذاب أفاك ، ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال" إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا "أي: هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغــركم به "إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير" أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتابه والاهتداء بطريق رسوله إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير

ثم بين الله–عز وجل– مصير أتباع الشيطان وثواب من اتخذ هذا الملعون عدواً فقال تعالى ذكره: {الذين كفروا} بالله ورسوله {لهم عذاب} من الله {شديد} ، وذلك عــذاب النار. {والذين آمنوا} يقول: والذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله، وانتهوا عما نهاهم عنه {لهم مغفرة} من الله لذنوبهم {وأجر كبير} وذلك الجنة.(٣)

(١) المحيط في اللغة ٣ / ١٦

(٢) ينظر مفردات القرآن ٢٣٨ , وتاج العروس ١٢ / ٢٩ مادة:سعر

(٣) ينظر : ابن جرير ٢٢ / ٧٨ ، و ابن كثير ٣ / ٥٤٩

الشرح والبيان:

بين الله -عز وجل -في هذا النص الشريف أن يوم القيامة حق وأنه كائن لا محالة وقد أكد الله تعلي ذلك في مواضع عدة من كتابه المجيد منها:

١- قوله تعالي: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ }الأنعام١٣٤

٢-وقولـــه تعـــالي: { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ } [يونس]

٣- وقولـــه تعـــالي:{ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ } يونس

٤- وقوله تعـــالي: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ } إبراهيم

٥- وقوله تعالي: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ }(لقمان)

٦- وقوله تعالي:{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ }(المرسلات)

موقف المشركين من يوم القيامة كما سجله القرآن الكريم:

سجل القرآن الكريم أن موقف المشركين من يوم القيامة كان موقف العنيد المكابر الذي لا يستجيب للحق ولا ينصاع لبرهان ولا يتبع دليلاً بل يقابل الدعوة إلي الإيمان باليوم الآخر والأدلة عليه يقابلها بالإنكار تارة وبالاستهزاء وعدم المبالاة تارة أخري ومن الآيـــات التي سجلت مواقف المشركين من هذا اليوم قوله تعـــالي:{وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ } يس .

وقوله تعالي:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ }(النحل) .

وقوله تعالي:{أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾}(المؤمنون) .

موقف المؤمنين من يوم القيامة كما سجله القرآن الكريم :

أما موقف المؤمنين من هذا اليوم فكان موقف المصدق المؤمن به الذي يسأل ربه خير هذا اليوم وخير ما فيه ويستعيذ من شره وشر ما فيه . قال تعالي مبينًا موقف المؤمنين من هذا اليوم العظيم:{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾}(البقرة).

بين الله –عز وجل– في هذه الآية الكريمة آن من صفات المتقين أنهم يؤمنون بما أنزل علي الرسول الكريم ويؤمنون بما أنزل من الكتب السابقة وانهم يؤمنون باليوم الآخر.

وقال تعالي حاكياً عن الراسخين في العلم أنهم يقولون:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾} آل عمران

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–:وقوله ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه أي يقولون في دعائهم إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزي كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.(١) .

وقال ابن جرير–رحمه الله–: وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يثبتهم على ما هم عليه من حسن بصيرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يقبضهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإذا فعل ذلك بهم وجبت لهم الجنة، لأنه قد وعد من فعل ذلك به من عباده أنه يدخله الجنة، فالآية وإن كانت قد خرجت مخرج الخبر، فإن تأويلها من القوم مسألة ودعاء ورغبة إلى ربهم. (٢)

التحذير من الاغترار بالدنيا :

جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية محذرة من الاغترار بالدنيا والركون إليها وبيان أنها زائلة ومضمحلة ومن الآيات التي صرحت بذلك:

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٨

(٢) تفسير ابن جرير ٣ / ١٨٩

١- قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} آل عمران ١٨٥

قال ابن جرير-رحمه الله-:{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} يقول: وما لذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينتها وزخارفها، إلا متاع الغرور، يقول: إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار، فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، يقول تعالى ذكره: لا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.(١)

٢-وقوله تعالى :{ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ } الأنعام

قال ابن عاشور-رحمه الله-: وهذا الحكم عام على جنس الحياة الدنيا، فالتعريف في الحياة تعريف الجنس، أي الحياة التي يحياها كل أحد المعروفة بالدنيا، أي الأولى والقريبة من الناس، وأطلقت الحياة الدنيا على أحوالها، أو على مدتها.

واللعب: عمل أو قول في خفة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب، وأكثره أعمال الصبيان. قالوا ولذلك فهو مشتق من اللعاب، وهو ريق الصبي السائل. وضد اللعب الجد.

واللهو ما يشتغل به الإنسان مما ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله، فلا يطلق إلا على ما فيه استمتاع ولذة وملائمة للشهوة.

وبين اللهو واللعب العموم والخصوص الوجهي. فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويقارنه شيء من الخفة والطيش كالطرب واللهو بالنساء. وينفرد اللعب في لعب الصبيان. وينفرد اللهو في نحو الميسر والصيد.

وقد أفادت صيغة (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) قصر الحياة على اللعب واللهو، وهو قصر موصوف على صفة. والمراد بالحياة الأعمال التي يحب الإنسان الحياة لأجلها، لأن الحياة مدة وزمن لا يقبل الوصف بغير أوصاف الأزمان من طول أو قصر،

(١) المرجع السابق ٤ / ١٣٣

وتحديد أو ضده، فتعين أن المراد بالحياة الأعمال المظروفة فيها, وهذا القصر ادعائي يقصد به المبالغة، لأن الأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة، منها اللهو واللعب، ومنها غيرهما .[1]

٣- وقال تعالي:{إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ }(يونس)

قال الحافظ ابن كثير-رحمه الله-: ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك حتى إذا أخذت الأرض زخرفها أي زينتها الفانية وازينت أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان وظن أهلها الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون عليها أي على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك إذ جاءها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا أي يابسا بعد الخضرة والنضارة كأن لم تغن بالأمس أي كأنها ما كانت حينا قبل ذلك وقال قتادة: كأن لم تغن كأن لم تنعم وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.[2]

والآيات في هذا كثيرة وما ذكر فيه الكفاية لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد .

التحذير من الشيطان:

حذر الله -تعالي- من اتباع الشيطان والسير في طريقه واتباع أوامره في الكثير من آيات القرآن الكريم وإليك بعض هذه الآيات معلقاً علي ما يحتاج منها إلي بيان:

١- قال تعالي:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)}"البقرة"

(١) التحرير والتنوير ٧ / ١٩٣

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤١٣

يبين الله في هذا النص الشريف أنه أمر نبيه آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها من عيش واسع وأنه نهاه عن بعض أشجارها ولن الشيطان أوقعه في الزلة وكان سبباً في إخراجه من الجنة ثم أخبر الله تعالي عن وقوع العداوة بين الشيطان والبشر.

قال الرازي-رحمه الله-:أنه سبحانه وتعالي بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم وإبليس وهذا تنبيه علي وجوب الحذر منه.(١)

٢- وقال تعالي: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) البقرة .

قال القرطبي: أخبر تعالى بأن الشيطان عدو وخبره حق وصدق قالوا: وجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداواته من زمن آدم وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جل من قائل " ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون" (٢)

٣- وقال تعالي:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) } البقرة إلي غير ذلك من الآيات .

والمتتبع للآيات القرآنية التي ساقها الله تعالي للتحذير من الشيطان يتبين منها الآتي:

١- أن عداوة الشيطان لبني آدم متأصلة وقديمة فهي بدأت وآدم-عليه السلام-في الجنة ثم اهبطا وكل منهما يعادي الآخر.

٢- أن الشيطان يأمر أتباعه بالسوء والأعمال القبيحة والافتراء علي الله تعالي وبكل ما أنكره الشرع وقبحه.

٣- أن الشيطان عدو للإنسان بين العداوة ومن ثم علي الإنسان أن لا يطيعه وأن يأخذ حذره منه.

٤- أن من أعمال هذا الخبيث صد الناس عن الطاعة مستخدماً في ذلك ضروباً من الحيل فمثلاً ينهي الناس عن الإنفاق لأن ذلك سيؤدي إلي الفقر والإملاق ,مما يجعل ضعاف النفوس يبخلون بما آتاهم الله من فضله.

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/٢

(٢) تفسير القرطبي ٥ / ٥٨٨

٥- أنه توعد بني آدم بصدهم عن عبادة الله وطاعته وإتيانهم من جميع وجوه الحق والباطل لكي يكون أكثرهم غير شاكرين لنعمة الله وغير موحدين له .

٦- أن من حيل اللعين لصد الناس عن الدين ولاجترائهم علي المعاصي أنه يمنيهم الأماني الباطلة ويحسن في عيونهم الدنيا ويحببهم في المعاصي ويرغبهم فيها.

بيان جزاء حزب الشيطان وحزب الرحمن:

وقوله تعالي :{ الذين كفروا لهم عذاب شديد...}الخ الآية : بيان لمصير حزب الشيطان ومصير أعدائه .

قال البيضاوي-رحمه الله - :{الذين كفروا لهم عذاب شديد...}الخ : وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه. (١)

وفي تفسير الجلالين: هذا بيان ما لموافقي الشيطان وما لمخالفيه. (٢)

ويقول السمين عن إعراب هذه الآية : قوله : {الذين كفروا...}الخ يجوز رفعه و نصبه وجره فرفعه من وجهين أن يكون مبتدأ والجملة بعدة خبره والأحسن أن يكون لهم هو الخبر وعذاب فاعله والثاني أنه بدل من واو ليكونوا ونصبه من أوجه البدل من حزبه أو النعت له أو إضمار فعل كأذم ونحوه وجره من وجهين النعت أو البدلية من أصحاب وأحسن الوجوه الأول لمطابقة التقسيم واللام في ليكونوا إما للعلة علي المجاز من إقامة المسبب مقام السبب وإما لصيرورة. (٣)

ما يؤخذ من الآيات:

١- أثبتت الآية الكريمة أن البعث والحشر حق وأنه كائن لا محالة لا كما يزعم الكفار بأنه بعد الموت لا حشر ولا بعث ولا جنة ولا نارا.

٢- التحذير من الدنيا والركون إليها فهي دار كثيراً ما ينخدع الناس بزينتها وبهجتها,مع أنها دار غرور فهي كما قال سيدنا علي -رضي الله عنه- : أولها عَناء، وآخرُها فَناء، حَلالُها حساب، وحَرامها عِقاب, مَن اْستغنى فيها فُتِن، ومن افتقر فيها حَزِن.

وقيل لحكيم : صف لنا الدنيا. قال: أمَل بين يديك، وأجَل مُطِل عليك، وشَيْطان فتّان، وأمانيُّ جرّارة العنَا؛ تدعوك فَتستجيب، وترجُوها فتَخيب.

وقال ابن مَسعود: ليس من الناس أَحدٌ إلا وهو ضَيْف على الدنيا ومالُه عارية، فالضَّيْف مُرْتحِل، والعارية مردودة.

(١) البيضاوي. ٤ / ٤١١

(٢) تفسير الجلالين. ١ / ٥٧٢

(٣) الدر المصون ٥ / ٤٥٩

وقال أبو العتاهية:

رَضيت بذي الدنيا كَكُل مُكاثر ... مُلحّ على الدنيا وكلِّ مُفاخِر
أَلم تَرَهَا تَسْقيه حتى إذا صَبا ... فَرَت حَلْقَه منها بِشَفْرة جازر
"ولا تَعْدلُ الدنيا جَناح بَعُوضة ... لدى الله أو مقدارَ نَغْبَة طائر"
فلم يَرْضَ بالدنيا ثواباً لمُؤْمن ... ولم يَرْضَ بالدنيا عِقاباً لكافر

وقال أيضاً:

هي الدنيا إذا كَمُلتْ ... وتَمَّ سُرُورُها خَذَلتْ
وتَفعل في الذين بَقوا ... كما فيمن مَضى فَعلتَ

٣- التحذير من الشيطان وبيان أنه عدو للإنسان وأنه يزين له الباطل ، ويهيجه علي الشر ، ويمد له في الأماني ويأمره بالفحشاء والمنكر .

روي ابن جرير عن سبرة بن الفاكه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد لا بطريق الجهاد، وهو جهد النفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد".[1]

٤- علي المؤمن أن يعادي الشيطان ويخالفه وأن يعمل م الأعمال الصالحة ما يسوء هذا العدو ويحزنه وأن يعلم بأنه لا هدنة ولا إرضاء لهذا العدو.

قال الرازي-رحمه الله- : ثم قال تعالي : (إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) إشارة إلي معني لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان:

أحدهما: أن يعاديه مجازاة له علي معاداته.

والثاني:أن يذهب عداوته بإرضائه ,فلما قال تعالي{ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ } أمرهم بالعداوة وأشار إلي أن الطريق ليس إلا هذا .

وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير.[2]

٥- بيان مصير حزب الشيطان وحزب الرحمن يوم القيامة وذلك أن أتباع الشيطان لهم عذاب شديد والمؤمنون لهم مغفرة لذنوبهم ولهم الجنة.

---

(١) تفسير ابن جرير ٨ / ١٣٣

(٢) تفسير الرازي ٢٤ / ٢٦

من الدلائل على إثبات البعث

قال تعـــالي:{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ }

مناسبة النص الشريف لما قبله:

وقفت الآيات السابقة من المشركين موقف الناصح الداعي إلي الحق ,الكاشف عن آيات الله وآلائه, المحذر من بأس الله وعذابه , المواسي لرسول الله –صلي الله عليه وسلم– ,من تكذيب المشركين له فتلك هي سبيل الضالين مع رسل الله في كل أمة.

وهنا في هذه الآية ,يتلقى النبي من ربه عزاء جميلاً ,عن مصابه في قومه ,ودعـــوة كريمة إلي الرفق بنفسه ,والترويح عنها ,والإمساك بها بعيداً عن موطن الحزن والحسرة ,علي من لا يستحقون الأسى عليهم ,والحزن لهلاكهم ...إن نفسه أعز علي الله وأكرم مـــن أن تشقى هذا الشقاء المعني ,في سبيل نفوس رخيصة ضائعة لا يقام لها وزن .[1]

سبب النزول:

قال السيوطي :أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنـــهما – قال أنزلت هذه الآية { أفمن زين له سوء عمله } الآية . حيث قال النبي – صـــلى الله

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب المجلد السادس ٨٥٦

عليه وسلم-: اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما أنزلت.(١)

وذكر القرطبي عن الكلبي أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب.ثم قال: وقال غيره نزلت في أبي جهل بن هشام.(٢)

المفردات:

أفمن : الهمزة حرف استفهام لفظا وحرف تقرير معنى .والفاء زائدة .و"من" اسم موصول مبنى علي السكون في محل رفع مبتدأ خبره محذوف بمعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له .

وقال الزمخشري : وذكر الزجاج أن المعنى :أ فمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة ؟ فحذف الجواب لدلالة – فلا تذهب نفسك-عليه .أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة :(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ).(٣)

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ: قال الراغب:الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدا .وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد.(٤)

وقال ابن دريد : الضَّلال ضدُّ الهدى. وضَلَّ في الأمر ضَلالاً، إذا لم يهتدِ له. وضَلَّ في الأرض ضَلالاً، إذا لم يهتدِ للسبيل. ويقال: فلان ضُل بنُ ضُلٍّ، إذا كان منهمكاً في الضلال.

وضَل الشيء إذا خفي وغاب. وكذلك فُسِّر قوله جلّ وعزّ: { أئذا ضَلَلْنا في الأرض }[السجدة : ١٠] أي : خَفِينا وغِبنا، وضَلَلْتُ الشيءَ: أنْسيتُه. وكذلك فُسِّر: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ }الشعراء٢٠. أي من الناسين .(٥)

---

(١) ينظر: الدر المنثور ٧ / ٧ , ولباب النقول ١ / ١٨١ وابن جرير

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٠٧

(٣) ينظر : الإعراب المفصل ٣٨٠/٩ والكشاف ٣ / ٣٠١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ٢٦٤ .

(٤) مفردات القرءان ٣٠٦ – ٣٠٧

(٥) ينظر جمهرة اللغة ١ / ١٠٥ مادة : " ضلل " ط مكتبة الثقافة الدينية .

تَذْهَبْ نَفْسُكَ : الذهاب: المضيّ، يقال: ذهب بالشيء وأذهبه، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال الله تعالى: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصافات/٩٩]، ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ [هود/٧٤]، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [فاطر/٨]، كناية عن الموت.(١)

حَسَرَات:

الحسر: الكشف والكشط يقال: حَسَرَ الشَّيْءُ حُسُوراً، بالضَّمِّ، أي انْكَشَفَ. والانْحِسَارُ: الانْكِشَاف. وكُلُّ شَيْءٍ كُشِفَ فقد حُسِر. ومن المَجَاز: حَسَرَ البَصَرُ يَحْسِر، من حَدِّ ضَرَب، حُسُوراً، بالضّمّ: كَلَّ وانْقَطَعَ نَظَرُهُ مِنْ طُولِ مَدىً وما أشْبَه ذلك، وهو حَسِيرٌ ومَحْسُورٌ . وحسِرَ الرَّجلُ، كفَرِحَ، عَليه يَحْسَرُ حَسْرَةً، بفَتْح فَسُكُون وحَسَراً، محرّكةً: نَدِمَ على أَمرٍ فَانَه أَشَدَّ النَّدم، وتَحَسَّرَ الرَّجلُ إذا تَلَهَّفَ، فهوَ

حَسِرٌ وحَسِيرٌ وحسْرانُ. وقال الزَّجَّاجُ في تَفْسِيرِ قوله عَزَّ وجَلَّ: { يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ} [يس : ٣٠] الحَسْرَةُ: أَشَدُّ النَّدَمِ حَتَّى يَبْقَى النَّادِمُ كالحَسِيرِ من الدّوَابِّ الَّذِي لا منْفَعَةَ فيه.(٢)

الرِّيَاحَ :الرياح جمع ريح والرِّيحُ: نَسيم الهواء، وكذلك نَسيم كل شيء، وهي مؤنثة؛ وفي التنزيل: { كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أَصابت حَرْثَ قوم }[آل عمران: ١١٧] ؛ والرِّيحةُ: طائفة من الرِّيح وجمع الرِّيح :أَرواح، وأَراوِيحُ جمع الجمع .التهذيب: الرِّيح ياؤُها واو صُيِّرت ياء لانكسار ما قبلها، وتصغيرها رُوَيْحة، وجمعها رِياحٌ وأَرْواحٌ.

قال الجوهري: الرِّيحُ واحدة الرِّياح، وقد تجمع على أَرْواح لأَن أَصلها الواو وإِنما جاءَت بالياء لانكسار ما قبلها، وإِذا رجعوا إِلى الفتح عادت إِلى الواو كقولك : أَرْوَحَ الماءُ وتَرَوَّحْتُ بالمِرْوَحة؛ ويقال: رِيحٌ وريَحَة كما قالوا: دارٌ ودارَةٌ. وفي الحديث: كان يقول إذا هاجت الرِّيح : (اللهم اجعلها رِياحاً ولا تجعلها ريحاً)(٣) ؛ العرب تقول: لا تَلْقَحُ السحابُ إِلاَّ من رياح مختلفة؛ يريد: اجْعَلْها لَقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً، ويحقق ذلك مجيءُ الجمع

(١) مفردات القرآن ١٨٤

(٢) ينظر : تاج العروس ١١ / ١١ – ١٣

(٣) مسند الشافعي ١ / ٨١ والمعجم الكبير ١١ / ٢١٣ ، مسند أبي يعلي ٤ / ٣٤١ وقال محققه : إسناده ضعيف .

في آيات الرَّحمة، والواحد في قِصَصِ العذاب: كالرِّيح العَقِيم؛ وريحاً صَرْصَراً. وفي الحديث: الرِّيحُ من رَوْحِ الله أي من رحمته بعباده.(١)

فَتُثِيرُ سَحَابًا : ثار الغبار والسحاب ونحوهما، يثور ثورا وثورانا: انتشر ساطعًا.والسحاب: الغيم فيها ماء أو لم يكن وقد يذكر لفظه ويراد به الظل والظلمة، على طريق التشبيه، قال تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ [النور/٤٠]. أصله من السحب وهو: الجر كسحب الذيل، والإنسان على الوجه، سمي بذلك – السحاب– إما لجر الريح له، أو لجره الماء، أو لانجراره في مره.(٢)

فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ: سوق الإبل جلبها وطردها.(٣)

ومعنى سقناه لبلد ميت: أي لأجله ومنفعته أو لإحيائه أو لسقيه كما قيل وفي البحر أن اللام للتبليغ كما في قلت لك وفرق بين سقت لك مالا وسقت لأجلك مالا بأن الأول معناه أوصلت لك ذلك وأبلغتكه والثاني لا يلزم منه وصوله إليه .

والبلد– كما قال الليث– : كل موضع في الأرض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منه بلدة والجمع بلاد وتطلق البلدة على المفازة ومنه قول الأعشى:

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل.(٤)

ميت : الموت ضد الحياة ميت وميت – بالتخفيف والتشديد – واحد وكذا ميتة وميتة هذا قول الحذاق من النحويين وقال محمد بن يزيد هذا قول البصريين ولم يستثن أحدا واستدل على ذلك بدلائل قاطعة وأنشد:

لَيْسَ من ماتَ فاسْتراحَ بِمَيْت إنّما المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

إِنَّما المَيْتُ من يَعِيشُ شَقِيّاً كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّجاء

قال فهل ترى بين ميت وميت فرقا ؟ وأنشد:

هينون لينون أيسار بنو يسر سواس مكرمة أبناء أيسار

قال فقد أجمعوا على أن هينون ولينون واحد وكذا ميت وميت وسيد. (٥)

---

(١) ينظر : اللسان مادة ٢ / ٤٥٥ ماد " روح "

(٢) ينظر : مفردات القرآن ٨٠ – ٨١ مادة (ثور) ، ٢٣٠ – ٢٣١ مادة : (سحب)

(٣) المفردات٢٥٥

(٤) الألوسي ٢١٧/٥

(٥) القرطبي ٨ / ٥٤٠٨ – ٥٤٠٩

النُّشُورُ: النَّشْرُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةِ؛ ونَشَر الله الميت يَنْشُره نَشْراً ونُشُوراً وأَنْشره فَنَشَر الميتُ لا غير أَحياه. (١)

الْعِزَّةَ : عَزَّ الرجلُ يَعِزُّ عِزّاً وعِزَّةً، بكسرهما، وعَزَازَةً، بالفَتْح: صار عَزيزاً. قال أبو زَيْد: عَزَّ الرجل يَعِزُّ عِزّاً وعِزَّةً، إذا قَوِيَ بعد ذلّةٍ وصار عَزيزاً. وأعزَّه اللهُ تعالى: جَعَلَه عَزيزاً وعَزَّزَه تَعْزِيزاً كذلك، ويقال: عَزَزْتُ القوم وأَعْزَزْتُهم وعَزَّزْتُهم: قَوَّيْتُهم وشدَّدْتُهم وفي التنزيل: { فعَزَّزْنا بثالث }[يس : ١٤] أي قوَّيْنا وشَدَّدنا وقد قُرِئَت: فَعَزَزْنا بالتخفيف كقولك: شَدَدْنا. والعِزّ في الأصل القُوَّةُ والشِّدَّة والغلَبَة والرِّفْعة والامْتناع. وفي البَصائر: العِزَّة: حالةٌ مانعةٌ للإنسان من أن يُغلَب، وهي يُمدَح بها تارةً، ويُذَمُّ بها تارةً، كعِزَّة الكُفّار: { بل الذين كَفروا في عِزَّةٍ وشِقاق }[ص : ٢] ووَجهُ ذلك أنّ العِزَّة لله ولرسوله، وهي الدائمةُ الباقية، وهي العِزَّة الحقيقية، والعِزَّةُ التي هي للكفّار هي التَّعَزُّز، وفي الحقيقة ذُلّ لأنّه تشَبُّع بما لم يُعطَه، وقد تُستَعار العِزّة للحَمِيَّة والأَنَفَة المذمومة، وذلك في قَوْلهُ تَعالى: { وإذا قيل له اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْه العِزَّةُ بالإثْم} [البقرة : ٢٠٦].(٢)

يَمْكُرُونَ السَّيِّئَات: المَكْرُ: الاحتيالُ والخديعةُ. وقد مَكَرَ به يَمْكُرُ فهو ماكِرٌ ومَكَّارٌ.

وقال الأزهري : قال الليث: المَكْرُ: احتيال في خُفية، قال: وسمعنا أن الكيد في الحرب حلال، والمَكْرُ في كل حال حرام. وقال الله جل وعز: (ومَكَرُوا مَكْراً، ومَكَرْنَا مَكْراً، وهم لا يَشْعُرونَ).[النمل : ٥٠] قال غير واحد من أهل العلم بالتأويل: المَكْرُ من الله: جزاء، سمي بسم مَكْرِ المجازي كما قال: (وجَزَاءُ سيِّئةٍ سَيِّئةٌ)[الشوري : ٤٠]، فالثانية ليست بسيئة في الحقيقة، ولكنها سميت سيئة للجزاء،وكذلك قوله جل وعز: (فمَنِ اعْتَدَى عليكم فاعتَدُوا عليه) [البقرة : ١٩٤]، فالأول: ظلم والثاني : ليس بظلم، ولكنه سمي الذنب ليُعلم أنه عقاب عليه. وجزاء به، ويجري مجرى هذا القول قول الله جل وعز: (يُخَادِعُونَ اللهَ وهو خَادِعُهُمْ)[النساء :١٤٢] و(اللهُ يَستهزِئ بهم)[البقرة : ١٥] من هذا الضرب.(٣)

يَبُورُ:

البَوَارُ: الهَلاَكُ، باروا. وهُمْ بُوْرٌ: أي فُقَرَاءُ. والبائرُ: الكاسِدُ، وبارَت البِيَاعَاتُ. وإنَّه لَفي حُوْرٍ وبُوْرٍ: أي في ضَيْعَةٍ وهَلاَكٍ. وتَرَكْتُه في حُوْرٍ بُوْرٍ وحِيْرٍ بِيْرٍ ويُقال بغَيْرِ تَنْوِيْنٍ: وهي

(١) ينظر : لسان العرب ٥ / ٢٠٦ مادة " نشر "
(٢) ينظر : تاج العروس ١٥ / ٢١٩ مادة " عزز"
(٣) ينظر : تهذيب اللغة ١٠ / ١٣٥ .

الهَلاَكُ. وأرَضُوْنَ بُوْرٌ: خَرَابَاتٌ. والبَوْرُ والبُوْرُ من الأرْضِ: التي لم تُزْرَعْ. وشَيْءٌ بائرٌ وبَـأَرٌ وبَوْرٌ وبُوْرٌ: أي فاسِدٌ. ونَزَلَتْ بَوَارِ على النّاسِ: أي بَلاَءٌ وهَلاَكٌ. (١)

المعنى العام:

يقول الله تعالي: من غلب وهمه علي عقله ،كالكفار والفجار الذين يعملون أعمالا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ,أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء أي: بقدره كان ذلـك. فلا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام.

ثم يستدل الله تعالي علي البعث فيقول:والله الذي أرسل الرياح فتثير السحاب للحياة والغيث فسقناه إلى بلد مجدب الأهل، محل الأرض، داثر لا نبت فيه ولا زرع ، فأخصبنا بغيث ذلك السحاب الأرض التي سقناه إليها بعد جدوبها، وأنبتنا فيها الزرع بعد المحل وهكذا ينشر الله الموتى بعد بلائهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرض بالغيث بعد مماتها.

ثم يقول تعالي من كان يريد الشرف والجاه والمنعة ،فليعتزز بطاعة الله عز وجل وليطلبها منه فإن له سبحانه كل العزة في الدنيا والآخرة ولا تنال منه العزة إلا بطاعته.

وقوله تبارك وتعالى إليه يصعد الكلم الطيب يعني الذكر والتلاوة والدعاء فهو سبحانه يقبل هذه الأشياء والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب والله تعالي يقبل هذا العمل .والذين يعملون السيئات في الدنيا علي وجه المكر والخديعة لهم عذاب شديد ومكرهم يبطل ويفسد ولا ينفذ.

الشرح والبيان:

المراد بمن زين له سوء عمله:

قال الإمام القرطبي–رحمه الله– : وفي (أفمن زين له سوء عمله) أربعة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس قاله أبو قلابة ويكون سوء عمله معاندة الرسول – عليه الصلاة والسلام.

الثاني : أنهم الخوارج رواه عمر بن القاسم فيكون سوء عمله تحريف التأويل.

الثالث : الشيطان قاله الحسن ويكون سوء عمله الإغواء.

(١) ينظر : المحيط في اللغة مادة " بور" ١٠ / ٢٦٩ – ٢٧٠

الرابع : كفار قريش قاله الكلبي ويكون سوء عمله الشرك.

وقال إنما نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب ، وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ، فرآه حسنا أي صوابا قاله الكلبي وقيل جميلا .

قلت – والكلام للقرطبي – : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال لقوله تعالى : { ليس عليك هداهم }[البقرة٢٧٢] وقوله : { ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر }[آل عمران١٧٦]وقوله : { فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا } [الكهف٦] وقوله : { لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين } [الشعراء٣]. (١)

أقول: الآية عامة تشمل من ذكر وكل من اعوجت فطرته وفسد طبعه وأضله الله فرأي المنكر معروفاً والمعروف منكراً وأتي بعظائم الأمور من الكفر والفجور وهو يظن بذلك أنه أحسن صنعاً, بل يطمع في الأجر والثواب من الله, علي هذا العمل, الذي يخالف شرع الله, ويناطح نهجه, .وهذه الفئة المخذولة المنكوسة, موجودة في كل زمان ومكان, تحاد الله, وتخالف شرعة, وتأتي بالفجور, وعظائم الأمور وإذا ما نصحهم ناصح, أو هتف بهم مصلح, رموه بالجهل, وقلة العلم,والتشدد، معتقدين أنهم علي الحق, وأنهم يحسنون صنعاً, ومن وصل إلى هذه الدركة–والعياذ بالله– صعب علاجه,وعزت هدايته إلا إذا تداركه الله برحمته.

إعراب " من " في قوله تعالي: { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه} :

و (من) موصولة في موضع رفع على الابتداء والجملة بعدها صلتها والخبر محذوف والفاء للتفريع والهمزة للإنكار فإن كانت مقدمة من تأخير كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك فالمراد تفريع إنكار على ما قبلها من الحكمين السابقين أي إذا كانت عاقبة كل من الفريقين ما ذكر فليس الذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسنا وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح وإن كانت في محلها الأصلي وكان العطف على مقدر تكون هي داخلة إليه كما ذهب إليه جمع فالمراد ما في حيزها ويكون التقدير أهما أي الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويان فالذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسنا وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح أي: ما هما متساويان ليكون الذي زين له الكفر كمن

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٠٧

استقبحه وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه واقتضاء النظم الجليل إياه وقد صرح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) [محمد : ١٤] وقوله سبحانه :(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) [الرعد :١٩] وقوله عز وجل:(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلناه له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات)[الأنعام : ١٢٢] أ.هـ [١]

معنى هداية الله للعبد وضلاله له:

صرحت الآية الكريمة بأن الله –تعالى– يضل من يشاء ويهدي من يشاء وبهذه الآية وما في معناها من الآيات الأخرى نحو قوله تعالى:{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) } [القصص]

وقوله تعالى: { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)} [السجدة]

وقوله تعالى: { مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)} [الأنعام]

وقوله تعالى:{ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)} [الأنعام]

وقوله تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) } [إبراهيم]

وقوله تعالى:{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) } [النحل]

بهاته الآيات تمسك أهل السنة في أن الله تعالى يهدي من يشاء بأن يخلق الهدي في قلب العبد ويضل من يشاء بأن يخلق الضلال في قلب العبد ولا يسأل عما يفعل ولا يجب عليه شيء.

يقول الإمام النسفي– رحمه الله– :"والله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء "[٢] .

(١) الألوسي ١٢ / ٢٤٩

(٢) ينظر : شرح العقائد النسفية ص٦٥ بتصرف

يقول العلامة سعد الدين التفتازاني–رحمه الله– في شرح هذا القول : بمعنى خلق الضلال والاهتداء لأنه الخالق وحده .وفي التقييد بالمشيئة إشارة إلي أنه ليس المراد بالهداية بيان طريق الحق ,لأنه عام في حق الكل , ولا الإضلال عبارة عن وجدان العبد ضالاً إذ لا معني لتعليق ذلك بمشيئة الله تعالي ...ثم المذكور في كلام المشايخ أن الهداية عندنا خلق الاهتداء ,وعند المعتزلة بيان طريق الصواب.(١)

أما المعتزلة فزعموا :أن الهدي من الله بيان طريق الصواب , والإضلال تسمية العبد ضالا ,وحكمه تعالي علي العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه .وهذا مبني علي أصلهم الفاسد :أن أفعال العباد مخلوقة لهم .

والحق ما ذهب إليه أهل السنة أجزل الله مثوبتهم والدليل على ذلك:

لو كان الهدي بيان الطريق لما نفي الله ذلك عن رسوله – صلي الله عليه وسلم– بقوله :{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص :٥٦] لأنه – صلي الله عليه وسلم– بين الطريق لمن أحب وأبغض , ولو كان الهدي من الله: البيان, والضلال : عدم البيان لما صح التقييد بالمشيئة. (٢)

ويقول الشيخ عبد القاهر البغدادي– رحمه الله : "... والوجه الثاني من جهة أن هداية الله سبحانه وتعالي لعباده خلق الاهتداء في قلوبهم كما ذكره في قوله: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام : ١٢٥] وهذا النوع من الهداية لا يقدر عليه إلا الله تعالي وهذه الهداية خاصة المهتدين وفي تحقيق ذلك نزل قول الله تعالي :{ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [يونس :٢٥] والإضلال من الله تعالي عند أهل السنة علي معنى خلق الضلال في قلوب أهل الضلال كقوله تعالي: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}[الأنعام : ١٢٥] وقالوا من أضله الله فبعدله ومن هداه فبفضله وهذا خلاف قول القدرية في دعواهم أن الهداية من الله تعالى علي معني الإرشاد والدعاء إلي الحق وليس إليه من هداية القلوب شيء وزعموا أن الإضلال منه علي وجهين أحدهما التسمية بأن يسمى الضلال ضلالاً والثاني:علي معني جزاء أهل الضلال علي ضلالتهم

(١) شرح العقائد النسفية ص٦٥ بتصرف

(٢) ينظر العقيدة الطحاوية ١٤٨

ولو صح ما قلوا لوجب أن يقال :إنه أضل الكافرين لأنه سماهم ضالين وإن إبليس أضل الأنبياء والمؤمنين لأنه سماهم ضالين ,ولزمهم أن يكون من أقام الحدود علي الزناة والسارقين والمرتدين مضلاً لهم لأنه قد جازاهم علي ضلالتهم وهذا فاسد فما يؤدي إليه مثله.(١)

ويقول الشيخ عبد الله اليافعي–رحمه الله– : إن كتاب الله العزيز اشتمل علي آي من القرآن دالة علي تفرد الرب بهداية الخلق وإضلالهم والطبع علي قلوب الكفرة منهم هي نصوص من إبطال مذاهب مخالفي أهل الحق فمما يعظم موقعه عليهم قوله تعالي: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[يونس : ٢٥] وقوله تعالي: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[القصص : ٥٦] وقوله تعالي: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)}الأعراف.

واعلم أن الهدي في هذه الآي لا يتجه حمله إلا على خلق الإيمان وكذلك لا يتجه حمل الضلال على غير خلق الضلال ولسنا ننكر ورود الهداية في كتاب الله علي غير هذا المعنى الذي ذكرنا.(٢)

حرص النبي– صلي الله عليه وسلم– علي إيمان قومه:

وقوله تعالي: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) يبين الله تعالي فيه حرص النبي –صلي الله عيه وسلم –علي إسلام قومه ، وأنه – عليه الصلاة والسلام – كان يحزنه ما يلاقيه منهم من كفر وصد عن سبيل الله حتى يكاد هذا الحزن أن يقتله– صلي الله عيه وسلم – وكان القرآن الكريم يسليه ويخبره بأن الله لو شاء هدايتهم لاهتدوا والله تعالي عليم بحاله وحالهم , فعليه ألا يهلك نفسه حزناً عليهم فمرجعهم ومصيرهم إلي الله –عز وجل– وهو عليم بأعمالهم وسيجازيهم عليها. وهناك آيات كثيرة تحدثت عن هذا المعنى منها:

١– {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)}[الأنعام]

يقول الحافظ ابن كثير–رحمه الله–في تفسير هذه الآية : يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون

(١) الفرق بين الفرق ص : ٢٠٥ بتصرف

(٢) مرهم العلل المعضلة في الرد علي أئمة المعتزلة ص١٠٢ بتصرف

أي قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك كقوله(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كما قال تعالى في الآية الأخرى { لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين } [الشعراء : ٣] { فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا}[الكهف :٦] وقوله: { فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [الأنعام: ٣٣] أي : لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي قال: قال أبو جهل للنبي صلى الله تعالى عليم وآله وسلم إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله:{ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}.(١)

٢- وقوله تعالي:{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)}[النحل]

يقول ابن جرير-رحمه الله-في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله. {وما صبرك إلا بالله} يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وتوفيقه إياك لذلك. {ولا تحزن عليهم} يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة. {ولا تك في ضيق مما يمكرون} يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة. {مما يمكرون} مما يحتالون بالخدع في الصد عن سبيل الله من أراد الإيمان بك والتصديق بما أنزل الله إليك.(٢)

٣- {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}[الكهف:٦]

قال ابن الجوزي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : ثم عاتبه على حزنه لفوت ما كان يرجو من إسلامهم فقال(فلعلك باخع نفسك) قال المفسرون واللغويون فلعلك مهلك نفسك وقاتل إن قيل كيف قال فلعلك والغالب عليها الشك والله عالم بالأشياء قبل كونها ؟ فالجواب أنها ليست بشك إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير فالمعنى هل أنت قاتل نفسك لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم فان من حكمنا عليه

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٩

(٢) تفسير ابن جرير١٤ / ١٣٣

بالشقوة لا تجدي عليه الحسرة.

وقوله تعالى : (على آثارهم) أي : من بعد توليهم عنك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث يعني القرآن أسفا قال الزجاج الأسف المبالغة في الحزن أو الغضب يقال قد أسف الرجل فهو أسيف وهذه الآية يشير بها إلى نهي –رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن كثرة الحرص على إيمان قومه لئلا يؤدي ذلك إلى هلاك نفسه بالأسف .أ . هـ [1]

من دلائل قدرة الله علي إثبات البعث:

وقوله تعالي: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) دليل علي البعث بإحياء الأرض بعد موتها والمعني: والدليل الحسي المشاهد علي إمكان البعث وأنه مقدور لله تعالي :انه سبحانه يرسل الرياح ،فتحرك الغيوم إلي حيث يشاء الله , فيقوده إلي بلد ميت لا نبات به , فينزل المطر عليه ,فتحيا الأرض بالنبات بعد يبسها, وتصبح مخضرة ذات زرع وشجر بعد أن كانت تربة هامدة ، فكذلك يكون النشور أي كما يحي الله الأرض بعد موتها , يحي العباد بعد موتهم, وهذا هو النشور,أي جعلهم أحياء.

يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله– : كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا وتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض.[2]

ويقول العلامة أبو السعود –رحمه الله– : (والله الذي أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع في قوله تعالى (فتثير سحابا) لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند إليها أو للدلالة على استمرار الإثارة(فسقناه إلى بلد ميت) وقرئ بالتخفيف(فأحيينا به الأرض)أي بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازما في الذهن كما في الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب(بعد موتها) أي: يبسها وإيراد

(١) زاد المسير ٥ /١٠٥

(٢) ابن كثير ٣ / ٥٤٨

الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقق وإسنادهما إلي نون العظمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) في كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف في حيز الرفع على الخبرية أي مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الأموات في صحة المقدورية وسهولة التأتي من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الإلف في الأول دون الثاني. (١)

العزة الحقيقية لله تعالي وحده:

وقوله تعالي:{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } بيان لطريق الشرف والرفعة والسمو والتعزز وأن هذه الأشياء لله عز وجل ولا تنال إلا بطاعته فمن رام هذه الأشياء فليطلبها بطاعة الله واتباع الرسل وليس بعبادة الأصنام أو التملق إلي الخلق.

قال ابن الجوزي–رحمه الله–: قوله تعالى : (من كان يريد العزة) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان فلله العزة جميعا قاله مجاهد.

والثاني: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله قاله قتادة.

والثالث : من كان يريد العزة لمن هي فإنها لله جميعا قاله الفراء .(٢)

وقال القرطبي –رحمه الله– : ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تستحق فتكون الألف واللام للاستغراق وهو المفهوم من آيات هذه السورة فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقار وذل وسكون وخضوع وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعة ولا محجوبة عنه قال –صلى الله عليه وسلم –(من تواضع لله رفعه الله)(٢) ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال:{ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا }[النساء : ١٣٩] فأنبأك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يعز بها من يشاء ويذل من يشاء ، ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرقاب تواضعا منها إليك فعزها في ذلها

---

(١) تفسير أبو السعود ٧ / ١٤٥

(٢) زاد المسير ٦ / ٤٧٧

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٨ / ١٨٢ حديث رقم ٨٣٠٧ ومسند الشهاب ١ / ٢١٩ وشعب الإيمان للبيهقي ٦ / ٢٩٧

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ويدخل دار العزة ولله العزة فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ومن اعتز بالله أعزه الله . (١)

طريق العزة:

بين الله تعالي طريق العزة وأن طريقها هو التوحيد والإخلاص والعمل الصالح وأن هذا هو المقبول عند الله –عز وجل– فقال تعالي : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه)

والصعود: الإذهاب في مكان عال. والرفع: نقل الشيء من مكان إلى مكان أعلى منه،فالصعود مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر وهو كناية عن القبول لديه.

والرفع: حقيقته نقل الجسم من مقره إلى أعلى منه وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، لأن العظيم تتخيله التصورات رفيع المكان.

والمقصود أن أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أن أعمال المشركين سعي باطل. والقربات كلها ترجع إلى أقوال وأعمال، فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة. والأعمال فيها قربات كثيرة. وكان المشركون يتقربون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد كما قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل، وكانوا يتحنثون بأعمال من طواف وحج وإغاثة ملهوف وكان ذلك كله مشوبا بالإشراك لأنهم ينوون بها التقرب إلى الآلهة فلذلك نصبوا أصناما في الكعبة وجعلوا هبل وهو كبيرهم على سطح الكعبة، وجعلوا إسافا ونائلة فوق الصفا والمروة، لتكون مناسكهم لله مخلوطة بعبادة الآلهة تحقيقا لمعنى الإشراك في جميع أعمالهم.

فلما قدم المجرور من قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) أفيد أن كل ما يقدم من الكلم الطيب إلى غير الله لا طائل تحته.(٢)

معني الكلم الطيب:

وفي المراد بالكلم الطيب أقوال :

١ــ الكلم الطيب : لا إله إلا الله .

قال الألوسي–رحمه الله– : والمراد بالكلم الطيب على ما في الكشاف والبحر عن ابن

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤١٠ – ٥٤١١

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٧٢

عباس – رضي الله عنهما – لا إله إلا الله . ومعنى كونه طيبا على ما قيل أن العقل السليم يستطيبه ويستلذه لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة والوسيلة إلى النعيم المقيم أو يستلذه الشرع أو الملائكة عليهم السلام وقيل إنه حسن يقبله العقل ولا يرده.(١)

٢– وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. (٢)

٣– وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب – رضي الله عنه – في قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) قال : القرآن .

٤– وأخرج ابن أبي حاتم عن مطر – رضي الله عنه – قال : الدعاء.

٥– وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله قبض عليهن ملك يضمهن تحت جناحه ثم يصعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن ثم قرأ (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .(٣)

أقول : والآية عامة تشمل كل ما ذكر ، قال الشوكاني–رحمه الله– : وخص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر لله وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتلاوة وغير ذلك فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد.(٤)

وقوله تعالى : (والعمل الصالح يرفعه) معناه: أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب كما قال الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح وقيل إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب ومفعوله العمل الصالح ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب

---

(١) الألوسي ٢٢ / ٢٥٧

(٢) ينظر : الكشاف ٣ / ٣٢٠

(٣) ينظر الدر المنثور ٧ /٨ وتفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣١٤٧ ، وأثر ابن مسعود أخرجه الحاكم في المستدرك٢ / ٤٧١ وصححه ووافقه الذهبي .

(٤) الشوكاني ٤/٣٤١

لأن العمل يحقق الكلام وقيل والعمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذى أراد العزة وقال قتادة المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه أي يقبله فيكون قوله والعمل الصالح على هذا مبتدأ خبره يرفعه وكذا على قول من قال يرفع صاحبه.(١)

وملخص أقوال المفسرين في قوله تعالي : (والعمل الصالح يرفعه):

١ــ أن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب,وبذلك تكون الهاء في قوله "يرفعه"عائدة إلي الكلم الطيب.

٢ – أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب,وبذلك تكون الهاء في قوله "يرفعه"عائدة إلي العمل الصالح. وهذا يؤيده قوله تعالي:{مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ }النحل

٣– الرافع هو الله تعالي وضمير الهاء يرجع إليه.

جزاء المكر السيئ :

بعد أن ذكر الله تعلي طريق العزة وأنها لا تنال إلا من الله وحده ذكر سبب الذل في الدارين، فقال: { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ }.

وفي الذين يمكرون السيئات أقوال:

١– أنهم أصحاب الرياء. قال مجاهد هم أصحاب الرياء لا يصعد لهم عمل .

٢– وقيل هم المشركون. عن ابن زيد قال : هم المشركون بار عملهم فلم ينفعهم ولم ينتفعوا به وضرهم .

وهذا عليه أكثر المفسرين والمراد بمكرهم ما كان منهم في دار الندوة من تدبير لرسول الله – صلي الله عليه وسلم–وذكره الله بقوله : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ } (الأنفال).

١ــ وقيل هم الذين يعملون السيئات مطلقاً من غير تخصيص بأحد ، وهذا مروي عن قتادة –رحمه الله– .(٢)

ولعل القول الأخير هو الراجح ولعل ما ذكر أولا من باب التمثيل لا التقييد .

(١) الشوكاني ٣٤١/٤

(٢) – ينظر : الدر المنثور ١٠/٧

وقوله تعالي :(لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (بيان لجزائهم في الآخرة قال البيضاوي : (لهم عذاب شديد) لا يؤبه دونه بما يمكرون به.[1]

قال الشهاب : قوله لا يؤبه دونه يقال لا يؤبه ولا يعبأ بمعنى يعتد به يعنى أن ما مكروا به لا يعتد به بالنسبة للعذاب المعد لهم عند الله. [2]

وقوله تعالي: (وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُور) أي يفسد ويهلك .

قال الشهاب :أصل معنى البوار الكساد أو الهلاك فاستعير هنا للفساد وعدم التأثير لأن الكاسد يكسد لفساده ولأن الهالك فاسد لا أثر له. [3]

ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان أي : ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به (هو يبور) أي : هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبادهم الله تعالى بعد إبادة مكرائهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكرائهم الثلاث التي اكتفوا في حقه بواحدة منهن.[4]

ما يؤخذ من الآيات:

١- هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن فلا يسوى بين من زين له الشيطان عمله السيئ فأطاعه وبين من هداه الله للخير فاتبع أوامر الله تعالي والفريق الأول يشمل كل الكفار من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان والأصنام والشيطان ونحو ذلك.

٢ــ الهداية والإضلال من الله فهو تعالي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويكون ذلك بخلق الهدي والضلال في قلب العبد خلافاً للمعتزلة الذين يزعمون أن المراد بالهدي والضلال من الله الحكم علي العبد بهما أو تسميته بذلك.

٣ــ لا أسف ولا اغتمام علي من أصر علي الكفر ولج في الغواية وركب متن العناد,لا أسف عليهم طالما استنفدت معهم كل وسائل الدعوة إلي الله ولم ينتفعوا بها,فالله تعالي عليم بأعمالهم وسيجازيهم عليها.

---

(١) تفسير البيضاوي ٤ / ٤١٣

(٢) حاشية الشهاب ٢١٩/٧

(٣) المرجع السابق ٧/ ٢١٩

(٤) أبو السعود ١٤٦/٧

٤ــ من مظاهر قدرة الله تعالي التي تدل علي البعث إحياء الأرض بعد يبسها وذهاب ما فيها من زروع وثمار ونبات ,واكتساؤها بالخضرة والمروج ,والنبات والثمار المختلفة الألوان.

٥ــ ليس للعزة إلا مصدر واحد وهو الله عز وجل وليس لها إلا طريقاً واحداً وهو طاعة الله والتذلل له وكل طريق للعزة سوي ذلك فلا يفضي إلا إلي ذلٍ وقد طلب أهل الشرك العزة بعبادة الأصنام فما زادهم إلا ذلاً كما قال تعالي:{ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ } مريم.

وقال تعالي عن المنافقين:{بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ } النساء.

٦- التحذير من المكر والخداع والاحتيال ومن يفعل ذلك له عذاب شديد في الآخرة كما أن مكره في الدنيا هالك وغير نافذ.

من دلائل قدرة الله في الأنفس

قال تعالى:{ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ } .

المناسبة:

قال الرازي– رحمه الله –:الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، كما قال تعالى: { سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفى أنفسهم }[فصلت : ٣٥] فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الأنفس.(١)

المفردات:

من تراب: التُّرَابُ والتَّوْرَابُ والتَّوْرَبُ والتَّيْرَبُ والتَّيْرَابُ والتَّرْباءُ بفتح التاء والتُّرْبُ والتَّرْبَةُ بضم التاء فيهما كله بمعنى وجمع التراب أَتْرِبةٌ وتِرْبانٌ بكسر التاء(٢).

نطفة : قال الراغب: النطفة: الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل .(٣)

أزواجاً : الزَّوْجُ: خلاف الفَرْدِ. يقال: زَوْجٌ أَو فَرْدٌ، كما يقال : شَفْعٌ أَو وِتْرٌ وكل واحد منهما أَيضاً يسمى زَوْجاً، ويقال: هما زَوْجان للاثنين وهما زَوْجٌ، كما يقال: هما سِيَّانِ وهما

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٣٢
(٢) مختار الصحاح ١ ٨٣ مادة : " ترب "
(٣) مفردات القرآن ٥١٧

سَواءٌ؛ ابن سيده: الزَّوْجُ الفَرْدُ الذي له قَرِينٌ. والزوج: الاثنان. وعنده زَوْجَا نعالٍ وزوجا حمام؛ يعني ذكرين أَو أُنثيين، وقيل: يعني ذكراً وأُنثى. ولا يقال: زوج حمام لأَن الزوج هنا هو الفرد، وقد أُولعت به العامة. قال أَبو بكر: العامة تخطئ فتظن أَن الزوج اثنان، وليس ذلك من مذاهب العرب، إِذ كانوا لا يتكلمون بالزَّوْجِ مُوَحَّداً في مثل قولهم زَوْجُ حَمامٍ، ولكنهم يثنونه فيقولون: عندي زوجان من الحمام، يعنون ذكراً وأُنثى، وعندي زوجان من الخفاف يعنون اليمين والشمال، ويوقعون الزوجين على الجنسين المختلفين نحوالأَسود والأَبيض والحلو والحامض. قال ابن سيده: ويدل على أَن الزوجين في كلام العرب اثنان قول الله عز وجل : { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }[النجم : ٤٥] فكل واحد منهما كما ترى زوج ، ذكراً كان أَو أُنثى وزوج المرأَة : بعلها . وزوج الرجل : امرأَته ؛ ابن سيده : والرجل زوج المرأَة ، وهي زوجه ، وزوجته . وجمع الزوج أَزواج وزوَجَةٌ .[1]

تحمل: الحَمْلُ ما تحمل الإناث في بطونها والحِمل ما يُحمل على الظهر وأما حمل الشجرة فقيل ما ظهر منه فهو حِمْل وما بطن فهو حَمْل وقيل كله حَمْلٌ لأنه لازم غير بائن قال بن السكيت الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة والحمل بالكسر ما كان على ظهر أو على رأس قال الأزهري وهذا هو الصواب وهو قول الأصمعي ويقال امرأة حامِلٌ و حامِلةٌ إذا كانت حبلى فمن قال حامل قال هذا نعت لا يكون إلا للإناث ومن قال حاملة بناه على حملت فهي حاملة وأنشد:

تمخضت المنون له بيوم أنّى ولكل حاملة تمام

فإذا حملت المرأة شيئا على ظهرها أو على رأسها فهي حاملة لا غير لأن الهاء إنما تلحق للفرق فما لا يكون للمذكر لا حاجة فيه إلى علامة التأنيث فإن أُتِيَ بها فإنما هو على الأصل هذا قول أهل الكوفة وقال أهل البصرة هذا غير مستمر لأن العرب تقول رجل أيم وامرأة أيم ورجل عانس وامرأة عانس مع الاشتراك وقالوا امرأة مصبية ، مع الاختصاص قالوا والصواب أن يقال إن قولهم حامل وطالق وحائض ونحوها أوصاف مذكرة وُصف بها الإناث كما أن الربعة والراوية والخُجَأَة – الأَحمق – أوصاف مؤنثة وُصف بها الذكور[1] .

يعمر: العمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عمره، فمعناه: عمارة بدنه بروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك؛ فإن البقاء ضد الفناء ولفضل

(١) ينظر : اللسان ٢ / ٢١٩

البقاء على العمر وصف الله به، وقلما وصف بالعمر. والتعمير: إعطاء العمر بالفعل، أو بالقول على سبيل الدعاء.

يسير:اليسر ضد العسر وهو السهولة واللين والانقياد .

قال الزبيدي : اليَسْر، بالفتح، ويُحرَّك: اللِّينُ والانْقِيادُ، يكون ذلك للإنسان والفرَس، قد يَسَرَ يَيْسِر، من حدِّ ضَرَبَ. وياسَرَهُ: لايَنَه، أنشد ثعلب:

قومٌ إذا شُومِسوا جَدَّ الشِّماسُ بِهِمْ ذاتَ العنادِ وإنْ ياسَرْتَهم يَسَروا

واليَسَرُ، محرّكةً : السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ ، يُوصَفُ به الإنسانُ والفرَس[1].

المعنى العام:

يقول تعالى ذكره: والله خلقكم أيها الناس من تراب وذلك بخلق أباكم آدم منه ، فجعل خلق أبيهم منه لهم خلقا ,ثم خلقكم من نطفة الرجل والمرأة ,ثم جعل منكم أزواجا يعني أنه زوج منهم الأنثى من الذكر.

وما تحمل من أنثى منكم أيها الناس من حمل ولا نطفة إلا وهو عالم بحملها إياه ووضعها، وما هو؟ ذكر أو أنثى؟ لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وما يعمر من معمر فيطول عمره، ولا ينقص من عمر آخر غيره عن عمر هذا الذي عمر عمرا طويلا {إلا في كتاب} عنده مكتوب قبل أن تحمل به أمه ، وقبل أن تضعه، قد أحصى ذلك كله وعلمه قبل أن يخلقه، لا يزاد فيما كتب له ولا ينقص.

وقيل: وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره بفناء ما فني من أيام حياته، فذلك هو نقصان عمره. والهاء على هذا التأويل للمعمر الأول، لأن معنى الكلام: ما يطول عمر أحد، ولا يذهب من عمره شيء، فينقص إلا وهو في كتاب عند الله مكتوب قد أحصاه وعلمه.

إن إحصاء أعمار خلقه عليه يسير سهل، طويل ذلك وقصيره، لا يتعذر عليه شيء منه.[2]

الشرح والبيان:

معنى خلق البشر من تراب :

ذكر الله تعالى أنه خلق البشر من تراب وذلك في آيات عديدة من القرآن الكريم منها:

---

(١) تاج العروس ١٤ / ٤٦٥ . مادة: "يسر"

(٢) ينظر : ابن جرير ٢٢ / ٨١

١- قوله تعالي:{ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) } الكهف

٢- وقوله تعالي:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)} الحج

٣- وقوله تعالي:{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)} الروم

٤- وقوله تعالي:{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) } غافر.

وفي المراد بخلق الإنسان من تراب قولان:

أحدهما: المراد به خلق أباهم آدم –عليه السلام – منه وإنما قال {خلقكم}لأن الفرع يضاف إلي أصله.

قال الإمام القرطبي–رحمه الله–: وهو الأشهر وعليه الأكثر. والخلق نسله والفرع يضاف إلى أصله فلذلك قال خلقكم بالجمع فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده [١] .

وقال العلامة أبو السعود في تفسير قوله تعالي:{ أكفرت بالذي خلقك من تراب} أي في ضمن خلق أصلك فإن خلق آدم – عليه السلام – منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه– عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه[٢] .

ثانيهما: أن كل إنسان خلق من تراب وذلك لخلق النطفة منه ،لأنه أصل المادة إذ ماء الرجل يتولد من أغذية راجعة إلى التراب فالإسناد مجاز من إسناد ما لسبب إلى المسبب[٣] .

---

(١) ينظر : القرطبي : ٦ / ٣٨٧

(٢) أبو السعود ٥ / ٢٢٢

(٣) ينظر:أبو السعود ٦ / ٢٢ , والألوسي ١٥ ٣٩٨ – ٣٩٩ .

والذي أميل إليه القول الأول لشهرته وكثرة قائله.ومما يرد القول الثاني القائـــل : بأن كل إنسان خلق من تراب لأن أصل النطفة منه.يرد بأنه لا ميزة للإنسان بهذا الخلق إذ معظم المخلوقات تشاركه فيه.

نقصان العمر وزيادته:

وقوله تعالي:{ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ } فبعد أن تكلم الله تعالي عن التكوين أتبعه بذكر الحديث عن الموت,فذكر سبحانه وتعالي أنه ما يعطي أحداً من طول العمر ويمتعه بذلك, ولا ينقص من عمر أحد بأن يجعل مدة بقائه قصيرة- إذا قيس بأقرانه- إلا وذلك مكتوب في كتاب عنده.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- : وقوله عز وجل (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) أي : ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه عنده في الكتاب الأول وما ينقص من عمره الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه ، أي ونصف ثوب آخر وروي من طريق العوفي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهـــو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول : كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بـــن أسلم عن أبيه (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، قال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مئة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة ، وقال مجاهد (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) أي : في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ .[1]

---

(١) ابن كثير ٣ / ٥٥٠

وقال الواحدي : (وما يعمر من معمر) أي : ما يطول عمر أحد (ولا ينقص من عمره) ولا يكون أحد ناقص العمر إلا وهو محصى في الكتاب يعني عدد عمر الطويل العمر وعمر القصير العمر.[1]

وقال آخرون : الضمير عائد على المعمر الأول بعينه والمعمر هو الذي جعل الله تعالى له عمرا ، طال أو قصر ، ولا مانع أن يكون المعمر ومن ينقص من عمره شخصا واحدا ، والمراد بنقص عمره ما يمر منه وينقضي ، مثلا يكتب عمره مائة سنة ، ثم يكتب تحته ، مضى يوم مضى ، يومان ، وهكذا حتى يأتي الخ وروى هذا عن ابن عباس وأبي مالك وحسان بن عطية والسدي وقيل بمعناه:

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزأ[2]

وقيل : المراد بذلك زيادة العمر ونقصانه وذلك كزيادته ببعض الطاعات ونقصانه بعض المعاصي .

قال البيضاوي– رحمه الله – :وقيل الزيادة والنقصان في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح المحفوظ مثل أن يكون فيه إن حج عمرو فعمره ستون سنة وإلا فأربعون.[3]

قال الشهاب : قوله– أي البيضاوي – وقيل الزيادة والنقصان الخ ، فيكون المعمر والمنقص من عمره شخصاً واحداً بناء علي ما ورد في الأحاديث من زيادة العمر ببعض الأعمال الصالحة كقوله (الصدقة تزيد في العمر)[4] فيجوز أن يكون أحد معمراً إذا عمل عملاً وينقص من عمره إذا لم يعمله وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير لأنه في تقديره تعالي معلق أيضاً وإن كان في علمه الأزلي وقضائه المبرم لامحو فيه ولا إثبات وهذا ما عرف عن السلف ولذا جاز الدعاء بطول العمر وقال كعب – رحمه الله – لو أن عمر –رضي الله عنه– دعا الله أخر أجله[5] .

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨٩١/٢

(٢) الألوسي ٢٢/ ٢٦٢

(٣) تفسير البيضاوي ٤ / ٤١٤

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٧ / ٢٢ وأشار الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ٢٨٤ إلي ضعفه .

(٥) حاشية الشهاب ٢٢٠/٧

قال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور– رحمه الله – : وقد ورد هنا الإشكال العام الناشئ عن التعارض بين أدلة جريان كل شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها فكيف يثبت في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغـــيير؟ وكيف يرغب بالصدقة مثلا أنها تزيد في العمر، أن صلة الرحم تطيل في العمر.

والمخلص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلـــوم لله تعالى وبين كونه مرادا، فإن العلم يتعلق بالأشياء الموجودة والمعدومة، والإرادة تتعلق بإيجـــاد الأشياء على وفق العلم بأنها توجد، فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلق به الإرادة بالـــشيء , علمنا أن الله علم وقوعه، وما تصرفات الناس ومساعيهم إلا أمارات على ما علمه الله لهم، فصدقة المتصدق أمارة على أن الله علم تعميره،والله تعالى يظهر معلوماته في مظاهر تكريم أو تحقير ليتم النظام الذي أسس الله عليه هذا العالم ويلتئم جميع ما أراده الله من هذا التكـــوين على وجوه لا يخل بعضها ببعض ، وكل ذلك الحكمة العالية. ولا مخلص من هذا الإشـــكال إلا هذا الجواب وجميع ما سواه وإن أقنع ابتدأ الإشكال. (١)

وقوله تعالي : { إلا في كتاب } الكتاب يجوز أن يكون كناية عن علم الله تعـــالي الذي لا يغيب عنه معلوم كما أن الشيء المكتوب لا يزاد فيه ولا ينقص , ويجوز أن يجعل الله موجودات هي كالكتب تسطر فيها الآجال مفصلة . التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٧٨

قال البيضاوي – رحمه الله – (إلا في كتاب) هو علم الله تعالي أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة. (٢)

وقوله تعالي :(إن ذلك على الله يسير) أي سهل عليه يسير لديه علمـــه بـــذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها.(٣)

واستعمال لفظ (يسير) و(هين) بالنسبة لله تعالي خطاب للبشر بما يعرفـــون وإلا فكل الأشياء بالنسبة إلي قدرة القادر سواء ، حقيرها كجليلها .

يقول الرازي–رحمه الله– : واعلم أن جميع الممكنات بالنسبة إلى قـــدرة الله علـــى السوية وحينئذ يمتنع أن يقال : إن بعض الأفعال أيسر عليه من بعض بل هذا الخطاب نـــزل على القول المتعارف فيما بيننا(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٧٣/١٤

(٢) الشهاب ٢٢٠/٧

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٠

(٤) تفسير الرازي ٩ / ١٧٨

ما يؤخذ من الآيات:

١- الدليل علي البعث وذلك بذكر أحوال نفوس البشر وأطوارها ,فقد خلق الله تعالي أصلها من تراب ,ثم جعل النطفة سبباً للخلق ,ثم حدث التزاوج بين الذكر والأنثي ,ليتم البقاء في الدنيا إلي نهاية العالم ,عن طريق التناسل ,ولا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به .ولا يخرج شيء عن حكمه وتدبيره.والقادر علي خلق الإنسان علي هذا النمط المحكم البديع قادر علي الإعادة.

٢- الأعمار مقدرة ومكتوبة عند الله تعالي فما من طول في عمر أحد أو نقصان في عمر آخر إلا والله عالم به ومسطر في كتاب عنده.

٣-كتابة الأعمال والآجال غير متعذر علي الله تعالي ,وإنما هو سهل يسير هين .

من دلائل قدرة الله ووحدانيته

قال تعالى:{ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ }

مناسبة النص الشريف لما قبله:

لما استدل الله تعالي في الآيات السابقة علي طلاقة قدرته وتفرده بالإلهية وذلك بإرسال الرياح وإحياء الأرض الميتة وخلق الإنسان في أطوار مختلفة انتقل من الاستدلال بذلك إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها، على عظم مخلوقات الله تعالى.

المفردات:

البحران :البَحْرُ: خلاف البرِّ. يقال: سمِّي بحراً لعُمقه واتساعه. والجمع أَبْحُرٌ وبِحارٌ وبُحورٌ. وكلُّ نهرٍ عظيمٍ بَحْرٌ.. ويسمَّى الفرسُ الواسعُ الجري بَحْراً. وماءٌ بَحْرٌ، أي مِلْحٌ. وأَبْحَرَ الماءُ: مَلُحَ ويقال: أَبْحَرَ فلانٌ، إذا ركب البحرَ.وتوسَّع .[1]

عذب فرات: العَذْبُ: الماء الطيّب. وقد عَذُبَ عُذوبةً. ويقال للريق والخمر: الأعذبان. واستعذبَ القوم ماءهم، إذا استقَوه عَذْباً. واستعذَبه، أي عدَّه عذْباً. والفَراتُ: الماء العذب. يقال: ماءٌ فُراتٌ ومياهٌ فُراتٌ.[2]

---

(١) الصحاح ٢ / ٥٠٩ مادة " بحر" ط : دار النفائس الرياض الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .
(٢) ينظر : الصحاح مادتي : عذب ١ / ١٥٩ , فرت ١ / ٢١٣ .

وقال الزبيدي: "الفُرَاتُ، كَغُرَاب" يُكْتَبُ بالتَّاء والهَاء، لُغَتَان فَصيحَتَان مَشْهُورَتَان، كالتَّابُوت والتَّابُوه، نقله شيخُنَا عن التَّوْشِيح، ولا يُجْمَع إلاّ نَادراً ":الماءُ العَذْبُ جدّاً"، وعبارةُ الكَشّاف: الشّديدُ العُذُوبَة، والبَيْضَاويِّ: القَامعُ للْعَطْشِ لِفَرْط عُذُوبَته، وقال الزَّمَخْشَريُّ: لأَنَّهُ يَرْفُتُ العَطَشَ، أَي يُسَكِّنُهُ، ويَكْسِرُ سَوْرَتَه، كأَنّه مَقْلُوبٌ. وعبارة اللسان هُو أَشَدُّ الماءِ عُذُوبَةً.(١)

سائغ شرابه: السائغ السهل الانحدار.قال في اللسان : ساغَ الشرابُ في الحَلْقِ يَسُوغُ سَوْغاً وسَواغاً: سَهُلَ مَدْخَلهُ في الحلقِ. وساغَ الطعامُ سَوْغاً: نزل في الحلقِ(٢).

ملح أجاج: والأجاج صفة للملح وهو المر الشديد المرارة وقال ابن قتيبة هو أشد الماء ملوحة وقيل هو الذي يخالطه مرارة ويقال ماء ملح ولا يقال مالح .(٣)

طرياً: الطري الغض الجديد .

قال الراغب:قال تعالى: ﴿لحما طريا﴾]النحل/١٤[، أي: غضا جديدا، من الطراء والطراوة. يقال: طريت كذا فطري، والإطراء: مدح يجدد ذكره، وطرأ بالهمز: طلع.(٤)

حلية: الحَلْيُ: ما تُزَيِّنَ به من مَصوغِ المَعْدنيَّات أَو الحجارةِ, والجمع حُلِيٌّ؛ قال الفارسي: وقد يجوز أَن يكون الحَلْيُ جمعاً، وتكون الواحدة حلْيَةٌ كشَرْيَة وشَرْيٍ وهَدْيَة وهَدْيٍ. والحِلْيَةُ:كالحَلْيِ، والجمع حِليً وحُليً. الليث: الحَلْيُ كلّ حِلْيةٍ حَلَيت بها امرأَةً أَو سيفاً ونحوَه، والجمع حُلِيٌّ.(٥)

وتري الفلك فيه مواخر: الفلك السفينة ومواخر أي: جواري تشق الماء مع صوت.

قال في اللسان : مَخَرَتِ السفينةُ تَمْخَرُ وتَمْخُر مَخْراً ومُخُوراً: جرت تَشُقُّ الماءَ مع صوت، وقيل: استقبلتِ الريح في جريها، فَهي ماخِرَةٌ. ومَخَرَتِ السفينةُ مَخْراً إذا استقبلتَ بها الريح. وفي التنزيل:(وترى الفُلْكَ فيه مَوَاخِر) يعني: جَوارِيَ، وقيل: المواخر التي تراها مُقْبِلةً ومُدْبِرةً بريح واحدة، وقيل: هي التي تسمع صوت جريها، وقيل: هي التي تشق الماء، وقال الفراء في قوله تعالى (مواخر) : هو صوت جري الفلك بالرياح؛ يقال: مَخَرَتْ تَمْخُرُ

(١) ينظر : تاج العروس ٥ / ٢٤ مادة : فرت

(٢) ينظر: اللسان ٨ / ٤٣٥ مادة : " سوغ"

(٣) زاد المسير ٦ / ٩٦

(٤) مفردات القرآن ٣١٣ مادة : " طري "

(٥) ينظر : اللسان ١٤ /٩١ مادة : " حلا "

وتَمْخَرُ؛ وقيل: مواخِرَ جواريَ. والماخِرُ: الذي يشق الماء إذا سبَح؛ قال أَحمد بن يحيى: الماخرة السفينة التي تَمْخَرُ الماء تدفعه بصدرها.

والمَخْرُ في الأَصل: الشَّقُّ. مَخَرَتِ السفينةُ الماءَ: شقَّتْه بِصَدْرها وجَرَتْ. ومَخَرَ الأَرضَ إذا شقها للزراعة.(١)

لتبتغوا من فضله: الابتغاء الطلب. وَبَغَيْتُ الشيءَ: طلبْتُهُ. (٢)

والفضل : الزيادة على ما وجب والإفضال فعل ما لم يجب قال ابن فارس في المجمل الفضل الزيادة والخير والإفضال الإحسان.(٣)

المعنى العام:

يقول تعالي : لا يتساوى ولا يتشابه البحران في الحقيقة , فأحدهما ماؤه حلو تستسيغ النفوس شرابه ويلذ لها طعمه والآخر شديد الملوحة ,ومع هذا الاختلاف يتحدان في فوائد يجنيها الإنسان فمن الماء العذب والمالح ,يأكل لحما طريا ,كأنواع السمك ويستخرج الحلية كاللؤلؤ والمرجان وعلي كلا البحرين–العذب والمالح– تجري السفن شاقة الماء مقبلة ومدبرة ,حاملة المؤن والأقوات وأنواع التجارة من قطر إلي آخر ,لتطلبوا بأسفاركم بالتجارة بين البلدان من فضل الله , ,شاكرين ربكم علي تسخيره لكم هذا البحر العظيم ,وعلي ما أنعم به عليكم من نعم فإنكم تتصرفون في البحر كيف شئتم,وتذهبون أين أردتم دون عائق ولا مانع بل بقدرته تعالي سخر لكم جميع ما في السماوات والأرض من فضله ورحمته.

الشرح والبيان:

كثيراً ما يستدل الله –عز وجل– علي عظيم قدرته ودقيق صنعه,وتفرده بالوحدانية, بخلق البحار وما فيها من الآيات العظام والفوائد الجمة للإنسان. ومن الآيات التي تناولت ذلك:

قوله تعالي:{وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾} النحل

وقوله تعالي:{رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ }الإسراء .

(١) ينظر : اللسان ٥ / ١٦٠ مادة : " مخر"
(٢) الصحاح ٥ / ١٨٢٣ مادة "بغى"
(٣) القرطبي ١ / ٣٧٤

وقوله تعالي:{ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ }الفرقان .

وقولـه تعالي :{ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ }الجاثية.

وقولـه تعالي:{مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ }الرحمن .

وهذه الآيات والآية التي نحن بصددها دليل علي عظمة الله وقدرته وقد نحي كثير من المفسرين بالآية منحي آخر فذهب إلي أن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكافر والمؤمن فالإيمان لا يتساوي مع الكفر في الحسن والنفع ,كما لا يتساوي البحران العذب والفرات.

يقول العلامة أبو السعود في تفسير هذه الآية: مثل ضرب للمؤمن والكافر.(١)

وقال الشوكاني: قال أكثر المفسرين إن المراد من الآية ضرب المثل فى حق المؤمن والكافر والكفر والإيمان فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن والكافر ولا الكفر والإيمان.

والذي أميل إليه أن الآية مسوقة للتنبيه علي قدرة الله –عز وجل– والاستدلال علي وحدانيته .

ولذلك قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال هو وهذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار والعمران والبراري والقفار وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك وهذا ملح أجاج أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار وإنما تكون مالحة زعافا مرة ولهذا قال (وهذا ملح أجاج) أي مر ثم قال تعالى(ومن كل تأكلون لحما طريا) يعني السمك(وتستخرجون حلية تلبسونها) كما قال عز وجل (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان) وقوله جل وعلا(وترى الفلك فيه مواخر) أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره وقال

(١) تفسير أبو السعود١٤٧/٧

مجاهد تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام وقوله جل وعلا (لتبتغوا من فضله) أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم (ولعلكم تشكرون) أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض الجميع من فضله ورحمته. (١)

وقال الرازي: وقوله: {ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون } يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.(٢)

من نعم الله في البحار:

منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية أربعة أنواع وهي:

المنفعة الأولى:أن من البحار ما هو حلو سائغ ينتفع به الناس في الشرب.

المنفعة الثانية: قوله تعالى: {ومن كل تأكلون لحما طريا } .

قال الألوسي-رحمه الله-: وقوله تعالى ومن كل أي من كل واحد منهما تأكلون لحما طريا أي غضا جديدا وهو السمك على ما روى عن السدي وقيل الطير والسمك وأختار كثير الأول والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيوانا قيل للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد كما ينبيء عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله(٣) .

ويذكر الرازي-رحمه الله- وجهاً آخر لهذا التعبير فيقول: واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحا، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد.(٤)

---

(١) ابن كثير ٣ / ٥٥٠

(٢) الرازي ٢٤ / ٣٥

(٣) تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٦٥

(٤) الرازي ١٧ / ٤٩٢ – ٤٩٣ عند تفسير الآية (١٤) من سورة النحل .

المنفعة الثالثة: قوله تعالى: {وتستخرجوا منه حلية تلبسونها } والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان } (الرحمن: ٢٢) والمراد: بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم.

قال الألوسي- رحمه الله -: وتستخرجون ظاهره ومن كل تستخرجون حلية تلبسونها والحلية التي تستخرج من البحر الملح اللؤلؤ والمرجان ويلبس ذلك الرجال والنساء وإن اختلفت كيفية اللبس أو يقال عبر عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم .

هل تخرج الحلية من الماء العذب :

ظاهر الآية والآيات التي في معناها يدل علي أن الحلية والتي هي اللؤلؤ والمرجان يستخرج من الماء الملح والعذب ، والعلماء يقولون إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرج من الماء العذب بل من الماء الملح ومن هنا اختلف العلماء في معني إخراج الحلية من الماء العذب علي أقوال :

الأول : حمل الحلية علي كل ما يتحلي به من غير قصر علي اللؤلؤ والمرجان .

قال الألوسي : وقيل لا يبعد أن تكون الحلية المستخرجة من ذلك عظام السمك التي يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر مثلا فتحمل ويتحلى بها وفيه ما فيه لا سيما إذا كانت الحلية كالحلى ما يتزين به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة .[1]

أقول ويعكر علي هذا القول قوله تعالي : {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ } [الرحمن٢٢]

الثاني : لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره .[2]

الثالث : أن " من " في قوله تعالي (منهما) للسببية والمعني (بسببهما) .

قال ابن عاشور : وإن كان المراد بالبحرين: البحر الملح، والبحر العذاب كانت (من) في قوله (منهما) للسببية كما في قوله تعالى :(فمن نفسك في) [النساء : ٧٩] أي يخرج اللؤلؤ والمرجان بسببهما، أي بسبب مجموعهما، أما اللؤلؤ فأجوده ما كان في مصب الفرات على خليج فارس، قال الرماني: لما كان الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج

(١) تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٦٦

(٢) حاشية الخفاجي ٧ / ٢٢١

اللؤلؤ، قيل: يخرج منهما كما يقال: يتخلق الولد من الذكر والأنثى .[1]

الرابع : قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما وهو كقوله تعالى { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً } [سورة نوح : ١٥ – ١٦]والقمر في السماء الدنيا. وقال أبو علي الفارسي : هو من باب حذف المضاف، أي من أحدهما كقوله تعالى (على رجل من القريتين عظيم) أي من أحدهما.[2]

المنفعة الرابعة: قوله تعالى: {وترى الفلك مواخر فيه } جواري فيه وفي هذا منة علي الناس حيث تجري السفن بما " ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم وبركوب البحر تكتسب الأرباح وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضاً " .[3]

سبب تقديم (مواخر)في سورة النحل وتأخيرها هنا :

لسائل أن يسأل أية فائدة في أن تقدم مواخر في قوله تعالي {...وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ... ﴿١٤﴾ } النحل وفي تأخيرها هنا ؟

والجواب:

قدم (مواخر) علي الجار والمجرور في النحل وقدم (فيه) علي مواخر في فاطر . وذلك أنه تقدم الكلام في النحل علي وسائط النقل ، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال ، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة ، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً ، فقال : { {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } النحل١٤.

قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل . وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال : { وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } فاطر١١ . ثم قال : { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٤٩ – ٢٥٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٥٠

(٣) القرطبي ١ / ٥٧٦

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } فاطر١٢ .

فالكلام هنا علي البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم . فلما كان الكلام علي البحر قدم ضمير البحر علي المخر فقال : (وتري الفلك فيه مواخر) .

فانظر كيف أنه لما كان الكلام علي وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك ، ولما كان الكلام عن البحر ذكر ما يتعلق به . (١)

وقوله تعالي:{ ولتبتغوا من فضله } أي : من فضل الله تعالى بالنقلة فيها وهو سبحانه وإن لم يجر له ذكر في الآية فقد جرى له تعالى ذكر فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه – عز شأنه – واللام متعلقة بمواخر وجوز تعلقها بمحذوف دل عليه الأفعال المذكورة كسخر البحرين وهيأهما أو فعل ذلك لتبتغوا من فضله.(٢)

والمعني : لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرفوا فيها في تجاراتكم، وتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم، وما رزقكم منه من طيبات الرزق، وفاخر الحلي.(٣)

معني " لعل" :

وللسادة العلماء في تأويل لعل الواقعة في كلام الله تعالى وجوه :

الأول : أنها بمعني "كي" فمعني لعلكم تشكرون : كي تشكروا فهي تفيد التعليل .

روي ابن جرير عن مجاهد في قوله: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة ٢١] قال: لعلكم تطيعون .

قال ابن جرير : والذي أظن أن مجاهدا أراد بقوله هذا: لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه وإقلاعكم عن ضلالتكم.

ثم قال: فإن قال لنا قائل: فكيف قال جل ثناؤه: {لعلكم تتقون} أو لم يكن عالما بما يصير إليه أمرهم إذا هم عبدوه وأطاعوه، حتى قال لهم: لعلكم إذا فعلتم ذلك أن تتقوا ، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إياه مخرج الشك؟ قيل له: ذلك على غير المعنى الذي توهمت، وإنما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، لتتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بالربوبية والعبادة، كما قال الشاعر:

---

(١) التعبير القرآني د / فاضل السمرائي ص ٦٨ – ٩٦ الناشر دار عمار عمان الطبعة الثالثة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .

(٢) الألوسي ٢٢ / ٢٧٦

(٣) ابن جرير ٢٢ / ٨٢

وقلتم لنـــا كفـــوا الحـــروب لعلنـــا نكف ووثقتم لنا كـــل موثـــق
فلما كففنا الحرب كانـــت عهـــودكم كلمح سراب في الفـــلا متـــألق

يريد بذلك: قلتم لنا كفوا لنكف. وذلك أن"لعل" في هذا الموضع لو كان شكا لم يكونـــوا وثقوا لهم كل موثق.[1]

وممن ذهب إلي أنها للتعليل بمعنى كي : قطرب وأبو على الفارسي وابن الأنباري[2]

الثاني : أن لعل هنا للترجي .

قال صاحب الكشاف : ولعل للترجي أو الإشفاق تقول لعل زيدا يكرمني وقـــد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن ولكن لأنه إطماع من كـــريم رحـــيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجري إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به قال من قـــال إن (لعل) بمعنى : كي . ولعل لا تكون بمعنى كي . ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك وأيضا فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم الـــتي يوطنـــون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات او يخيلوا إخالـــة أو يظفر منهم بالرمزة او الابتسامة او النظرة الحلوة فإذا عثر على شيء من ذلك منهم لم يبـــق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب فعلى مثله ورد كلام مالك الملـــوك ذي العز والكبرياء او يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد ..[3]

الثالث : إنها تدل علي اقتراب وقوع الشيء وأنه في حيز الإمكان .

قال ابن عاشور – رحمه الله–: وعندي وجه آخر مستقل وهو أن لعل الواقعة في مقام تعليل أمر أو نهي لها استعمال يغاير استعمال لعل المستأنفة في الكلام سواء وقعـــت في كلام الله أم في غيره، فإذا قلت افتقد فلانا لعلك تنصحه كان إخبارا باقتراب وقوع الشيء وأنه في حيز الإمكان إن تم ما علق عليه فأما اقتضاؤه عدم جزم المتكلم بالحصول فذلك معنى التزامي أغلبي قد يعلم انتفاؤه بالقرينة وذلك الانتفاء في كلام الله أوقع، فاعتقادنا بأن كـــل شيء لم يقع أو لا يقع في المستقبل هو القرينة على تعطيل هذا المعنى الالتزامي دون احتيـــاج إلى التأويل في معنى الرجاء الذي تفيده لعل حتى يكون مجازا أو استعارة لأن لعل إنما أتى بها لأن المقام يقتضي معنى الرجاء فالتزام تأويل هذه الدلالة في كل موضع في القرآن تعطيل لمعنى

(١) تفسير ابن جرير ١ / ١٢٥
(٢) التحرير والتنوير ١ / ٣٢٩
(٣) الكشاف ١ / ٢٢٩ – ٢٣١

الرجاء الذي يقتضيه المقام والجماعة لجأوا إلى التأويل لأنهم نظروا إلى لعل بنظر متحد في مواقع استعمالها بخلاف لعل المستأنفة فإنها أقرب إلى إنشاء الرجاء منها إلى الإخبار به. وعلى كل فمعنى لعل غير معنى أفعال المقاربة .[1] أ.هـ

وملخص أقوال العلماء في لعل أنها تأتي لوجوه :

الأول: لعل على بابها والترجي أو التوقع إنما هو في حيز المخاطبين.

ثانيها : أن لعل للإطماع تقول: للقاصد لعلك تنال بغيتك.

ثالثها : أنها للتعليل بمعنى كي.

رابعها : الإخبار باقتراب وقوع الشيء وأنه في حيز الإمكان .

ما يؤخذ من الآية الكريمة:

يؤخذ من الآية الكريمة فوق ما تقدم في ثنايا الشرح ما يلي:

١- إن في خلق البحار واختلافها وتمايزها فمنها العذب الزلال وهو الأنهار ومنها الملح الأجاج وهو البحار , ومع اختلافهما وتمايزهما حين يتجاوران ،فيهما تشابه بوجود الأسماك في كل منهما, واستخراج الحلية ، دليل علي قدرة الله ووحدانيته وعظمته.

٢- في خلق البحر منافع عظيمة كالأسماك التي ينتفع بلحومها , واللؤلؤ والمرجان الذي يتزين به, وتسيير السفن ,لتبادل التجارات بين الأقطار البعيدة ,وكسب الأرزاق, وكل هذا يستدعي شكر المنعم علي ما أنعم به من هذا الفضل العظيم .

٣- استدل بالآية من قال : يحنث من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكًا وذلك لأن الله تعالي قد سمي السمك لحماً,وخالف الأحناف فقالوا لا يحنث,لأن لحم السمك ليس بلحم في العرف,وحجة أبي حنيفة –رحمه الله–أن مبني الأيمان علي العرف والعادة.وعادة الناس إذا ذكر اللحم علي الإطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل أنه إذا قال رجل لغلامه :اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار. [2]

٤ـ وقريب من هذا ما ذكره القرطبي بقوله : الثامنة : من حلف ألا يلبس حليا فلبس لؤلؤا لم يحنث وبه قال أبو حنيفة قال ابن خويز منداد لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين والأيمان تخص بالعرف ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنث وكذلك لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنث وإن كان الله تعالى

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٣٠

(٢) ينظر الرازي٩/٤٩٣

قد سمى الأرض فراشا والشمس سراجا وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد من حلـــف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث لقوله تعالى :{ وتستخرجون منه حلية تلبسونها } والذي يخرج منه اللؤلؤ والمرجان[1] .

(١) تفسير القرطبي ٦ / ٣٧٠٥

من الدلائل الكونية على قدرة الله

قال الله تعالى :{يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ }

صلة النص الشريف بما قبله:

لما ذكر الله تعالي في الآيات السابقة دلائل وحدانيته و عظمته, من خلق الإنسان من تراب ,وأتبعه بعد ذلك بخلق البحار وما فيها من آيات عظام , ذكر بعد ذلك دليلاً آخر علي قدرته التامة, وهو اختلاف الأزمنة, ثم أبطل عبادة الأصنام, وبين أنها لا تستحق العبادة, فإنها لم تخلق سيئاً حقيرا, فضلاً عن هذه المخلوقات العظام .

المفردات:

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل:أي: يدخل أحدهما في الآخر فيكون أطول منه , فيزيد في زمن كل منهما بالنقص من الآخر , فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء.

قال الراغب: – الولوج: الدخول في مضيق. قال تعالى: ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف/٤٠]، وقوله: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ [الحج /٦١] فتنبيه على ما ركب الله عز وجل عليه العالم من زيادة الليل في النهار، وزيادة النهار في الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها.(١)

(١) مفردات القرآن ٥٦٩ مادة : " ولج "

وسخر الشمس والقمر: ذللهما وذلك لما فيه من مصالح الخلق ومنافع العباد والدلالة علي القدرة .

قال في اللسان : والسُّخْرَةُ: ما تسَخَّرْتَ من دابَّة أَو خادم بلا أَجر ولا ثمن. ويقال: سَخَرْتُه بمعنى سَخَّرْتُه أَي قَهَرْتُه وذللته. قال الله تعالى:(وسخر لكم الشمس والقمر) أَي ذللهما، والشمسُ والقمرُ مُسَخَّران يجريان مجاريهما أَي سُخِّرا جارين عليهما. { والنجومُ مُسخَّرات }[النحل : ١٢] قال الأَزهري:جارياتٌ مجاريَهُنَّ. وسَخَّرَهُ تسخيراً: كلفه عملاً بلا أُجرة، وكذلك تَسَخَّرَه. وسخَّره يُسَخِّرُه سِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً وسَخَرَه : كلفه ما لا يريد وقهره. وكل مقهور مُدَبَّرٍ لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر ، فذلك مسخَّر. وقوله عز وجل: أَلم تروا أَن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأَرض ؛ قال الزجاج: تسخير ما في السموات تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميين ، وهو الانتفاعُ بها في بلوغِ مَنابِتهم والاقتداءُ بها في مسالكهم. (١)

لأجل مسمي:أي: لمقدار معين ,وطريق محدد,ومدة معينة.

قال القرطبي –رحمه الله–:" كل يجري لأجل مسمى" أي إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي عندها تكور الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر الكواكب وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها وقيل معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلكه في شهر والشمس في سنة. (٢)

ذلكم الله ربكم:

إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة, وما فيه من معني البعد للإيذان بغاية العظمة , وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أي: ذلكم العظيم الشأن الذي أبدع الصنائع البديعة.(٣)

قطمير: القِطْمِيرُ، والقِطْمَارُ، بكسرِهما: شَقُّ النَّوَاة، كذا في المُحْكَم، أَو القِشْرَةُ الَّتي فيها، أَو الفُوفَةُ التي في النَّواة، وهي القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ، وفي بعض النُّسخ: الدَّقِيقَةُ، التي على النَّوَاة بَيْنَ النَّواة والتَّمْرَة، كما في الصحاح، أَو النُّكْتَةُ البَيْضَاءُ التي في ظَهْرِها أَي النّواة التي يَنْبُتُ منها النَّخْلَةُ. ويُسْتَعْمَل للشَّيْءِ الهَيِّنِ النَّزْرِ الحَقِيرِ، قال الله تعالى: مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ويقال: ما

(١) ينظر : اللسان ٤ / ٣٥٢ مادة " سخر"

(٢) القرطبي ٥ / ٣٨٠٥ تفسير سورة الرعد الآية : ٢

(٣) الألوسي ٢٦٨/١٢

أَصَبْتُ منه قِطْمِيراً، أَي شيئاً. (١)

قال الألوسي: وأيًا كان فهو مثل للشيء الدنيء الطفيف, قال الشاعر:

وأبوك يخصف نعله متوركاً ما يملك المسكين من قطمير.(٢)

ولا ينبئك مثل خبير: الخَبِيرُ: العالِمُ بالأمر.(٣)

والفرق بين الخبر والعلم: أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها ففيه معنى زائد على العلم، وهو من قولك خبرت الشئ إذا عرفت حقيقة خبره وأنا خابر وخبير من قولك خبرت الشئ إذا عرفته مبالغة مثل عليم وقدير ثم كثر حتى أستعمل في معرفة كنهه وحقيقته.(٤)

والفرق بين النبأ والخبر: أن النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر ، ويجوز أن يكون المخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا يقال تخبرني عن نفسي ولا يقال تنبئني عن نفسي، وكذلك تقول تخبرني عما عندي ولا تقول تنبئني عما عندي(٥) .

المعني العام:

يقول تعالى ذكره: يدخل الليل في النهار، وذلك ما نقص من الليل أدخله في النهار فزاده فيه، ويولج النهار في الليل، وذلك ما نقص من أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل، فأدخله فيها . وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم، ورحمة منه بكم، لتعلموا عدد السنين والحساب، وتعرفوا الليل من النهار. كل ذلك يجري لوقت معلوم. ، وحد لا يقصر دونه ولا يتعداه . الذي يفعل هذه الأفعال معبودكم أيها الناس الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله ربكم له الملك التام الذي لا شئ إلا وهو في ملكه وسلطانه. والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم ، ما يملكون قشر نواة فما فوقه . إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون, ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم، بأن جعل لهم سمع يسمعون به، ما استجابوا لكم، لأنها ليست ناطقة، وليس كل سامع قولا متيسرا له الجواب عنه.

---

(١) ينظر : تاج العروس ٣٠ / ١٤٤ مادة " قطمر"

(٢) الألوسي ٢٦٩/١٢

(٣) ينظر : القاموس المحيط ٢ / ١٧ , واللسان ٢ / ١٠٩٠ مادة (خ ب ر)

(٤) الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري ص : ١٠٨

(٥) الفروق اللغوية – أبو هلال العسكري ص : ٥٣

فكيف تعبدون-أيها المشركون- من دون الله من هذه صفته، وهو لا نفع لكم عنده، ولا قدرة له على ضركم، وتدعون عبادة الذي بيده نفعكم وضركم، وهو الذي خلقكم وأنعم عليكم .

ويوم القيامة تتبرأ آلهتكم التي تعبدونها من دون الله من أن تكون كانت لله شريكا في الدنيا, ولا يخبرك يا رسولنا الكريم عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبدتها يوم القيامة، من تبرئها منهم، وكفرها بهم، مثل ذي خبرة بأمرها وأمرهم؛ وذلك الخبير هو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه.[1]

الشرح والبيان:

معني إيلاج الليل في النهار:

الذي تدور عليه عبارات أكثر المفسرين أن معني إيلاج الليل في النهار:إدخال كل واحد في الآخر بنقص أحدهما وزيادة الآخر فأحيانا يكون الليل أطول من النهار وأحيانا يكون النهار أطول من الليل. وقيل يكون ذلك بتعاقبهما وإتيان كل واحد بعد زوال الآخر.

قال القرطبي: قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي في معنى قوله { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ } [آل عمران ٢٧] أي تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون وكذا توج النهار في الليل وهو قول الكلبي وروي عن ابن مسعود وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر.أ هـ[2]

وقال الرازي – رحمه الله-:أما قوله تعالى:{ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ } [آل عمران ٢٧] فيه وجهان:

الأول: أن يجعل الليل قصيرا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلا في النهار وتارة على العكس من ذلك وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك .

والثاني: أن المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقيب النهار، فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار، ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر، والأول أقرب إلى اللفظ، لأنه إذا كان النهار

(١) هذا المعنى مقتبس من تفسير ابن جرير ٢٢ / – ٨٣

(٢) تفسير القرطبي ٣ / ١٢٩٨

طويلا فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلا في الليل.أ.هـ [1]

واختار الواحدي الوجه الأول من الوجوه التى ذكرها الرازي فقال: " تولج الليل في النهار" تدخل الليل في النهار أي تجعل ما نقص من أحدهما زيادة في الآخر. أ.هـ[2]

ما يؤخذ من النص الشريف:

١- بيان قدرة الله –عز وجل–وذلك بأنه سخر الشمس والقمر لسلطانه,وأجراهما بقدرته ,وأقامهما علي هذا النظام المحكم البديع,الذي لا يتطرق إليه اضطراب أو خلل.

٢- الذي أقام الكون علي هذا النظام البديع هو المستحق للعبادة لا هذه المخلوقات الصماء ,التي لا تسمع ولا تبصر ولا تملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

٣- إن المعبودين يتبرؤن ممن عبدوهم يوم القيامة ويكفرون بعبادتهم ويكونوا أعداء لمن عبدهم.قال الألوسي :{ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر١٤] فضلا عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم وشرك مصدر مضاف إلى الفاعل أي ويوم القيامة يجحدون إشراككم إياهم وعبادتكم إياهم وذلك بأن يقدر الله تعالى الأصنام على الكلام فيقولون لهم ما كنتم إيانا تعبدون أو يظهر من حالها ظهور نار القرى ليلا على علم ما يدل على ذلك ولسان الحال أفصح من لسان المقال ومن هذا القبيل قول ذي الرمة:

وقفت على ربع لميـة ناطق ... يخاطبني آثاره وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبه

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم فأمر التكلم ظاهر وقد حكى الله تعالى قول الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ }[سبأ : ٤٠ – ٤١] [3] .

١ــ في قوله تعالي : (ولا ينبئك مثل خبير) إشارة إلي أن ما تحدثت به الآية من تلك الحقائق , هو الحق المطلق الذي لا شك فيه ,لأنه من عند الله , العليم الخبير ... وهذا ما يقضي بالتصديق بهذه الأخبار ، والعمل بها , وأخذ العبرة منها ,لأنها ممن يعلم الغيب في السماوات والأرض, وكل علم يخالف هذا العلم, باطل , وضلال[4] .

---

(١) تفسير الرازي ٧ / ١٦٢

(٢) تفسير الواحدي / ٢٠٥

(٣) تفسير الألوسي ١٢/٢٧٠-٢٧١

(٤) التفسير القرآني للقرآن المجلد السادس ص٨٦٥

احتياج الخلق إلى الله تعالى وغناه عنهم

قال الله تعالى: { ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ } .

صلة النص الشريف لما قبله:

قال ابن عاشور – رحمه الله – : لما أشبع المقام أدلة، ومواعظ، وتذكيرات، مما فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع، ولم يظهر مع ذلك كله من أحوال القوم ما يتوسم منه نزعهم عن ضلالهم وربما أحدث ذلك في نفوس أهل العزة منهم إعجابا بأنفسهم واغترارا بأنهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين فيزيدهم ذلك الغرور قبولا لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم، ناسب أن ينبئهم الله بأنه غني عنهم وأن دينه لا يعتز بأمثالهم وأنه مصيرهم إلى الفناء وآت بناس يعتز بهم الإسلام.

فالمراد بـ (أيها الناس) هم المشركون كما هو غالب اصطلاح القرآن، وهم المخاطبون بقوله آنفا (ذلكم الله ربكم له الملك) الآيات.[1]

المفردات:

الفقراء: الفَقْرُ: الحاجَةُ، وفِعْلُها الافْتِقارُ، والفُقْرُ لُغَةٌ رَدِيئةٌ. وأغْنى اللّهُ مَفاقِرَه: أي وُجُوهَ

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٨٥

فَقْره. والفِقْرَةُ والفَقَارَةُ– لُغَتان–: في الظَّهْر، وجَمْعُه فِقَرٌ، وهو المُنَضَّدُ بعضُه إلى بعضٍ من لَدُن العَجْبِ إلى فَهْقَة الرَّأس. والفاقِرَةُ: داهيَةٌ تَكْسِرُ فَقَارَ الظَّهْرِ. وأَبَثَّ فلانٌ فلاناً شُقُوْرَه وفُقُوْره: إذا شَكا إليه حاجَةً.(١)

الغني : والغني : هو الذي لا يَحْتاجُ إلى أَحدٍ في شيءٍ وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إليه وهذا هو الغِنى المُطْلَق ولا يُشارِك الله تعالى فيه غيرُهُ ومن أَسمائه المُغْني سبحانه وتعالى وهو الذي يُغني من يشاءُ من عِباده ، والغِنى : ضدُّ الفَقْر(٢) . فالله تعالي غني عن خلقه غير محتاج إليكم ولا إلي أعمالكم .

ولا تزر وازرة وزر أخري:

الوزر: الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل. قال تعالى: ﴿كلا لا وزر﴾ [القيامة/١١] والوزر: الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل. قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ [النحل/٢٥]، كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت/١٣] . وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام/١٦٤] أي: لا يحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه، وقوله: ﴿وضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ [الشرح/٢ – ٣]، أي: ما كنت فيه من أمر الجاهلية، فأعفيت بما خصصت به عن تعاطي ما كان عليه قومك، والوزير: المتحمل ثقل أميره وشغله، والوزارة على بناء الصناعة. وأوزار الحرب واحدها وزر: آلتها من السلاح، والموازرة: المعاونة. يقال: وازرت فلانا موازرة: أعنته على أمره. قال تعالى: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي﴾ [طه/٢٩]، ﴿ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم﴾ [طه/٨٧](٣).

مثقلة :

الثِّقَل: نقيض الخِفَّة. والثِّقَل: مصدر الثَّقيل، تقول: ثَقُل الشيءُ ثِقَلاً وثَقَالة، فهو ثَقيل، والجمع ثِقالٌ. والثِّقَل: رجحان الثَّقيل. والثِّقْل: الحِمْل الثَّقيل، والجمع أَثْقال مثل حِمْل وأَحمال. وكانت العرب تقول: الفارس الجَواد ثِقْل على الأَرض، فإذا قتل أَو مات سقط به والثِّقْل: الذَّنْب، والجمع كالجمع. وفي التنزيل: { ولَيَحْمِلُنَّ أَثقالهم وأَثقالاً مع أَثقالهم }

(١) المحيط في اللغة ٦ / ٢٣١ مادة "فقر"
(٢) لسان العرب ١٥ / ١٣٥
(٣) المفردات ٥٥٨ مادة : " وزر "

[العنكبوت١٣] وهو مثل ذلك يعني أوزارهم وأوزار من أضلوا وهي الآثام[١] .

وأقاموا الصلاة : إقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها ؛ يقال قام الشيء أى : دام وثبت وليس من القيام على الرجل وإنما هو من قولك قام الحق أى : ظهر وثبت، وقيل يقيمون يديمون وأقامه أى أدامه[٢] .

تزكي:

أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية. يقال: زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة. والزكاة: ما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس، أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعا، فإن الخيرين موجودان فيها ، وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة. هو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك، نحو: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس/٩]، وتارة ينسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة نحو: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ [النساء/٤٩]، وتارة إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو: ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة/١٠٣]، ﴿يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم﴾ [البقرة/١٥١]، وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك، نحو: ﴿وحنانا من لدنا وزكاة﴾ [مريم/١٣]، ﴿لأهب لك غلاما زكيا﴾ [مريم/١٩]، أي: مزكى بالخلقة، وذلك على طريق ما ذكرنا من الاجتباء، وهو أن يجعل بعض عباده عالما وطاهر الخلق لا بالتعلم والممارسة بل بتوفيق إلهي، كما يكون لجل الأنبياء والرسل. ويجوز أن يكون تسميته بالمزكى لما يكون عليه في الاستقبال لا في الحال، والمعنى: سيتزكى، ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ [المؤمنون/٤]، أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله، أو ليزكوا أنفسهم، والمعنيان واحد. وليس قوله: (للزكاة) مفعولا لقوله: (فاعلون)، بل اللام فيه للعلة والقصد. وتزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما: بالفعل، وهو محمود وإليه قصد بقوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس/٩]، وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى/١٤].

---

(١) اللسان ١١ / ٨٥ مادة : " ثقل "

(٢) تفسير القرطبي ١ / ١٤٣

والثاني: بالقول، كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿فلاتزكوا أنفسكم﴾ [النجم/٣٢]، ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلا وشرعا، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن كان حقا ؟ قال: مدح الرجل نفسه[١].

وإلي الله المصير: أي: إليه المرجع والمنتهي .

قال الزبيدي :صارَ الأمْرُ إلى كذا يَصير صَيْراً ومَصيراً وصَيْرُورَةً . قال الأزهريّ : صَارَ على ضَرْبَيْن : بُلُوغٌ في الحالِ وبُلُوغٌ في المَكانِ كقَوْلك : صارَ زَيْدٌ إلى عَمْرٍو وصَارَ زيدٌ رَجُلاً فإذا كانتْ في الحالِ فهي مِثْلُ كان في بابه . وصَيَّرَه إليْه وأصَارَه . المَصيرُ : المَوضعُ الذي تَصيرُ إليه المِياهُ صارَ الرجلُ يَصيرُ إذا حضَرَ الماءَ فهو صائرٌ . والصِّيْر : مُنْتَهىَ الأمْرِ وعاقبَتُه وما يَصيرُ إليه .[٢]

المعني العام :

يخبر تعالى بغنائه عما سواه, وبافتقار المخلوقات كلها إليه, وتذللها بين يديه, فقال تعالى: يا أيها الناس, أنتم المحتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات, وهو تعالى الغني عنكم بالذات,. فهو المنفرد بالغنى, وحده لا شريك له, وهو الحميد, في جميع ما يفعله, ويقوله, ويقدره, ويشرعه, ولو شاء لأذهبكم أيها الناس, وأتى بقوم غيركم, وما هذا عليه بصعب, ولا ممتنع , ويوم القيامة, إن تدع نفس مثقلة, بأوزارها, إلى أن تساعد على حملها, ما عليها من الأوزار أو بعضه, لا يحمل منه شيء ,وإن كان قريبا إليها، حتى ولو كان أباها، أو أبنها ,كل مشغول بنفسه, وحاله, إنما يتعظ بما جئت به, أولو البصائر والنهى, الخائفون من ربهم, الفاعلون ما أمرهم به ,ومن عمل صالحا, فإنما يعود نفعه على نفسه, وإلى الله المرجع, والمآب، وهو سريع الحساب, وسيجزي كل عامل بعمله, إن خيراً فخير, وإن شراً فشر[٣].

الشرح والبيان:

قوله تعالي : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله) في ذلك دعوة للناس أن يتجهوا بحاجاتهم إلي من يملك كل شيء , ومن بيده الخير كله، والناس جميعاً في حاجة إلي من يعينهم , ويقضي حوائجهم, وهم يتوسلون إلي هذا بكثير من الوسائل , ومنها عبادة الأصنام

(١) مفردات القرآن ٢١٨ مادة : " زكا "

(٢) تاج العروس ١٢ / ٣٧١

(٣) ابن كثير٣ / ٥٥٢ - ٥٥٣

والملائكة والجن, والملوك وأصحاب الجاه والسلطان, يبغون بذلك الخير منهم ،وكلهم إنما يتناولون ما بين أيديهم من جاه أو سلطان أو مال. من عطاء الله إنهم فقراء إلي الله إن حبس عنهم العطاء ,كانوا أفقر الفقراء ...وأضعف الضعفاء..وإذن فالناس جميعاً- غنيهم وفقيرهم -فقير إلي الله . (١)

وفي هذا المعني ما رواه مسلم وغيره عن أبي ذر عن النبي- صلى الله عليه وسلم- فيما روى عن الله- تبارك وتعالى- أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .(٢)

قال صاحب الكشاف – رحمه الله-: . فإن قلت: قد قوبل الفقراء بالغنى فما فائدة الحميد ؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم – وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعما فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه . (٣)

وقوله تعالي: " إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" هذا بيان لغناه عن خلقه وحاجة الخلق إليه ,فهم محتاجون إليه في حفظ وجودهم,وإذا لم يقوموا بشكره فليسوا أهلاً للوجود بل يكون غيرهم أولي بالوجود منهم .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن المجلد السادس ٨٦٦

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب : تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤

(٣) الكشاف ٣ / ٣٠٥

وفي القرآن المجيد آيات كثيرة حملت هذا المعني منها :

١- قوله تعالي:{ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا } [النساء :١٣٣]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله عند تفسير هذه الآية: وقوله : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) قال بعض السلف ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره[1].

وقال العلامة أبو السعود– رحمه الله–: (إن يشأ يذهبكم أيها الناس) أي: يفنكم ويستأصلكم بالمرة (ويأت بآخرين) أي: يوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الإنس ومفعول المشئية محذوف لكونه مضمون الجزاء أي: أن يشأ إفناءكم وإيجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى إن إبقاءكم على أما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم لا لعجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا (وكان الله على ذلك) أي: على إفناءكم بالمرة وإيجاد آخرين دفعة مكانكم (قديرا) بليغ القدرة وفيه لا سيما في توسيط الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لمن عادى رسول الله من العرب أي: إن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى :(وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }[محمد:٣][2] أ.هـ

٢- وقوله تعالي:{ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)}الأنعام.

٣- وقوله تعالي:{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) } إبراهيم

٤- وقوله تعالي:{ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)} محمد

---

(١) ابن كثير ٥٦٥/١

(٢) أبو السعود ٢٤١/٢

الشخصية في الجزاء

وقوله تعالي:(ولا تزر وازرة وزر أخري) أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخري فلا يحمل إنسان وزر غيره , ولا يعينه في حمله. وهذا نظير قوله تعالي:{ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) } الأنعام

وقوله تعالى { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) }

وقوله تعالي:{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)}الإسراء

وقوله تعالي:{ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)}الزمر

وقوله تعالي:{ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) }النجم

يقول ابن عجيبة –رحمه الله–: يقول الحق جلّ جلاله: {ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أُخرى} أي: ولا تحمل نفس آثمة إثمَ نَفْسٍ أخرى، والوزر والوِقر أخوان، ووزَر الشيء: حمله. والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الظلمةُ الجارَ بجريمة الجار، والقريبَ بالقريب، فذلك ظلم محض[1] . أ.هـ

نعم الجبابرة لا يتورعون عن أخذ القريب بجريرة قريبه,وعقوبة البريء إذا أفلت منهم المذنب , بل لا يتورعون في أخذ القبيلة بجريرة الرجل الواحد, فهم كما قال ذؤيب ابن كعب :

جانيكَ مَن يَجني عَلَيكَ وَقَد ... تُعدي الصِحاحَ مَبارِكَ الجُربِ

وَلَرُبَّ مَأخوذٍ بِذَنبِ عَشيرَةٍ ... وَنَجا المُقارِفُ صاحِبُ الذَنبِ

وكما قال محمد ابن حمير الهمداني:

وحملتني ذنبَ امريء وتركته ... كذي العُر يكوى غيره وهو راتع

الإضلال من جنس عمل المضل :

كيف نوفق بين هذه الآيات التي تصرح بأن العامل وحده يتحمل نتيجة عمله وبين قوله تعالي:{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ }[العنكبوت: ١٣] ؟

(١) تفسير ابن عجيبة ٤ / ٥٣١

والجواب:

أن هذه الأثقال من جنس أعمالهم لأنها أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قوله:{ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [العنكبوت: ١٢].

وتصديق ذلك ما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وغيره:عن جرير بن عبد الله عن النبي –صلي الله عليه وسلم– (... من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء.) .[1]

وقوله تعالي(وإن تدع مثقلة إلي حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى)معناه: { وإِن تَدْعُ } نفس { مثقلةً } بالذنب أحداً { إِلى حِمْلِها } أي: إلى حمل ثقل ذنوبها، ليتحمل عنها بعض ذلك، { لا يُحْمَل منه شيءٌ ولو كان } المدعو، المفهوم من قوله: { وإِن تدع } ، { ذا قُربى } ذا قرابة قريبة، كأب، وولد، وأخ.[2]

وقد يقول قائل:إن عدم حمل الغير على الغير عام في النفس الآثمة وغير الآثمة فلم خص بالآثمة مع أن التصريح بالعموم أتم في العدل وأبلغ في البشارة وأخصر في اللفظ وذلك بأن يقال ولا تحمل نفس حمل أخرى ؟

وجوابه : أن الكلام في أرباب الأوزار المعذبين لبيان أن عذابهم إنما هو بما اقترفوه من الأوزار لا بما أقترفه غيرهم . [3]

من يخاف عقاب الله هو الذي ينتفع بالإنذار :

وقوله تعالي: (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب)

الغيب : في كلام العرب كل ما غاب عنك وهو من ذوات الياء يقال منه غابت الشمس تغيب والغيبة معروفة وأغابت المرأة فهي مغيبة إذا غاب عنها زوجها ووقعنا في غيبة وغيابة

---

(١) صحيح مسلم كتاب : العلم باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .٤ / ٢٠٥٨

(٢) تفسير ابن عجيبة ٤ / ٥٣١ – ٥٣٢

(٣) الألوسي ٢٢ / ٢٧٣

أي: هبطة من الأرض والغيابة الأجمة وهى جماع الشجر يغاب فيها ويسمى المطمئن من الأرض الغيب لأنه غاب عن البصر[1].

والمعني: أي إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى وهو كقوله تعالى} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ { [يس:١١][2]

قال الشوكاني –رحمه الله–:وجملة (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار ومعنى يخشون ربهم بالغيب أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم أو يخشونه في الخلوات عن الناس قال الزجاج تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار[3].

معني إقامة الصلاة هنا :

قال القرطبي:وإقامة لصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها يقال قام الشيء أي دام وثبت وليس من القيام على الرجل وإنما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت قال الشاعر : وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل يقيمون يديمون وأقامه أي أدامه وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .[4]

لماذا ذكر المؤمنين بالوصف ولم يذكرهم باللفظ ؟

وعدل عن ذكر المؤمنين باللفظ إلي ذكرهم بالوصف وذلك للثناء عليهم وبيان إخلاصهم في الاعتقاد والعمل .

قال ابن عاشور:ولما كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنما تنذر المؤمنين، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب، تذرعا بذكر هاتين الصلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل . [5]

(١) القرطبي ١٦٣/١

(٢) المرجع السابق ٣٣٩/١٤

(٣) فتح القدير٣٤٥/٤

(٤) تفسير القرطبي ١ / ١٤٣

(٥) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٩١

فضل الصلاة :

وإذا كان الحديث ذو شجون والشيء بالشيء يذكر,نذكر بعضا من فضائل الصلاة, والتي أفردها الآية بالذكر– بعد الإيمان – من بين سائر الأعمال .

فمما يدل علي أفضليتها أنها أول فرائض الإيمان ذكراً في القرآن , وأول صفة وصف الله بها المتقين بعد وصفهم بالإيمان .

فقال تعالي:{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) } البقرة.

وهي أكثر الفرائض ذكراً في القرآن المجيد حيث ذكرت في إحدى وستين موضعاً.

وهي –كما يقول الإمام الغزالي – عماد الدين وعصام اليقين ورأس القربات وغرة الطاعات . (١)

يقول الشيخ محمد بن نصر المروزي –رحمه الله–:ولم يفترض عليهم بعد توحيده والتصديق برسله وما جاء من عنده فريضة أول من الصلاة وأخبر أن ذلك أمره لهم وللأنبياء والأمم قبل أن يبعث محمدا – صلى الله عليه وسلم – ومما دل الله تعالى به على تعظيم قدر الصلاة ومباينتها لسائر الأعمال إيجابه إياها على أنبيائه ورسله وإخباره عن تعظيمهم إياها فمن ذلك أنه جل وعز قرب موسى نجيا وكلمه تكليما فكان أول ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عبادته إقام الصلاة ولم ينص له فريضة غيرها فقال تبارك وتعالى مخاطبا لموسى بكلماته ليس بينه وبينه ترجمان ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى{١٣} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي{١٤}﴾ طه فدل ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال إذ لم يبد مناجيه وكليمه بفريضة أول منها ثم ما أخبر عن سحرة فرعون بعد شركهم وعنادهم إذ يحلفون بعزة فرعون متخذين إلها من دون الله ولم يأتهم رسول قبل ذلك ولا سمعوا كتابا فلما أراهم موسى الآية حين ألقى عصاه فقلبها الله حية تسعى فالتقفت حبالهم وعصيهم فعلموا أن ذلك ليس بسحر ولا يشبهه فعل بني آدم انقادوا للإيمان بالله عز وجل فلم يلهموا طاعة يرجعون بها إلى الله ويترضونه بها ظنا أن يغفر لهم عما كان منهم إلا السجود وهو أعظم الصلاة قال الله عز وجل : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{١٢٠} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{١٢١} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{١٢٢} ﴾ الأعراف . فعفروا وجوههم لله

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١٤٥

في التراب خضوعا له فلم يجعل الله لهم مفزعا إلا إلى الصلاة مع الإيمان به وهي مفزع كل منيب . أ.هـ[1]

وقال رحمه الله في موضع آخر:وجعل الله الفرائض كلها لازمة في بعض الأوقات من الزمان وساقطة في بعضها كالصيام المفترض شهرا من السنة وعلى من ملك ما تجب فيه الزكاة والحج على من وجد السبيل إليه في العمر مرة واحدة وكذلك جميع الفرائض رفع فرض وجوبها في حال ولم يوجب فرضه في كل حال إلا الصلاة وحدها فإن الله تعالى ألزم عباده خمس صلوات في كل يوم وليلة وإنما منع الحائض من الصلاة تعظيما لقدر الصلاة لا تقربها إلا هي طاهرة من الحيض إلا أنه خفف شطرها عن المسافر رحمة له لما علم من تعب السفر وشدته وألزمه على كل حال فرض الشطر الباقي فلم يزل فرضها إذا حضر وقتها في حال من الأحوال إلا في الحال التي ينعقد فيها العقول والزائل العقل كالميت الذي لا يلزمه وجوب فرض الله في بدنه من الفرائض كلها وجعلها واجبة في كل شديدة وسقم أن يؤديها العاقل البالغ قائما إن استطاع وجالسا إن لم يستطع القيام ومضطجعا إن لم يقدر على القعود ومؤميا إن لم يقدر على الركوع والسجود حتى أوجب فرضها ثم المخاطرة بتلف النفوس ثم الخوف من المشركين ولم يرفعها الله عن عباده في حال أمن ولا خوف ولا صحة ولا سقم فاعقلوا ما عظم الله قدرها لشدة إيجابه إياها وإلزامها عباده في كل الأحوال لتعظموها إذ عظمها الله وتجزعوا أن تضيعوها وتنقصوها ولتؤدوها بإحضار العقول وخشوع الأطراف. ثم جعل جميع الطاعات من الفرض والتنفل متقبلة بغير طهارة ولا ينقضها الأحداث ولا يفسدها إلا الصلاة وحدها لإيجاب حقها وإعظام قدرها إلا الطواف بالبيت فإن السنة أن يؤتى على طهارة لأنه صلاة[2] . أ.هـ

الدليل علي فضل الصلاة في القرآن الكريم:

والآيات القرآنية كثيرة جداً في فضل الصلاة نتبرك بذكر بعضها فمنها:

١- قال تعالي في معرض الخطاب لبني إسرائيل:{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) }البقرة

٢- وقال تعالي:{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) }البقرة.

(١) تعظيم قدر الصلاة محمد بن نصر المروزي ١ / ٨٥

(٢) المرجع السابق ١ / ١٦٨

قال ابن جرير عن الضحاك، في قوله: {وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} قال: إنها لثقيلة ، ويعني بقوله: {إلا على الخاشعين} إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده[1].

٣- وقال تعالي:{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)} البقرة. يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها .

وأكثر الأقوال وأرجحها في المراد بالصلاة الوسطي أنها صلاة العصر كما ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله. [2]

٤- وقال تعالي:{ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)}النساء.

قال الإمام القرطبي –رحمه الله–: "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " أي: مؤقتة مفروضة وقال زيد ابن أسلم "موقوتا " منجما أي تؤدونها في أنجمها والمعنى عند أهل اللغة مفروض لوقت بعينه يقال وقته فهو موقوت ووقته فهو مؤقت .[3]

٥- وقال تعالي –في حق من تهاون بها–:{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)}مريم

قال ابن جرير –رحمه الله– عند تفسير هذه الآية: فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرت من الأنبياء الذين أنعمت عليهم، ووصفت صفتهم في هذه السورة، خلف سوء خلفوهم في الأرض أضاعوا الصلاة. ثم روي عن القاسم بن مخيمرة: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركا كان كفرا.

وغيا" قيل :هو اسم واد من أودية جهنم، أو أسم بئر من آبارها .

فعن لقمان بن عامر الخز اعي، قال: جئت أبا أمامة الباهلي، فقلت: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن صخرة زنة عشرة أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفا، ثم تنتهي إلى غي وأثام"، قال: قلت وما غي وما أثام ؟قال: "بئران في أسفل جنهم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان ذكر الله في كتابه {أضاعو الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا} وقوله في الفرقان: {ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما}. [الفرقان: ٦٨]

---

(١) تفسير ابن جرير ١ / ٢٠٦

(٢) ينظر: ابن كثير١/٢٩١

(٣) القرطبي ٥/٣٧٤

وقال آخرون: بل عنى بالغي في هذا الموضع: الخسران.

عن ابن عباس، قوله: {فسوف يلقون غيا} يقول: خسرانا.

وقال آخرون: بل عنى به الشر.

ذكر من قال ذلك: قال ابن زيد، في قوله: {فسوف يلقون غيا} قال: الغي: الشر.

ومنه قول الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد النـــاس أمـــره ومن يغو لا يعدم على الغـــي لائمـــا

قال أبو جعفر: وكل هذه الأقوال متقاربات المعاني، وذلك أن من ورد البئرين اللتين ذكرهما النبي – صلى الله عليه وسلم – والوادي الذي ذكره ابن مسعود في جهنم، فدخل ذلـــك، فقد لاقى خسرانا وشرا، حسبه به شرا. (١)

٦ــ وقال تعالي:{ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) }الماعون.

قال ابن الجوزي – رحمه الله –: قوله تعالى:" فويل للمصلين الذين هم عـــن صـــلاتهم ساهون" نزل هذا في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فإن كانوا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – صلوا رياء وإن لم يكونوا معه لم يصلوا فذلك قوله تعالى "الذين هم يراءون"وقال ابن مسعود: والله ما تركوها البتة ولو تركوها البتة كانوا كفارا ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها وقال ابن عباس: يؤخرونها عن وقتها . (٢)

الأحاديث الواردة في فضل الصلاة :

والأحاديث الواردة في فضل الصلاة أكثر من أن تذكر ومنها:

١– عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصـــوم رمضان وحج البيت) .(٣)

٢– وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال :سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا

(١) تفسير ابن جرير ١٦ / ٧٦ بتصرف

(٢) زاد المسير ٢٤٤/٩–٢٤٥

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب : الإيمان وقول (النبي صلى الله عليه وسلم) بني الإســـلام علـــى خمس١ / ٧ ، صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ١ / ٤٥

يبقى من درنه شيء قال فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا).[1]

٣- وعن أبي هريرة أيضا رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر).[2]

٤- وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- تحترقون تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا .[3]

من تطهر من الذنوب فنفع ذلك يعود عليه :

وجملة (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) تذييل جار مجرى المثل. وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يخص العام به، فالمعنى: إن الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.

والمقصود من القصر في قوله (فإنما يتزكى لنفس) أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضرا على أنفسهم.

وجملة (وإلى الله المصير) تكميل للتذييل، وتعريف(المصير) للجنس، أي المصير كله إلى الله سواء فيه مصير المتزكي، أي وكل يجازى بما يناسبه.

وتقديم المجرور في قوله(وإلى الله المصير) للاهتمام وللتنبيه على أنه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل مع الرعاية على الفاصلة.[4]

---

(١) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة ١ / ١٩٧، صحيح مسلم كتاب الصلاة - باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ١ / ٤٦٢

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ١ / ٢٠٩

(٣) الحديث رواه الطبراني في المعجم الصغير ١ / ٩١ والأوسط ٢ / ٣٥٨ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١ / ١٤٤ وقال : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن ورواه في الكبير موقوفا عليه وهو أشبه ورواته محتج بهم في الصحيح

(٤) ينظر التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٩١ - ٢٩٢

ما يؤخذ من الآيات:

يؤخذ من الآيات فوق ما تقدم في ثنايا الشرح ما يلي:

١- بيان أن الناس محتاجون إلي الله تعالي وأنهم أفقر الخلق إليه تعالي حتى كأن افتقار الخلائق بالإضافة إلي فقرهم غير معتد به.

قال البيضاوي -رحمه الله-: وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ولذلك قال:{ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)} النساء.(١)

٢- أن الله تعالي غني عن خلقه غير محتاج إليهم وما يفعلونه من عبادات وقربات فذلك لمنفعتهم هم فلو كانوا علي اتقي قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ولو كانوا علي أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

٣- أنه تعالي هو الغني النافع لخلقه فهو الغني الجواد المنعم.

٤- أن الله -تعالي- قادر علي إزالة هذا الملك وما عليه واستبدال آخر مكانه و إذا زال فلن ينقص من عظمته -تعالي- شيئاً.

٥- شخصية الجزاء يوم القيامة فلا تؤخذ نفس بجريرة أخري ولا تحمل نفس وزر أخرى لا جبراً ولا اختياراً مهما بلغت درجة القرب من صاحب الذنب.

٦- المنتفعون بالإنذار أهل الخشية الذين يخشون عذاب الله - تعالي -وهم غائبون عنه وهم يخشون الله في خلواتهم فهؤلاء هم الذين تنفعهم الإنذارات والتحذيرات , وليس أهل التمرد والعناد كما قال تعالي:{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) } يونس.

٧- في النص الشريف بيان لفضل الصلاة وذلك لإفرادها بالذكر من بين سائر أعمال الجوارح .

ومن الدليل على عظم قدرها وفضلها على سائر الأعمال أن كل فريضة افترضها الله فإنما افترضها على بعض الجوارح دون بعض ثم لم يأمر بإشغال القلب به إلا الصلاة فإنه أمر أن يقام بجميع الجوارح كلها وذلك أن ينتصبه العبد ببدنه كله ويشغل قلبه بها ليعلم ما يتلو وما يقول فيها ولم يفعل ذلك بشيء من الفرائض لم يمنع أن يشتغل العبد في شيء من

(١) تفسير البيضاوي ٤/٤٠٩

الفرائض بعمل سواه إلا الصلاة وحدها فإن الصائم له أن يلتفت وينام ويتكلم بغير ذكر الصوم ويعمل بجوارحه ويشغلها فيما أحب من منافع الدنيا ولذاتها مما أحل له والمقاتل في سبيل الله له أن يلتفت ويتكلم والحاج في قضاء مناسكه قد أبيح له أن يتكلم كذلك فيما بين ذلك وينام ويشتغل بما أحب من منافع الدنيا المباحة له وله أن يتكلم في الطواف وكذلك إعطاء الطاعات له أن يعمل فيها ويتفكر في غيرها ومنع المصلى من الأكل والشرب أعمال الدنيا من الالتفات والأفعال بالجوارح إلا بالصلاة وحدها ومن التفكر إلا فيما يتلو ويقول إلا أن العمل في الصلاة بغيرها مختلف في الضرر في الدين فمنه ما يفسد الصلاة ومنه ما يلزم به سجود السهو ومنه ما يكون منقوصا من الثواب على صلاته إلا أن أهل العلم مجتمعون على أنه إذا شغل جارحة من جوارحه بعمل عمل الصلاة أو بفكر وشغل أمر الصلاة أنه منقوص من ثواب من لم يفعل ذلك تاركا جزءا من تمام صلاته وكما لها فالمصلى كأنه ليس في الدنيا ولا في شيء منها إذا كان بجميع بدنه في الصلاة فكأنه ليس في الأرض إلا أن ثقل بدنه عليها وذلك أنه يناجي فلا ينبغي أن يخلط مناجاة الإله العظيم بغيرها وكيف يفعل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن الله مقبل عليه بوجهه فكيف يجوز لمن صدق بأن الله مقبل عليه بوجهه أن يلتفت أو يغيب أو يتفكر أو يتحرك بغير ما يحب المقبل عليه بوجهه لأن اشتغاله في صلاته بغيرها من الالتفات أو العبث أو التفكر في شيء من الدنيا هو إعراض عمن أقبل عليه وما يقوى قلب عاقل لبيب أن يقبل عليه من الخلق من له عنده قدر فيراه يولى عنه بمعنى من المعاني وكل مقبل سوى الله لا يطلع على ضمير من ولى عنه بضميره والله تعالى مقبل على المصلي بوجهه يرى إعراضه بضميره وبكل جارحة من جوارحه سوى صلاته التي أقبل عليه بوجهه من جلها فكيف يجوز لمؤمن عاقل أن يملها أو يلتفت أبو يتشاغل بغير الإقبال على رب العالمين[1] .

٨- أن من تطهر بهذه الإنذارات من أدناس الأوزار والمعاصي فنفع ذلك يعود إليه وفي هذا حث علي التزكي ودعوة إليه. { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... } [الإسراء : ١٥].

(١) تعظيم قدر الصلاة ١ / ١٧١ - ١٧٣

مثل المؤمن والكافر

قال تعالي:{ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ }

مناسبة النص الشريف لما قبله:

بعد أن أثبت الله عز وجل افتقار الخلق إليه وغناه . ودلل علي ذلك بقدرته علي إفنائهم , وخلق غيرهم, وذكر عدله في الحساب , وحال الناس يوم يحاسبون وين صفات من ينفع فيهم الإنذار , وهم من اجتمعت لهم الخشية , وإقامة الصلاة . وهذا يفيد أن غيرهم ليس كذلك . ومن ثم تأتي الآن آيات تقارن بين هؤلاء وأولئك. (١)

المفردات:

العَمى : ذهاب البصر، وقد عَمِيَ فهو أعمى، وقومٌ عُمْيٌ، وأعْماه الله. وتَعامى الرجلُ: أرى من نفسه ذلك. وعَمِيَ عليه الأمر، إذا التبس، ومنه قوله تعالى : {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء }[القصص :٦٦]. ورجلٌ عَمِي القلب، أي جاهلٌ، وامرأةٌ عَمِيَةٌ عن الصواب، وعَمِيَةُ القلب على فَعِلَة، وقوم عَمونَ. وفيهم عَمِيَّتُهُمْ، أي جهلهم. والنسبة إلى أعمى أعْمَوِيٌّ، وإلى عَمٍ عَمَوِيٌّ. والأعميان: السيل، والجمل الهائج الصؤول. وعَمى الموجُ بالفتح يَعْمي عَمْياً، إذا رمى القذى والزَبَدَ. وعَمَّيتُ معنى البيت تَعْمِيَةً. ومنه المُعَمَّى من الشعر. أبو زيد: تركناهم

(١) الأساس في التفسير٨/٤٥٨٦

عمًّى، إذا أشرفوا على الموت. والعماء ممدودٌ: السحاب. قال أبو زيد: هو شبه الدخان يركب رؤوس الجبال. والمَعامي من الأرَضين: الأغفال، التي ليس بها أثر عِمارَةٍ ولا مَعْلَمٌ. وهي الأعْماءُ أيضاً. قال رؤبة:

وبَلَدٍ عامِيَةٍ أعْماؤُهُ كأنَّ لون أرضه سَماؤُهُ

واعْتَمَيْتُ الشيء: اخترته، وهو قلب الاعتيام. وقولهم: ما أعْماهُ، إنَّما يراد به: ما أعمى قلبه؛ لأنَّ ذلك ينسب إليه الكثيرُ الضلال. ولا يقال في عَمى العيون ما أعماهُ، لأنَّ ما لايُتَزَيَّدُ لا يُتَعَجَّبُ منه. (١)

والبصير: البَصَرُ حاسة الرؤية و أبصرَهُ رآه و البَصِير ضد الضرير و بَصُرَ به أي علم وبابه ظرف وبصر أيضا فهو بَصيرٌ ومنه قوله تعالى { بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به}[طه : ٩٦] و التَّبصُّرُ التأمل والتعرف و التبصير التعريف والإيضاح و المُبْصِرةُ المضيئة ومنه قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً }[النمل : ١٣] قال الأخفش: معناه أنها تبصرهم أي: تجعلهم بُصَراءَ و المَبْصَرَةُ بوزن المتربة الحجة ...و البصيرةُ الحجة و الاستبصارُ في الشيء. وقوله تعالى :{بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ }[القيامة :١٤] قال الأخفش جعله هو البصيرةَ كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك.(٢)

الظلمات : والظُّلْمَة والظُّلَمَة، بضم اللام: ذهاب النور، وهي خلاف النور، وجمعُ الظُّلْمةِ ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلَماتٌ وظُلْمات؛ وأَظْلَم الليلُ: اسْوَد. وأَظْلَم القومُ: دخلوا في الظَّلام، وفي التنزيل العزيز:" فإذا هم مُظْلِمُونَ". وقوله عزَّ وجل: "يُخْرِجُهم من الظُّلُمات إلى النور" أَي يخرجهم من ظُلُمات الضَّلالة إلى نور الهُدَى لأَن أَمر الضَّلالة مُظْلِمٌ غير بَيِّنٍ. (٣)

النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان دنيوي، وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنيرات.(٤)

الظل: ضد الضح، وهو أعم من الفيء، فإنه يقال: ظل الليل، وظل الجنة، ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس: ظل، ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن

(١) الصحاح ٥ / ١٩٤١ مادة : " عمى "
(٢) مختار الصحاح ٧٣ مادة : "بصر"
(٣) ينظر : اللسان ١٢ / ٣٧٣ مادة : " ظلم "
(٤) ينظر : المفردات ٥٣٠ مادة :"نور"

العزة والمنعة، وعن الرفاهة، قال تعالى: ﴿إن المتقين في ظلال﴾ [المرسلات/٤١]، أي: في عزة ومناع، قال: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ [الرعد/٣٥]، ﴿هم وأزواجهم في ظلال﴾ [يس/٥٦]، يقال: ظللني الشجر، وأظلني. قال تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ [البقرة/٥٧]، وأظلني فلان: حرسني، وجعلني في ظله وعزه ومناعته.(١)

الحرور:

قال الزبيدي: الحَرُورُ، كصَبُورٍ: الريحُ الحارَّةُ باللَّيلِ، وقد تكونُ بالنَّهَار، والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحَارَّةُ بالنَّهَار. الحَرُورُ: حَرُّ الشَّمْسِ. وقيل: الحَرُورُ: اسْتِيقاد الحَرّ ولَفْحُه، وهو يكونُ بالنَّهَار واللَّيلِ، والسَّمُوم لا يكونُ إلا بالنَّهَار. في الكتاب العزيز: "ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ" قال الزَّجّاج: معناه لا يَسْتوِي أصحابُ الحَقّ الذين هم ظلٌّ من الحَقِّ، ولا أصحابُ الباطِلِ الذين هم في الحَرُورِ، أي الحَرّ الدّائم لَيلاً ونَهاراً. وقال ثعلب: الظِّلُّ هنا الجَنَّةُ، والحَرُورُ النّارُ. قال ابن سِيدَه: والذي عندي أَنّ الظل هو الظِّلُّ بعَيْنِه، والحَرُورَ الحَرُّ بعَيْنِه، وجمعُ الحَرُورِ حَرَائِر، قال مُضَرِّس:

بلَمَّاعةٍ قد صادَفَ الصَّيْفُ ماءَها وفاضَتْ عليها شَمْسُه وحَرائِرُهْ.(٢)

المعنى العام:

يقول تعالى:وما يستوي الأعمي عن دينه الذي ابتعث به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم – والذي قد أبصر فيه رشده، فاتبع الرسول الكريم وصدقه، وقبل عن الله ما ابتعثه به .وما تستوي ظلمات الكفر، ونور الإيمان ولا الجنة ولا النار.

وما يستوي أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله، ومعرفة تنزيل الله، وأموات القلوب لغلبة الكفر عليها، حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال. إن الله تعالي يهدي من يشاء إلى سماع حججه وقبولها والانقياد لها وما أنت بمسمع هؤلاء الكفار الذين صاروا كالأموات فلا تنفعهم المواعظ ولا تردعهم الحجج ، وما أنت يا رسولنا الكريم– إلا مخوف لهؤلاء المشركين بالله، بأس الله وعقابه ولم يرسلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه؛ فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به، فإن ذلك بيد الله لا بيدك، ولا بيد غيرك من الناس.

(١) ينظر : المفردات ٣٢٤ – ٣٢٥ مادة : "ظلل"

(٢) ينظر : تاج العروس ١٠ / ٥٨٦ – ٥٨٧ مادة : " حرر "

الشرح والبيان:

مثل المؤمن والكافر :

قوله تعالي:{وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ}...الخ.

قال المفسرون هذه أمثال للمؤمنين والكافرين، وللإيمان والكفر،فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة في حقيقتها وفائدتها ,كذلك لا يتساوى الكافر الذي عمي عن دين الله , والمؤمن الذي عرف طريق الرشاد فتبعه وانقاد له ولا تتساوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ,أو الباطل والحق ,ولا يتساوى الثواب والعقاب أو الجنة والنار.

فالمؤمن سميع بصير يمشي في نور الله علي صراط مستقيم في الدنيا والآخرة , حتى يستقر به الحال في الجنان ذات الظلال الوارفة والعيون المتدفقة والكافر أصم أعمى يمشي في ظلمات لا خروج له منها ,بل يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتي ينتهي الأمر إلى الحرور والسموم والحميم .

ولا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس , والكافرون أموت النفوس والحواس.

فهذه أمثال للمؤمن والإيمان والعاقبة , والكافر والكفر والمصير.

قال صاحب الكشاف–رحمه الله–: الأعمى والبصير مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عز وجل. والظلمات والنور والظل والحرور: مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب. والأحياء والأموات: مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر [1].

السبب في تكرار النفي :

وأما أدوات النفي فكررت للتأكيد قال صاحب الكشاف–رحمه الله–: فإن قلت: لا المقرونة بواو العطف ما هي قلت: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي[2].

وقال الرازي – رحمه الله–:

المسألة الثانية: كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات، ولم يكرر بين الأعمى والبصير، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل

(١) الكشاف ٣ / ٣٠٦

(٢) الكشاف ٣ / ٣٠٦

والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرا وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور المنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار، وأما الأحياء والأموات، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حيا محلا للحياة فيصير ميتا محلا للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء، ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية[1] .

لم جمع "الظلمات"وأفرد النور؟

وردت كلمة"الظلمات" في القرآن الكريم في ثلاث عشر موضعا وكلها بصيغة الجمع ولم تأت بصيغة الإفراد , وكلمة "النور" وردت في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا وكلها بصيغة الإفراد ولم تأت بصيغة الجمع والسر في ذلك :

أنه أفرد النور لأنه اسم جنس فإفراده في اللفظ بمنزلة جمعه وذلك كإفراد لفظ الأرض ولفظ الطفل في قوله تعالي : {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } [غافر : ٦٧] وكقول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا[2]

قال النسفي – رحمه الله – : وأفرد النور لارادة الجنس و لأن ظلمة كل شيء تختلف باختلاف ذلك الشئ نظيره ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموضع المظلم يخالف كل واحد منها صاحبه والنور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات[3].

وقيل: جمع الظلمات جرياً علي أساليب العرب في ذلك فإن الغالب في استعمالهم إيراد الظلمات بلفظ الجمع .

قال في التحرير والتنوير: وجيء في (الظلمات) بلفظ الجمع لأنه الغالب في الاستعمال فهم لا يذكرون الظلمة إلا بصيغة الجمع[3].

وقال البيضاوي: وجمع الظلمات؛ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة: الضلال، وبالنور: الهُدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٤٢

(٢) ينظر القرطبي ٤ / ٢٣٨٣

(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٩٧

على المَلَكَه. ومن زعم أن الظلمة عرَضٌ يُضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكَة كالعمي ليس صِرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. هـ[1].

السبب في تقديم الظلمات علي النور :

ولعل سبب تقديم الظلمات علي النور في الذكر لتقدمها في الخلق .

قال قتادة : خلق الله السموات قبل الأرض والظلمات قبل النور والجنة قبل النار[2].

وقال النسفي – رحمه الله – : وقدم الظلمات لقوله – عليه السلام – (خلق الله خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل)[3]

لم أخر الأشرف في المثلين الأولين وقدمهما في المثلين الآخرين ؟

قال بعض المفسرين سبب ذلك رعاية الفواصل

قال ابن عاشور: وقدم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس الفقرات الثلاث التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة بكلمة (الحرور). وفواصل القرآن من متممات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز[4].

ونازعه في ذلك الرازي–رحمه الله– فقال: قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور، وأخره في مثلين وهو البصر والنور، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخي أواخر الآي، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى، فنقول: الكفار قبل النبي – صلى الله عليه وسلم – كانوا في ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وبين الحق، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ٣٨٩

(٢) زاد المسير ٢/٣

(٣) النسفي ٢ / ٢ . والحديث في مسند الإمام أحمد ٢ / ١٧٦ ، ١٩٧ بلفظ : (ثم ألقي) بدلا من : (ثم رش

(٤) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٩٣

بالغضب لقوله في الإلهيات سبقت رحمتي غضبي، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال: {وما يستوي الأحياء} أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها. أ.هـ الرازي[1] .

الحكمة من الإفراد والجمع :

الحكمة من مقابلة الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور ومقابلة الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، والظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر ؟ أجاب الرازي – رحمه الله – عن ذلك فقال:

المسألة الرابعة: فإن قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت: نعم بفضل الله وهدايته، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور، فلأنه قابل الجنس بالجنس، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فردا من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حيا من الأحياء، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور.[2]

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٤٢ – ٤٣

(٢) تفسير الرازي ٢٤ / ٤٣ – ٤٤

وقوله تعالي : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ .

أي : إن الله تعالي يجعل من يشاء مدركا للحق مستجيباً له ,وأما هؤلاء الكفار المصرين علي كفرهم وباطلهم فليس باستطاعتك إسماعهم وهدايتهم فهم كالموتي ,في عدم الاستجابة لما تدعوهم إليه.

هل يسمع الموتى كلام الأحياء ؟

هذه الآية تدل بظاهرها علي أن الموتى لا يسمعون كلام الأحياء وهذا مذهب أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – وقد استدلت بقوله تعالي : {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى }[النمل : ٨٠] وردت بذلك حديث ابن عمر – رضى الله عنه .

قال البيهقي – رحمه الله–: أنبأ محمد بن آدم قال حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن بن عمر ثم إن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقف على قليب بدر فقال هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ وقال إنهم ليسمعون الآن ما أقول فذكر ذلك لعائشة فقالت وهم ابن عمر إنما قال : إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت قوله تعالي (إنك لا تسمع الموتى) حتى قرأت الآية .(١)

والصحيح أن الموتى يسمعون كلام الأحياء وأن ما رواه ابن عمر –رضي الله عنهما– صحيح, وأن السماع الذي تنفيه الآية غير السماع الذي يثبته الحديث. وعلي ذلك دلت الآثار والأحاديث.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله–: وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية (إنك لا تسمع الموتى) على توهيم عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما في روايته مخاطبة النبي – صلى الله عليه وسلم – القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون) وتأولته عائشة على أنه قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق وقال قتادة أحياهم الله له حتى

(١) ينظر : الحديث في : صحيح البخاري كتاب : المغازي ، باب : قتل أبي جهل ٤ / ١٤٦٢ وصحيح مسلم كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه٤ / ٢٢٠٣ ، والسنن الكبرى ٦٦٥/١حديث رقم٢٢٠٣

سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة .[1]

ثم أورد الحافظ ابن كثير الكثير من الآثار التي يؤيد بها سماع الموتى لكلام الأحياء ، تركتها دفعاً للإطالة .

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله–: وأما استدلالها – أي عائشة – بقوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) فقالوا: معناها لا تسمعهم سماعا ينفعهم أو لا تسمعهم إلا أن يشاء الله. وقال السهيلي : عائشة لم تحضر قول النبي – صلى الله عليه وسلم فغيرها ممن حضر أحفظ للفظ النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد قالوا له: يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا ؟ فقال :(ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)قال: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عالمين جاز أن يكونوا سامعين إما بآذان رءوسهم كما هو قول الجمهور أو بآذان الروح على رأي من يوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد وقال وأما الآية فإنها كقوله تعالى:{أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ}[الزخرف٤٠] أي: إن الله هو الذي يسمع ويهدي .انتهى [2]

ثم ذكر الحافظ في موضع آخر ما يفيد أن أم المؤمنين رجعت عن هذا الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة.[3]

وما أحسن ما قاله بعض الأجلة:

سماع موتى كلام الخلق قد وردت ... حقاً وجاءت به الأخبار في الكتب

وآية النفي معناها سماع هدي ... لا يسمعون ولا يصغون للأدب

ما يؤخذ من الآيات:

يؤخذ من الآيات فوق ما تقدم في ثنايا الشرح ما يلي:

١– لا مساواة بين الكافر والمؤمن ,ولا بين الباطل والحق, ولا بين الثواب والعقاب,ولا بين العقلاء والجهلاء, وأحياء القلوب وأموات القلوب.

٢– تفظيع حال الكافر في أنه شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٣٨ – ٤٣٩ . بتصرف واختصار .

(٢) فتح الباري ٣/٢٣٤

(٣) ينظر : فتح الباري ٧/٣٠٤

أمر الأعمى بين إدراك وعدمه وأن الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإن عقله تمحض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة كقولـه تعـالى : { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }[الروم : ٧] فحاله المقسم بين انتفاع بالعقل وعدمه يشبه حال الأعمى في إدراكه أشياء وعدم إدراكه.

٣- الثناء علي الإيمان وبيان أن حال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر، وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريث وإتقان.

٤ - أن الكفار الذين حرموا من نور الهداية لا ينتفعون بما يسمعون مـن مـواعظ فهـم كالأموات في عدم الاستجابة.

٥- استعير (من في القبور) للذين لم تنفع فيهم النذر، وعبر عن الأموات ب(من في القبور) لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات لأن بينهم وبين المنادى حاجز الأرض. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى .

٦- في قوله تعالي (إن أنت إلا نذير) بيان لمهمة الرسول بأنه نذير ينـذر هـؤلاء الـضالين ويخوفهم عذاب الله, وليس من شأنه أن يفتح آذانهم التي أصمها الله عن سماع كلماته .

النذارة ثم تخلى منها أمة من الأمم

قال تعالي:{إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ } .

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما قال الله تعالي: {إن أنت إلا نذير } بين أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله. ثم قال تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير } تقريرا لأمرين أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملا لتأذي القوم وثانيهما: إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ما ادعاه الرسل ويقرره.(١)

اللغة ومعاني المفردات:

بالحق: الحَقُّ نقيض الباطل وجمعه حُقوقٌ وحِقاقٌ .(٢)

أي : محقاً، أو: محقين: أو: إرسالاً مصحوباً بالحق، فهو حال من الفاعل، أو المفعول، أو صفة لمصدر محذوف .قال البيضاوي : ويجوز أن يكون صلة لقوله(بشيراً ونذيراً) أي : بشيراً بالوعد الحق ونذيرًا بالوعيد الحق.(٣)

---

(١) ينظر : تفسير الرازي ٢٤ / ٤٥

(٢) لسان العرب ١٠ /٤٩ مادة : " حقق "

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢٣

بشيراً ونذيراً : البشارة الإخبار بخبر سار يظهر أثره علي البشرة .

قال الراغب : وأبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر.أ.هـ وفي مختار الصحاح: و البِشارَةُ المطلقة لا تكون إلا بالخير وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة به كقوله تعالى { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[آل عمران :٢١].

والإِنْذَارُ الإبلاغ ولا يكون إلا في التخويف والاسم النُّذُرُ بضمتين.(١)

وإن من أمة : إن نافية و(أمة) مجرور لفظاً مرفوع محلا مبتدأ.: والأمة- كما قال صاحب الكشاف- هم المصدقون بالرسول – صلى الله عليه وسلم – دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا: أهل العصر.(٢)

خلا : أي مضى وأُرْسِلَ.. وخَلا كلمةٌ يستثنى بها، وتَنصب ما بعدها وتُجَرّ. تقول: جاءُوني خَلا زيداً، تنصب بها إذا جعلتها فعلاً وتضمر فيه الفاعل، كأنّكَ قلت: خَلا مَن جاءني من زيد. وإذا قلت خَلا زيدٍ فجررتَ فهي عند بعض النحويين حرفُ جرٍّ بمنزلة حاشا، وعند بعضهم مصدر مضاف. وأمَّا ما خَلا فلا يكون فيما بعدها إلاّ النصب، تقول: جاءُوني ما خَلا زيداً؛ لأنَّ خَلا لا تكون بعد ما إلاّ صلة لها، وهي معها مصدر، كأنّك قلت: جاءُوني خُلُوَّ زيد، أي خُلُوَّهُمْ من زيد، تريد خالِينَ من زيد. وقولهم: افْعَلْ كذا وخَلاكَ ذمٌّ، أي أعذَرْتَ وسقط عنك الذَمُّ. والخَليُّ: الخالي من الهمِّ، وهو خلاف الشجيّ. وقال الأصمعيّ: الخَالي من الرجال: الذي لا زوجةَ له. قال: والقرون الخالِيَةُ، هم المواضي.(٣)

بالبينات والزبر والكتاب المنير : قوله تعالى: { بالبينات }: الباء للمصاحبة، أو للتعدية؛ يعني: جاءتهم مصحوبةً بالبينات؛ أو أن البينات هي التي جيء بها، فتكون للتعدية؛ و "البينات" صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: بالآيات البينات . أي بالعلامات الدالة على رسالتهم.

قال القرطبي – رحمه الله- : جاءتهم رسلهم بالبينات أي بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات وبالزبر أي الكتب المكتوبة وبالكتاب المنير أي الواضح وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين وقيل يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد وهو ما أنزل على الأنبياء.(٤)

---

(١) ينظر مفردات القرآن ٤٥ مادة : "بشر" ومختار الصحاح مادتي:"بشر" ص: ٧٣ و"نذر" ص : ٦٨٨ .

(٢) الكشاف ٣ / ٣٠٦

(٣) ينظر : الصحاح ٥ / ١٨٦٠ مادة "خلا"

(٤) القرطبي ٣٤١/١٤

(والكتاب المنير) يعني به : الكتب النيرة بالبراهين والحجج .[1]

وقال النسفي : (وبالزبر) وبالصحف (وبالكتاب المنير) أي : التوراة والإنجيل والزبور لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب .[2]

قال الراغب : وزبرت الكتاب: كتبته كتابة غليظة، وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له : زبور، وخص الزبور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام .[3]

وفي اللسان : الزبر: الكتاب، والجمع زبور، مثل قدر وقدور وزبر مصدر سمي به ككتاب، ثم جمع على زبر، كما جمع كتاب على كتب، وقيل: بل الزبور كل كتاب يصعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية ,وقال بعضهم: الزبور: اسم للكتاب المقصور على الحكم العقلية دون الأحكام الشرعية، والكتاب: لما يتضمن الأحكام والحكم، ويدل على ذلك أن زبور داود عليه السلام لا يتضمن شيئا من الأحكام.[4]

ثم أخذت الذين كفروا : أي: أهلكتهم واستأصلتهم .

قال ابن منظور – رحمه الله–: الأَخْذ: خلاف العَطَاء، وهو أَيضاً التَّنَاولُ، ، وقال بعضُهم: الأَخْذُ: حَوْزُ الشيْءِ. وقال آخرون: هو في الأَصْلِ بمعنَى القَهْرِ والغَلَبة، واشتَهَر في الإِهلاك والاستئصال. أَخذَه يَأْخُذُه أَخْذاً: تَناوَلَه. والإِخْذُ، بالكسر: الاسْمُ، وإِذا أَمرْتَ قُلتَ: خُذْ، وأَصْلُه اؤْخُذْ، إِلاَّ أَنهم استَثْقَلُوا الهمزتين فحَذَفُوهما تخفيفاً,الأَخْذُ: السِّيرَةُ والهُدْيُ، يقال: ذَهَبَ بَنو فُلانٍ ومَنْ أَخَذَ أَخْذَهُمْ، أَي سِيرَتَهم، وسيأْتي قريباً، من المَجازِ الأَخْذُ: الإِيقاعُ بالشَّخْصِ، والأَصْلُ بمعنَى القَهْرِ والغَلَبَة، كما تقدَّمَ. من المَجاز أَيضاً: الأَخْذُ: العُقُوبَةُ، وقيل: الأَخْذُ استئصَالٌ، والمُؤَاخَذَةُ: عُقُوبَةٌ بلا استئصالٍ، وأَجْمَعُ من ذلك عِبَارَةُ المُصنِّف في البَصائر: قد وَرَد الأَخْذُ في القُرْآنِ على خَمْسَة أَوْجُه:

الأَوّل : بمعنَى القَبُول. "وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِي"[آل عمران ٨١] أَي قَبِلْتم . الثاني : بمعنى الحَبْس "فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَه" [يوسف ٧٨]. أَي احْبِس. الثالث : بمعنى العَذاب والعُقُوبة "وكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ"[هود ١٠٢]

---

(١) زاد المسير ٥١٧/١

(٢) تفسير النسفي ٣٤٢/٣

(٣) مفردات القرآن ٢١٥

(٤) لسان العرب ٤ / ٣١٥

أي عَذَابه. الرابع : بمعنى القَتْل "وهَمّتْ كُلُّ أُمَّة بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوه" [غافر ٥] أي : يَقْتلوه. الخامس : بمعنى الأَسْرِ " فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وخُذُوهُمْ " [التوبة ٥] والأَصْل فيه حَوْزُ الشيْءِ وتَحْصيلُه، وذلك تَارَةً يكون بالتَّنَاوُلِ. كقولك: أَخذْنَا المَالَ، وتَارَةً بالقَهْرِ، نحو قوله تعالى "لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ" [البقرة : ٢٥٥].(١)

فكيف كان نكير: نكرت على فلان وأنكرت: إذا فعلت به فعلا يردعه. قال تعالى: ﴿فكيف كان نكير﴾ أي: إنكاري. والنكر: الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف، وقد نكر نكارة وأنكر فهو نكر ومنكر: إذا صار داهيا.(٢)

وقال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر والمنكر واحد المناكير.(٣)

المعني العام :

إنا أرسلناك يا رسولنا الكريم بالحق, وهو الإيمان بالله وشرائع الدين, مبشرًا بالجنة مَن صدَّقك وعمل بهديك, ومحذرًا مَن كذَّبك وعصاك النار. وما من أمة من الأمم إلا جاءها نذير يحذرها عاقبة كفرها وضلالها. وإن يكذبك هؤلاء المشركون فقد كذَّب الذين من قبلهم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الواضحات الدالة على نبوتهم, وجاءوهم بالكتب المجموع فيها كثير من الأحكام, وبالكتاب المنير الموضح لطريق الخير والشر ثم أخَذْت الذين كفروا بأنواع العذاب, فانظر كيف كان إنكاري لعملهم وحلول عقوبتي بهم؟

الشرح والبيان:

لم تخل أمة من الأمم من نبي أو عالم ينذرها : قولـــه تعـــالي: { إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ } الخ .

مواساة وعزاء كريم له من ربه , فيما يلقي من قومه من تكذيب فهـــو – عليـــه الصلاة والسلام – ليس أول رسول يلقي من قومه ما لقي من اتهام وتكذيب, وإنما ذلك شأن الرسل قبله مع أقوامهم, جاءوهم بمعجزات مادية محسوسة ,وجـــاءوهم بآيـــات الله وكلماته, وجاءوهم بكتاب منير من عند الله, يحمل دستوراً متكاملاً للحياة الدنيا والآخرة ,جاءوهم بكل هذا فما وجدوا منهم إلا البهت والتكذيب ,وإلا التهديد والأذى.

(١) ينظر : اللسان ٣ / ٤٧٠ مادة : " أخذ " ، وتاج العروس ٩ / ٣٦٣

(٢) مفردات القرآن ٥٢٧ مادة : " نكر "

(٣) القرطبي ٧٣/١٢

قال صاحب الكشاف : .فإن قلت: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد – عليهما الصلاة والسلام – ولم يخل فيها نذير؟ قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً – صلى الله عليه وسلم.[1]

وقال ابن عطية: معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمَّت جميع الخلق، وإن كان فيهم مَن لم تباشره النِّذارة، فهو ممن بَلَغَته الدعوة، لأن آدم بُعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد – صلى الله عليه وسلم – والآية تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ، ومعناه: نذيرٌ مباشر، وما ذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم، فإنما ذلك بالفرض، لا أنه توجد أُمةً لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله. هـ.[2]

وقال الألوسي – رحمه الله – (نذير) من نبي أو عالم .[3]

والحكمة في الإنذار أن لا يبقى الضلال رائجا وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق سواء عملوا بها أم لم يعملوا فإنها لا تخلوا من أثر صالح فيهم .

لم خص النذارة بالذكر؟

ونص هنا علي النذارة دون البشارة ، لأن المقام هنا مقام زجر وتخويف فكان الناسب له النذارة أو لعله من باب الاكتفاء بأحد الضدين عن الآخر كما قال تعالي {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ } [النحل : ٨١]لاسيما وقد مر ذكر البشارة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما قلت: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة دل ذكرها على ذكرها لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.[4]

وقال الألوسي – رحمه الله – : والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قريبة البشارة لا سيما وقد أقترنا آنفا مع أن الإنذار أنسب بالمقام ٥وقيل خص النذير بالذكر لأن البشارة لا تكون إلا بالسمع فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام فالبشير نبي أو ناقل عنه بخلاف النذارة فإنها سمعا وعقلا فلذا وجه النذير في كل أمة.[5]

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٠٦

(٢) المحرر الوجيز ٤ / ٤٣٦

(٣) تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٧٨

(٤) الكشاف ٣ / ٣٠٦

(٥) روح المعاني ٢٢ / ٢٧٨

تكذيب الأنبياء من ديدن الأمم وشأنهم :

وقوله تعالى : { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } تسلية أيضا للنبي – صلي الله عليه وسلم– وبيان أن التكذيب من شأن الأمم مع إخوانه من الرسل السابقين , مع أن هؤلاء الرسل جاءوا إلي أقوامهم بالحجج الواضحة وبالبراهين الساطعة التي تدل علي صدقهم, فهم قد (جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ} والزبر: اسم لكل ما يكتب وعبارة الخطيب : والزبر الأمور المكتوبة .[1]

ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين أتوا بآيات، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط، ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها، أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى،فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

فزبور إبراهيم صحفه المذكورة في قوله تعالى : { صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:١٩]

وزبور موسى كلامه في المواعظ الذي ليس فيه تبليغ عن الله مثل دعائه الذي دعا به في قادش المذكور في الإصحاح التاسع من سفر التثنية، ووصيته في عبر الأردن التي في الإصحاح السابع والعشرين من السفر المذكور، ومثل نشيده الوعظي الذي نطق به وأمر بني إسرائيل بحفظه والترنم به في الإصحاح الثاني والثلاثين منه، ومثل الدعاء الذي بارك به أسباط إسرائيل في عربات مؤاب في آخر حياته في الإصحاح الثالث والثلاثين منه.

وزبور عيسى أقواله المأثورة في الأناجيل مما لم يكن منسوبا إلى الوحي .[2]

وجواب (إن يكذبوك) محذوف دلت عليه علته وهي قوله (فقد كذبت رسل من قبلك). والتقدير: إن يكذبوك فلا تحزن، ولا تحسبهم مفلتين من العقاب على ذلك إذ قد كذب الأقوام الذين جاءتهم رسل من قبل هؤلاء وقد عاقبناهم على تكذيبهم.

فالفاء في قوله (فقد كذب الذين من قبلهم) فاء فصيحة أو تفريع على المحذوف.

---

(١) حاشية الجمل ٤٩٣/٣

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٩٨ – ٢٩٩

وجملة (جاءتهم) صلة (الذين) و (من قبلهم) في موضع الحال من اسم الموصول مقدم عليه أو متعلق ب(جاءتهم) [1] .

عقاب المكذبين:

وقوله تعالى :{ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} بيان لما أصابهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم وإصرارهم علي كفرهم .

والنكير اسم مصدر بمعنى الإنكار أي كيف كان إنكاري عليهم منكرهم الذي هو كفرهم بي وتكذيبهم رسلي وهو ذلك العذاب المستأصل.[2]

قال العلامة أبو السعود : ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ (فكيف كان نكير) أي : إنكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .[3]

والاستفهام هنا للتقرير والمعنى :كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالإهلاك والمعنى أني أنكرت عليهم أبلغ إنكار.[4]

ما يؤخذ من الآيات :

١- بيان أنه ما من أمة من لأمم إلا وأرسل إليها من يخوفها عذاب الله وعقابه.

٢- تسلية النبي – صلي الله عليه وسلم – بذكر أحوال لأمم السالفة مع أنبيائهم , وبيان أن التكذيب من شان الأمم وديدنها .

٣- تسلية الدعاة إلى الله تعالي وبيان أن ما يلاقونهم من تمرد وتأبي علي الإصلاح والمعالجة أمر قد لاقاه السادة من الرسل – صلوات الله عليهم – فعليهم أن لا يحزنهم ذلك ولا يثبطهم عن الدعوة إلي الخير والصلاح فعليهم بمواصلة الدعوة إلي الله ثم { من اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخري ... (١٥) } الإسراء .

٤- بيان عقوبة من كذب الرسل وكيف قد حل بهم الدمار والبوار وتلك سنة الله مع أعداء الرسل . { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) } الأحزاب .

---

(١) المرجع السابق ٢٢ / ٢٩٩

(١) أضواء البيان ٥ / ٢٦٩

(٢) أبو السعود ١٥٠/٧

(٣) زاد المسير٤٣٨/٥

الاختلاف في الكون من دلائل قدرة الله والخشية من صفات العلماء

قال تعالي :{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ }

صلة النص الشريف لما قبله :

لما ذكر الله تعالي في الآيات السابقة الكثير من الدلائل علي وحدانيته وقدرته ساق هنا استدلالا آخر على وحدانية الله وقدرته.

المفردات:

قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) هذه الرؤية رؤية القلب والعلم أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل فأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي الرؤية.(١)

قال أبو حيان : والاستفهام للتقرير, والرؤية قلبية لأن إنزال المطر وإن كان مدركا بالبصر لكن إنزال الله تعالى إياه ليس كذلك والخطاب عام, أي : ألم تعلم أن الله تعالى أنزل من جهة العلو ماء.(٢)

(١) القرطبي ٣٤٢/١٤
(٢) الألوسي ١٢ / ٢٨٠

فأخرجنا به ثمرات: الثَّمَرةُ واحدة الثَّمَرِ و الثَّمراتِ وجمع الثمر ثمارٌ كجبل وجبال وجمع الثمار ثُمُرٌ مثل كتاب وكتب وجمع الثُمُر أثْمَارٌ كعنق وأعناق و الثُمُرُ أيضا المال المُثَمَّرُ يخفف ويثقل وقرأ أبو عمرو {وكان له ثُمُرٌ}[الكهف : ٢٤] وفسره بأنواع الأموال و أَثْمَرَ الشجر طلع ثمره وشجر ثَامِرٌ إذا أدرك ثمره وشجرة ثَمْراءُ ذات ثمر و أثْمَرَ الرجل كثر ماله و ثَمَّرَ الله ماله تثميرا كثره و ثَمَرُ السياط عقد أطرافها .(١)

مختلفاً ألوانها: أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيآتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوه .(٢)

جدد: قال ابن قتيبة : الجدد الخطوط والطرائق تكون في الجبال فبعضها بيض وبعضها حمر وبعضها سود .(٣)

قال في الصحاح : والجُدَّةُ: الخَطَّةُ التي في ظهر الحمار تخالف لونه. والجُدَّةُ: الطريقة؛ والجمع جُدَدٌ. قال تعالى: "ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ"، أي طرائق تخالف لون الجبل. ومنه قولهم: ركب فلان جُدَّةً من الأمر، إذا رأى فيه رأياً. وكِساءٌ مُجَدَّدٌ: فيه خطوط مختلفة. والجُدَّادُ: الخُلقانُ من الثياب، وهو بالفارسية .(٤)

وغرابيب سود : الغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد يقال أسود غربيب . قال الفراء وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره وسود غرابيب لأنه يقال أسود غربيب وقلما يقال غربيب أسود وقال الزجاج المعنى ومن الجبال غرابيب سود وهي ذوات الصخر الأسود وقال ابن دريد الغربيب الأسود أحسب أن اشتقاقه من الغراب وللمفسرين في المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال أحدها: الطرائق السود. قاله ابن عباس .والثاني :الأودية السود قاله قتادة. والثالث: الجبال السود قاله السدي .(٥)

وقال أبو السعود : غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره ما بعده فإن الغربيب تأكيد للأسود كالفاقع للأصفر والقاني للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد.(٦)

---

(١) مختار الصحاح ص : ٩٠ مادة : " ثمر"

(٢) تفسير النسفي ٣٤٢/٣

(٣) زاد المسير ٤٥٨/٦

(٤) الصحاح ٢ / ٣٩٤ مادة "جدد"

(٥) زاد المسير ٤٥٨/٦

(٦) تفسير أبو السعود ١٥١/٧

قال الجمل : وإنما قدم – غرابيب – هنا للمبالغة. [1]

قال في اللسان : وإذا قلت: غَرابيبُ سُودٌ، تَجْعَلُ السُّودَ بَدَلاً من غَرابيـــبِ لأَن توكيد الأَلوان لا يتقدَّم .[2]

والدواب : جمع دابة والدابة كل ما دب ومشي علي الأرض من عاقل وغيره.

قال الزبيدي – ما ملخصه : دَبَّ النَّمْلُ وغَيْرُه من الحَيَوَانِ على الأَرْضِ يَدِبُّ دَبًّا ودَبِيباً أَي مَشَى على هِينَتِه ولم يُسْرِع. وكل ماشٍ على الأرض: دَابَّةٌ ودَبِيبٌ.

والدَّابَّة اسمُ ما دَبَّ منَ الحَيَوَانِ مُمَيِّزِه وغيرِ مُمَيِّزِه، وفي التَّنْزِيلِ العزيز: "واللهُ خَلَق كُلَّ دَابَّةٍ منْ مَاءٍ فمنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِه"[النور ٤٥] ولَمَّا كَانَ لِمَا يَعْقِلُ ولِمَا لاَ يَعْقِلُ قِيلَ "فَمِنْهُمْ" ولو كَانَ لِمَا لا يَعْقِلُ لقِيلَ فَمِنْهَا أَو فَمِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: مَنْ يَمْشِي على بَطنِه، وإن كان أَصْلُهَا لِمَا لا يعقل لأَنه لَمَّا خَلَطَ الجَمَاعَةَ فقال منْهُم جُعِلَت العِبَارَةُ بِمَنْ، والمَعْنَى كُـــلُّ نَفْسٍ دَابَّة، والدَّابَّةُ: التي تُرْكَبُ وقَدْ غَلَبَ هذا الاسمُ عَلَى ما يُرْكَبُ مِنَ الدَّوَابِّ، وهو يَقَعُ علَى المُذَكَّرِ والمؤنث، وتَصْغِيرُ الدَّابَّة دُوَيْبَّةٌ .[3]

والأنعام: جمع نَّعَم والنَّعَم: المال الراعية؛ قال ابن سيده: النَّعَم الإبل والشاء، يذكر ويؤنث، والنَّعْم لغة فيه. والجمع أَنعامٌ، وأَناعيمُ جمع الجمع؛ وقال ابن الأَعرابي: النعم الإبل خاصة، والأَنعام الإبل والبقر والغنم. وقوله تعالى: (فجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم يحكم به ذَوَا عَدْلٍ منكم)[المائدة٩٥] قال: ينظر إلى الذي قُتل ما هو فتؤخذ قيمته دارهم فيُتصدق بها؛ قـــال الأَزهري: دخل في النعم ههنا الإبلُ والبقرُ والغنم. وقوله عز وجل: (والذين كفروا يتمتعون ويأْكلون كما تأْكل الأَنْعام) [محمد١٢] ؛ قال ثعلب: لا يذكرون الله تعالى على طعـــامهم ولا يُسمُّون كما أَن الأَنْعام لا تفعل ذلك، وأما قول الله عز وجَل: (وإنَّ لكـــم في الأَنعـــام لَعِبْرةً نُسْقِيكم مما في بطونه)[النحل ٦٦] فإن الفراء قال: الأَنْعام ههنا بمعنى النَّعَم، والنَّعَم تذكر وتؤنث، ولذلك قال الله عز وجل: مما في بطونه، وقال في موضع آخر: مما في بطونها، وقال الفراء: النَّعَم ذكر لا يؤَنث، ويجمع على نُعْمانٍ مثل حَمَل وحُمْـــلانٍ، والعـــرب إذا أَفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلا الإبل، فإذا قالوا الأنعام أَرادوا بها الإبل والبقر والغنم، قال الله

(١) حاشية الجمل ٤٩٤/٣

(٢) لسان العرب ١ / ٦٣٧ مادة : " غرب "

(٣) ينظر: تاج العروس ٢ / ٣٩٣ مادة : " دبب "

عز وجل: (ومن الأَنْعام حَمولةً وفَرْشاً كلوا مما رزقكم الله)[الأنعام١٤٢] ثم قال: (ثمانية أَزواج)[الأنعام١٤٣] أي : خلق منها ثمانية أَزواج، وكان الكسائي يقول في قوله تعالى: (نسقيكم مما في بطونه) [النحل٦٦] قال: أَراد في بطون ما ذكرنا؛ ومثله قوله:

مِثْل الفراخ نُتِفَتْ حَواصِلُهْ

أي حواصل ما ذكرنا .

ومن العرب من يقول للإبل إذا ذُكِرت الأَنعام والأَناعيم.(١)

قال القرطبي: والأنعام الإبل والبقر والغنم سميت بذلك للين مشيها.(٢)

وقال الراغب: ولا تسمي الأنعام إلا إذا كانت فيها الإبل .(٣)

المعني العام :

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء, فسقينا به أشجارًا في الأرض, فأخرجنا من تلك الأشجار ثمرات مختلفًا ألوانها, منها الأحمر ومنها الأسود والأصفر وغير ذلك؟ وخَلَقْنا من الجبال طرائق بيضًا وحمرًا مختلفًا ألوانها, وخلقنا من الجبال جبالا شديدة السواد. وخلقنا من الناس والدواب والإبل والبقر والغنم ما هو مختلف ألوانه كذلك, فمن ذلك الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك كاختلاف ألوان الثمار والجبال. إنما يخشى الله ويتقي عقابه بطاعته واجتناب معصيته العلماءُ به سبحانه, وبصفاته, وبشرعه, وقدرته على كل شيء, ومنها اختلاف هذه المخلوقات مع اتحاد سببها, ويتدبرون ما فيها من عظات وعبر. إن الله عزيز قويٌّ لا يغالَب, غفور يثيب أهل الطاعة, ويعفو عنهم.

الشرح والبيان:

قوله تعالي :{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا } هذا من الدلائل علي عظيم قدرته تعالي الباهرة بذكر بعض مخلوقاته البديعة.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله : يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي يترله من السماء يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو المشاهد

(١) لسان العرب ١٢ / ٥٧٩ مادة : " نعم "

(٢) القرطبي ٤ / ٣١ عند تفسير الآية ١ من سورة المائدة .

(٣) مفردات القرآن ٥٢٠ مادة : " نعم " .

من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها كما قال تعالى في الآية الأخرى { وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الرعد٤.(١)

قال ابن عطية – رحمه الله – : الرؤية في قوله " ألم تر " رؤية القلب وكل توقيف في القرآن على رؤية فهي رؤية القلب لأن الحجة بها تقوم لكن رؤية القلب لا تتركب البتة إلا على حاسة فأحيانا تكون الحاسة البصر وقد تكون غيره وهذا يعرف بحسب الشيء المتكلم فيه.(٢)

وقوله تعالي : (فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) أي بالماء . والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع وانتصاب مختلفا ألوانها على الوصف لثمرات .(٣)

وذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال: { ألم تر } وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال: {والله الذي أرسل الرياح } وفيه وجهان:

الأول: أن إنزال الماء أقرب إلى النفع , والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جدا كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جدا، فقال له غيره أين هو؟ فإنه يقول له : في الموضع الفلاني، فإن لم يره، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور، وإذا كان بارزا يقول له أما تراه هذا هو ظاهرا.

والثاني: وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات، فقال له أنت صرت بصيرا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر، ألا ترى هذه الآية.(١)

وعلي كل فإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات المتنوعة من الأرض علي هذا النحو البديع والصنع الدقيق والجمال الباهر من أعظم الأدلة علي وجود الصانع وتفرده بالوحدانية والقدرة المطلقة ، ولله در القائل :

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

(١) تفسير ابن كثير٣/٥٥٤
(٢) المحرر الوجيز ٤ / ٤٣٦
(٣) فتح القدير ٤/٣٤٨
(٤) الرازي ١٣/٤٦

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد [1]

من آيات الله في الجبال:

وقوله تعالي : { وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ }

أي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضا قال ابن عباس – رضي الله عنهما – الجدد الطرائق وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي ومنها غرابيب سود قال عكرمة الغرابيب الجبال الطوال السود وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادة وقال ابن جرير والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا أسود غربيب.[2]

من الأدلة علي قدرة الله اختلاف الألوان :

وقوله تعالي : { وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ } ...

أي : وخلق الله تعالي خلقاً آخر من الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان في النوع الواحد والجنس الواحد وهذا من أعظم الأدلة علي قدرة الله وبديع صنعه .

وقوله تعالى : (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أي : كذلك الحيوانات من الناس والدواب وهو كل مادب على القوائم والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضا فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }[الروم:٢٢] وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين .[3]

(١) الأبيات من : تفسير ابن كثير ج١/ ص٦٠

(٢) ينظر ابن جرير٢٢ / ٨٦ – ٨٧ , وابن كثير ٣ / ٥٥٣

(٣) ابن كثير ٣ / ٥٥٤

وذكر (الأنعام) بعد (الدواب) من ذكر الخاص بعد العام لإفادة العموم .

قال البقاعي – رحمه الله – : ولما كانت الدواب في الأصل لما دب علي الأرض ثم غلب إطلاقه علي ما يركب قال : (والأنعام) ليعم الكل صريحاً .[1]

وقوله تعالي : (مختلف) صفة لموصوف محذوف .وقوله: (كذلك) صفة لمصدر محذوف معمول لمختلف .

أي : ليس اختلاف الألوان مقصوراً علي قطع الجبال وطرقها وأجزائها , بل أيضاً من الناس والدواب والأنعام , أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافاً , كذلك الاختلاف الكائن في قطع الجبال وفي أنواع الثمار.

قال الألوسي – رحمه الله – : والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء.[2]

وعليه فقوله (كذلك) متعلق بما قبله .

ويري الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – أن (كذلك) توطئة لما بعده والمعني كما اختلفت هذه الأشياء تختلف الناس في خشية الله كذلك.

فقال: الأظهر عندي أن (كذلك) ابتداء كلام يتنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل. والمعنى: كذلك أمر الاختلاف في ظواهر الأشياء المشاهد في اختلاف ألوانها وهو توطئة لما يرد بعده من تفصيل الاستنتاج بقوله (إنما يخشى الله من عباده) أي : إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم، فجملة (إنما يخشى الله من عباده العلماء) مستأنفة عن جملة (كذلك). وإذا علم ذلك دل بالالتزام على أن غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله فدل على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون. وهذا مثل قوله (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) .

وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلصا للتنويه بأهل العلم والإيمان لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله (إن الذين يتلون كتاب الله) الآية ...

فقوله (كذلك) خبر لمبتدأ محذوف دل عليه المقام. والتقدير: كذلك الاختلاف، أو كذلك الأمر على نحو قوله تعالى في سورة الكهف { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } الكهف٩١ وهو من فصل الخطاب كما علمت هنالك ولذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما بعده.

---

(١) نظم الدرر ٤٧/١٦

(٢) ينظر الألوسي ١٢/ ٢٨٣

وأما جعل (كذلك) من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه.[1]

وبهذه الآيات بين الله – عز وجل – أن من دلائل قدرته ذلك الجمال الذي يتجلي في الكون ونشاهده في اختلاف الألوان في الجماد والنبات والإنسان والحيوان , ذلك الجمال الذي يدل علي عظيم القدرة ودقة الصنعة { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون:١٤].

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة علي مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها . في الثمرات وفي الجبال وفي الناس وفي الدواب والأنعام لفتة تجمع في كلمات قلائل , بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً, وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ,وإخراج الثمرات المختلفات الألوان. ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات , فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها " فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها " وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ,ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية. ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها , بل إن فيها أحيانا ما يكون علي شكل بعض الثما ر وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار كبيرها وصغيرها !

{ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود }

والجدد الطرائق والشعاب .وهنا لفتة في النص صادقة , فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه , وهناك جدد حالكة شديدة السواد .

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد , بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار , تهز القلوب هزاً , وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي , التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة , علي بعد ما بين طبيعة

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٠٤

الصخرة وطبيعة لثمرة , وعلي بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان لكن النظرة الجمالية المجردة تري الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك , يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بنى جنسه . بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل حيوان . والأنعام هي الإبل والبقر والأغنام والماعز , خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء .[1]

الخشية من صفات العلماء :

بعد أن تكلم الله تعالي عن دلائل قدرته في هذا الكون وبرهن علي أنه تعالي فاعل مختار يفعل ما يشاء وأن المنتفع بهذا لإنذار من يخشي ربه بالغيب ذكر هنا الذين يخشونه فقال :(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.[2]

والقصر المستفاد من (إنما) قصر إضافي، أي لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل الجاهلية، أي عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشيت الله. ثم أن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتا كثيرا. وتقديم مفعول (يخشى) على فاعله لأن المحصور فيهم خشية الله هم العلماء فوجب تأخيره على سنة تأخير المحصور فيه.

والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم ويرعاها في مواقعها ويعلم عواقبها من خير أو شر، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه

(١) الظلال ٥ / ٢٩٤٢

(٢) ابن كثير ٣ / ٥٥٤

الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقنا أنه مورط فيما لا تحمد عقباه، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء. قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة .[1]

ولابن عجيبة – طيب الله ثراه – كلام طيب عند تفسير هذه الآية أسوقه إتماما للفائدة . قال – رحمه الله – : {... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }

يقول الحق جلّ جلاله: { إنما يخشى اللهَ } أي: يخافه { من عباده العلماءُ } لأنهم هم الذين يتفكرون في عجائب مصنوعاته، ودلائل قدرته، فيعرفون عظمته وكبرياءه، وجلاله وجماله، ويتفكرون فيما أعد الله لَمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب، وفيما أعد لَمن خافه وأطاعه من الثواب، وحسن المآب، فيزدادون خشية، ورهبة، ومحبة، ورغبة في طاعته، وموجب رضوانه، دون مَن عداهم من الجهّال.

وقال الربيع بن أنس: مَن لم يَخشَ الله فليس بعالم، وقال ابن عباس في تفسير الآية: كفى بالزهد علماً، وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وبالاعتذار جهلاً. وفي الحِكَم: " خيرُ علم ما كانت الخشية معه ". وقال في التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب والسُنَّة؛ فإنما المراد به العلم النافع، الذي تُقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال تعالى: { إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ } بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.

وقال الشيخ ابن عباد – رضي الله عنه – : واعلم أن العلم النافع، المتفق عليه فيما سلف وخلف، إنما هو العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلُّق بأخلاق الإيمان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدي الله تعالى، إلى غير ذلك من الصفات العلية، والمناحي السنية. هـ.

وقال في لطائف المنن: شاهد العلم، الذي هو مطلب الله تعالى: الخشية، وشاهد الخشية: موافقة الأمر، فأما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتملُّق لأربابها، وصرف الهمة

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٠٤ – ٣٠٥

لاكتسابها، والجمع، والادخار،والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد مَنْ هذا نعته مِنْ أن يكون من ورثة الأنبياء! . أ. هـ[1]

والقراءة المتوترة برفع " العلماء " ونصب لفظ الجلالة . وهناك رواية أخري بنصب " العلماء " ورفع لفظ الجلالة .

قال الألوسي –رحمه الله – : وروى عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة – رضي الله تعالى عنهما – أنهما قرءا " إنما يخشى الله " بالرفع " العلماء" بالنصب وطعن صاحب النشر في هذه القراءة وقال أبو حيان لعلها لا تصح عنهما وقد رأينا كتبا في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة في كتابه الكامل وخرجت على أن الخشية مجاز عن التعظيم بعلاقة اللزوم فإن المعظم يكون مهيبا وقيل الخشية ترد بمعنى الإختيار كقوله :

خشيت بني عمي فلم أر مثلهم[2]

وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) تذييل للآية بما يوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ .[3]

ما يؤخذ من الآيات :

١ــ اختلاف الألوان من أعظم الأدلة علي قدرة الله – عز وجل – ودقة صنعته .

٢ــ من كان عالمًا , بما يليق بذات الله – عز وجل – عارفاً بصفاته . كان شديد الخشية لله – تعالي – فالعلم رأس الخشية وسببها . وكلما ازداد العالم علما بربه ازداد منه خوفا.

٣ــ العالم أعلي درجة من العابد لأنه أعلم منه فهو أخشى لله منه . قال الرازي –رحمه الله–: الخشية بقدر معرفة المخشي , والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات ١٢. فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم. فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل.[4]

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة ٤ / ٥٣٧ – ٥٣٨ . بتصرف يسير.

(٢) الألوسي ١٢ / ٢٨٤

(٣) ينظر : تفسير الرازي ٢٤ / ٤٩

(٤) تفسير الرازي ١٣ / ٤٩

فضل تلاوة القرآن والصلاة والصدقة

قال تعالي:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ }.

مناسبة النص الشريف لما قبله :

لما ذكر الله عز وجل فيما سبق أنه لا يقبل الإنذار إلا من اجتمع له الخشية والصلاة, ثم دل بعد ذلك علي باعث الخشية وهو العلم جاءت هذه الآيات لتذكر بالتلاوة والصلاة والإنفاق . أما التلاوة فطريق للخشية , وأما الصلاة والزكاة فهما مظهر الخشية وأثرها ثم جاءت الآية الأخيرة جسراً بين ما قبلها وما بعدها . فهي تشجع علي التلاوة وتبين أهمية وراثة الكتاب , وهما المعنيان اللذان وجدت بينهما.[1] .

اللغة ومعاني المفردات :

يتلون : تلاه: تبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم وتارة بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلُوّ وتِلْوُ، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى، ومصدره: تلاوة ﴿والقمر إذا تلاها﴾ [الشمس/٢]، أراد به ههنا الاتباع على سبيل الاقتداء والمرتبة، وذلك أنه يقال: إن القمر هو يقتبس النور من الشمس وهو لها بمنزلة الخليفة، وقيل: وعلى هذا نبه قوله:

(١) الأساس في التفسير المجلد الثامن ص ٤٥٩٤

﴿وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ [الفرقان/٦١]، فأخبر أن الشمس بمنزلة السراج، والقمر بمنزلة النور المقتبس منه، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾ [يونس/٥]، والضياء أعلى مرتبة من النور، إذ كل ضياء نور، وليس كل نور ضياء. ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ [هود/١٧]، أي: يقتدي به ويعمل بموجب قوله: ﴿يتلون آيات الله﴾ [آل عمران/١١٣]. والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب. أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن ،في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه.(١)

وأنفقوا مما رزقناهم : الرزق مصدر رزق يرزق رزقا ورزقا فالرزق بالفتح مصدر وبالكسر الاسم وجمعه أرزاق، والرزق العطاء ، وارتزق الجند أخذوا أرزاقهم والرزقة المرة الواحدة فهكذا قال أهل اللغة وقال أبن السكيت الرزق بلغة أزدشنوءة الشكر وهو قوله عز وجل: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة٨٢ أي : شكركم التكذيب ويقول رزقني أي شكرني .(٢)

والإنفاق : إخراج المال من اليد ومنه نفق البيع أي خرج من يد البائع إلى المشتري ونفقت الدابة خرجت روحها ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ، ونفق الزاد فني وأنفقه صاحبه وأنفق القوم فني زادهم ومنه قوله تعالى:{ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ } [الإسراء١٠٠].(٣)

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ : أي ليعطيهم أجرهم تاما لا نقيصة فيه ولا غبن.

قال الرازي :الوَفَاءُ ضد الغدر يقال وَفَى بعهده وَفَاءً و أَوْفَى بمعنى و وَفَى الشيء يَفِي بالكسر وُفِيًّا على فُعُول أي تمّ وكثُر و الوَفِيُّ الوافي و أَوْفَى على الشيء أشرف و وَافَاهُ حقَّهُ و وَفَّاهُ تَوْفِيَةً بمعنى أي أعطاه وافيا و اسْتَوْفَى حقَّه و تَوَفَّاهُ بمعنى وتَوَّفاه الله أي قبض روحه و الوَفَاةُ الموت و وَافَى فلان أتى و تَوَافَى القوم تَتَامُّوا.

وفي اللسان : أَوْفَى الكيلَ أي أَتمه ولم ينقص منه شيئاً.(٤)

---

(١) المفردات ٧١ مادة : " تلو "

(٢) تفسير القرطبي ١ / ١٧٧

(٣) ينظر : مختار الصحاح ٧٤٠

(٤) ينظر: لسان العرب ١٥ / ٣٩٨ مادة " وفى "

والأجر : الجزاء على العمل، والجمع أُجور. والإجارَة: من أَجَر يَأْجِرُ، وهو ما أَعطيت من أَجْر في عمل. والأَجْر: الثواب؛ وقد أَجَرَه الله يأْجُرُه ويأْجِرُه أَجْراً وآجَرَه الله إِيجاراً.(١)

وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ : الفَضْلُ والفَضيلَةُ: خلاف النقص والنقيصة. والإفْضالُ: الإحسان. ورجلٌ مِفْضالٌ وامرأةٌ مِفْضالَةٌ على قومها، إذا كانت ذات فضْلٍ سمحةً. وأفْضَلَ عليه وتَفَضَّلَ بمعنًى. والمُتَفَضِّلُ أيضاً: الذي يدَّعي الفَضْلَ على أقرانه. وأفْضَلْتُ منه شيئاً واسْتَفْضَلْتُ، بمعنًى. وفَضَّلْتُهُ على غيره تَفْضيلاً، إذا حكمت له بذلك، أي صيَّرته كذلك. وفاضَلْتُهُ فَفَضَلْتُهُ، إذا غلبته بالفَضْلِ. والفَضْلَةُ والفُضالَةُ: مافَضَلَ من شيء.(٢)

غفور : الغَفُورُ الغَفّارُ – جلّ ثناؤه – وهما من أَبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم يقال اللهمَّ اغفر لنا مَغْفرة وغَفْراً وغُفْراناً ، وأَصل الغَفْرِ التغطية والستر غَفَرَ الله ذنوبه أَي سترها ،وقد غَفَرَه يَغْفِرُه غَفراً ستره وكل شيء سترته فقد غَفَرْته .(٣)

الشكور : الشُّكْرُ عِرْفانُ الإِحسان ونَشْرُه ، وهو الشُّكُورُ أَيضاً ،قال ثعلب : الشُّكْرُ لا يكون إِلاَّ عن يَدٍ ، والحَمْدُ : يكون عن يد وعن غير يد ، فهذا الفرق بينهما ، والشُّكْرُ من الله المجازاة والثناء الجميل ، والشَّكُور من صفات الله – جل اسمه –معناه أَنه يزكو عنده القليلُ من أَعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء ، وشُكْرُه لعباده مغفرته لهم ، والشَّكُورُ من أَبنية المبالغة ، وأَما الشَّكُورُ من عباد الله فهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأَدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته .(٤)

أوحينا : الوَحْيُ الكِتاب وجمعه وُحِيٌّ مثل حَلْي وحُلِّيٌّ وهو أيضا الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك يقال وَحَى إليه الكلام يَحِيه وَحْياً و أَوْحَى أيضا وهو أن يُكلمه بكلام يُخفيه و وَحَى و أَوْحَى أيضا أي كتب وأَوْحَى الله إلى أنبيائه وأَوْحَى أشار قال الله تعالى {فأَوْحَى إليهم أن سبِّحوا}[مريم : ١١] و الوَحَا السُّرعة يمد

(١) اللسان ٤ / ١٠ مادة : " أجـــر "

(٢) الصحاح ٤ / ١٤٥٨ مادة " فضل"

(٣) ينظر لسان العرب ٥ /٢٥

(٤) المرجع السابق ٤ / ٤٢٤ .

ويُقصر ويقال الوَحَا الوحا البِدار البِدار والوَحِيُّ على فَعِيل السريع يقال موت وحِي .[1]

من الكتاب : والمراد بـ{ الكتاب } القرآن؛ و{ الكتاب } بمعنى المكتوب؛ لأن "فِعال" كما تأتي مصدراً . مثل: قتال، ونضال . تأتي كذلك بمعنى اسم مفعول، مثل: بناء بمعنى مبني؛ وغراس بمعنى مغروس؛ فكذلك "كتاب" بمعنى مكتوب؛ فهو مكتوب عند الله؛ وهو أيضاً مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: { في صحف مكرمة * مرفوعة مطهَّرة * بأيدي سفرة} [عبس: ١٣ . ١٥] ؛ وهو مكتوب في الصحف التي بين أيدي الناس .

هو الحق : الحَقُّ: نقيض الباطل، وجمعه حُقوقٌ وحِقاقٌ، وليس له بِناء أدنى عدَد.[2]

وقال الراغب: أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه (هي عقب الباب) لدورانه على استقامة .

والحق يقال على أوجه :

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى: هو الحق .

والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله الحق، نحو قولنا: الموت حق، والبعث حق.

والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق، قال الله تعالى: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق﴾ [البقرة/٢١٣].

والرابع: للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حق وقولك حق .[3]

مصدقا لما ين يديه : يعني لما قبله من كتاب أو رسول .[4]

بعباده : العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى . [5]

لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ: الخبر : العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر وخبرته خبرا وخبرة .

---

(١) مختار الصحاح ٧٤٠ مادة : "وحي"

(٢) اللسان ١٠ / ٤٩ مادة : " حقق "

(٣) ينظر : مفردات القرآن ١٢٤ – ١٢٥

(٤) تفسير مجاهد ١ /١٢١

(٥) ينظر : مفردات القرآن ٣٣٠ – ٣٣١

وأخبرت : أعلمت بما حصل لي من الخبر وقيل الخبرة المعرفة ببواطن الأمر ،

وقوله تعالى : { والله خبير بما تعملون } [آل عمران / ١٥٣] أي : عالم بأخبار أعمالكم وقيل أي : عالم ببواطن أموركم وقيل : خبير بمعنى مخبر كقوله : { فينبئكم بما كنتم تعملون } [المائدة / ١٠٥] وقال تعالى : { ونبلو أخباركم } [محمد / ٣١] { قد نبأنا الله من أخباركم } [التوبة / ٩٤] أي : من أحوالكم التي نخبر عنها[١] .

والبصير : في أسماء اللّه تعالى : هو الذي يشاهد الأشياء كلّها ظاهرَها وخافيها بغير جارحة . والبصر في حَقّه عبارة عن الصِّفة التي ينكشف بها نُعوت المبْصَرَات .[٢]

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – : وقال العلماء وصف الله –عز وجل – نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور والبصير في كلام العرب العالم بالشيء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالطب وبصير بالفقه وبصير بملاقاة الرجال. قال الخطابي البصير العالم والبصير المبصر.[٣]

المعنى العام :

إن الذين يقرؤون القرآن, ويعملون به, وداوموا على الصلاة في أوقاتها, وأنفقوا مما رزقناهم من أنواع النفقات الواجبة والمستحبة سرًّا وجهرًا, هؤلاء يرجون بذلك تجارة لن تكسد ولن تهلك, ألا وهي رضا ربهم, والفوز بجزيل ثوابه؛ ليوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص, ويضاعف لهم الحسنات من فضله, إن الله غفور لسيئاتهم, شكور لحسناتهم, يثيبهم عليها الجزيل من الثواب.

والذي أنزلناه إليك – أيها الرسول – من القرآن هو الحق المصدِّق للكتب التي أنزلها الله على رسله قبلك. إن الله لخبير بشؤون عباده، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

الشرح والبيان :

مدح الله – عز وجل – عباده المؤمنين وأثني عليهم وذكر لهم صفات أربع كانوا يقومون بها وهي :

الصفة الأولي : أنهم يداومون علي قراءة القرآن فهم لم يصموا آذانهم عنه ولم يكونوا عند تذكيرهم به كحال أهل القبور الذين لا يسمعون شيئاً . . وهذا أثر من آثار خشيتهم لله – عز وجل –

---

(١) ينظر : المرجع السابق ١٤٢

(٢) النهاية في غريب الحديث ١ / ٣٤١

(٣) القرطبي ٣٥/٢

قال الألوسي – رحمه الله – : (إن الذين يتلون كتاب الله) أي : يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانا كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين والمراد بكتاب الله القرآن فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : هذه آية القراء.

وقيل : معنى يتلون كتاب الله يتبعونه فيعملون بما فيه وكأنه جعل يتلو من تلاه إذا تبعه أو حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنها ليس فيها كثير نفع دونه وقد ورد (رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه)[1] ويشعر كلام بعضهم باختيار المعنى المتبادر حيث قال إنه تعالى لما ذكر الخشية وهي عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية وجوز أن يراد بكتاب الله تعالى جنس كتبه عز وجل الصادق على التوراة والإنجيل وغيرهما فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين بقوله تعالى (وإن يكذبوك) الخ والمضارع لحكاية الحال الماضية والمقصود من الثناء عليهم وبيان ما لهم حث هذه الأمة على إتباعهم وأن يفعلوا نحو ما فعلوا والوجه الأول أوجه كما لا يخفى وعليه الجمهور .[2]

والذي أميل إليه أن التلاوة هنا بمعني القراءة والمراد بالكتاب هو القرآن الكريم كما ذكر الجمهور, واستبعد القول بأن المراد بالكتاب الكتب السابقة , وأراه تمييع لمعني الآية وإخراج لها عن ظاهرها فالآية لحث المؤمنين علي قراءة القرآن الكريم وليس للحث علي قراءة التوراة والإنجيل وما شابهها , إذ هذه الكتب ذهبت فضيلة قراءتها بنزول القران.

بل ذهب بعض العلماء – أجزل الله مثوبتهم – إلى أن الأجر علي مجرد التلاوة وترديد اللفظ من خصائص هذا الكتاب المجيد وأما الكتب السابقة فلا يكفي في قراءتها مجرد التلاوة وترديد الألفاظ بل لا بد من التدبر.

فمن الخطأ أن نقول أن ثواب القراءة مرتهن بالعمل . فهذه دعوة للصد عن تلاوة القرآن فمن منا المعصوم الذي لا يخلو عن تقصير حتي يكون وحده المأجور علي تلاوة كلام اللطيف الخبير.

لا أقول ذلك لأني أقلل من شأن العمل بالقرآن الكريم , فمن قرأ وعمل كان كمن زاد علي الزبد شهداً , وعلق في جيد الحسناء عقداً , ومن قرأ وقصر في العمل فله أجر

(١) هذا قول يروي عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – تفردت بروايته بعض كتب الأخلاق والرقائق فقد ذكره الغزالي في الإحياء ١ / ٢٧٤ ، وعبد الرحمن القرشي في التذكرة في الوعظ ١ / ٨١ .

(٢) ينظر : تفسير الألوسي ١٢ / ٢٨٤ – ٢٨٥

وثواب , وربما ببركة القرآن يحسن الله له الختام ويوفقه للقيام بأحسن الأعمال .

قال الشيخ الزرقاني – طيب الله ثراه :

المقصد الثالث : من نزول القرآن أن يتعبد الله خلقه بتلاوته ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه فإذا ضموا إلى التلاوة فهما زادوا أجرا على أجر قال الله تعالى: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقتهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) وقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم –: (من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[1] . رواه الترمذي وقال حسن صحيح . ثم إن هذه خصيصة امتاز بها القرآن , أما غيره فلا أجر على مجرد تلاوته , بل لا بد من التفكر فيه وتدبره , حتى الصلاة هي عماد الدين ليس للمرء من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها .

وإنما انفرد القرآن بهذه المزية لحكم سامية , وفوائد ذات شأن :

أولها : توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل . ذلك أن هذا الأجر العظيم الذي وعده الله من يتلو كتابه العزيز ولو غير متفهم لمعانيه من شأنه أن يحبب الناس في قراءة القرآن ويدفعهم إلى الإكثار منها ويحركهم إلى استظهاره وحفظه ولا ريب أن انتشار القراءة والقراء والحفاظ يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة واضح المعالم في جميع الأوساط والطبقات وهنا لا يجرؤ أحد على تغيير شيء فيه وإلا لقي أشد العنت من عارفيه كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجرام من أعداء الإسلام .

ثانيها : إيجاد وحدة للمسلمين لغوية تعزز وحدتهم الدينية وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم فتقوى بذلك صفوفهم وتعظم شوكتهم وتعلو كلمتهم وتلك سياسة إلهية عالية فطن لها الإسلام على يد هذا النبي الأمي في عهد قديم من عهود التاريخ ونجحت هذه السياسة نجاحا باهرا حتى انضوى تحت اللسان العربي أمم كثيرة مختلفة اللغات ونبغ منهم نابغون سبقوا كثيرا من العرب في علوم القرآن وعلوم لغة القرآن بينما أمم كبيرة في هذا العصر الحديث الذي يزعمونه عصر العلم والنور قد حاولت مثل هذه المحاولة بتقرير لسان

(١) سنن الترمذي باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر ٥ / ١٧٥ حديث رقم ٢٩١٠

عام ولغة عالمية مشتركة أسموها لغة الاسبرنتو فكانت محاولة فاشلة فضلا عن أنهـا جـاءت مسبوقة متأخرة .

ثالثها : استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء بهدي القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم فإن من يقرأ القرآن في يومه وهو غافل عن معانيه يقـرؤه في غده وهو ذاكر لها . ومن قرأه في غده وهو ذاكر لها أوشك أن يعمل بعد غـد بهـديها وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية " كل من سار على الدرب وصل " ويرحم الله ابن عطاء الله السكندري إذ يقول في حكمه : لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجـود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز. أ . هـ[1]

ولا يعكر علي ما ذكر حديث (رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه) الذي ذكره الألوسي آنفاً فالحديث لم أهتد إليه ومن رام الاستدلال به فليأت بما يفيد صحته .

الصفة الثانية : من الصفات التي مدح الله بها المؤمنين قوله تعالي :{ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ } : بأن حافظوا علي أوقاتها وأدوها بخشوع وإخلاص .

الصفة الثانية : قوله تعالي : { وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً }

قال الشوكاني – رحمه الله – : فيه حث على الإنفاق كيف ما تهيأ فإن تهيأ سرا فهو أفضل وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ويمكن أن يراد بالسر صدقة النفل وبالعلانية صدقة الفرض .[2]

قال الألوسي – رحمه الله – : وانتصاب (سرا وعلانية) على أنهما مصدران في موضع الحال أي مسرين ومعلنين أو على أنهما حالان من ضمير الإنفاق على مذهب سيبويه أو نعتان لمصدر محذوف أي إنفاقا سرا والباء بمعنى في[3] .

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٢٩- ١٣١

(٢) فتح القدير ٤ /٣٤٨

(٣) تفسير الألوسي ٣ / ٧٨

وهذا مدح لهم علي تعميم الصدقة في جميع الأحوال كما مدحهم الله تعالي علي تعميم الصدقة في جميع الأوقات والأحوال – أيضاً – في قوله تعالي : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) } البقرة . والآيات في هذا المعني كثيرة .

أيهما أفضل في الصدقة السر أم العلانية ؟

مدح الله تعالي في الكثير من الآيات عباده بالإنفاق في السر والعلانية وبين أن في كلٍ خير ومن هذه الآيات:

١– قوله تعالي : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) } البقرة .

٢– وقوله تعالي :{ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) } ا لبقرة٣١

٣ – وقوله تعالي :{ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)}الرعد.

ولكن أيهما أفضل السر أم العلانية ؟

إليك أقوال العلماء في ذلك :

يقول ابن جرير – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالي : {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [البقرة٢٧١] يعني بقوله جل ثناؤه {إن تبدوا الصدقات} إن تعلنوا الصدقات فتعطوها من تصدقتم بها عليه، {فنعما هي} يقول: فنعم الشيء هي. {وإن تخفوها} يقول: وإن تستروها فلم تعلنوها {وتؤتوها الفقراء} يعني: وتعطوها الفقراء في السر، {فهو خير لكم} يقول: فإخفاؤكم إياها خير لكم من إعلانها. وذلك في صدقة التطوع . عن قتادة قوله: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} كل مقبول إذا كانت النية صادقة، وصدقة السر أفضل. و عن ابن عباس قوله: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} فجعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها. ثم قال – رحمه الله –: ولم يخصص الله من قوله: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي} فذلك على العموم إلا ما كان من

زكاة واجبة، فإن الواجب من الفرائض قد أجمع الجميع على أن الفضل في إعلانه وإظهاره سوى الزكاة التي ذكرنا اختلاف المختلفين فيها مع إجماع جميعهم على أنها واجبة، فحكمها في أن الفضل في أدائها علانية حكم سائر الفرائض غيرها.[1]

فشيخ المفسرين يرى أن الأولي في الزكاة الواجبة الإعلان , وصدقة التطوع الأولي فيها أن تكون سراً . وهذا الحكم ينسحب علي سائر العبادات .

ويقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله –: وقوله :{ إن تبدوا الصدقات فنعما هي} أي : إن أظهرتموها فنعم شيء هي وقوله { وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم } فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية . ... والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية . ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) وفيه (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) [2] وقال الإمام أحمد[3] : عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا رب هل في خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار. قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم الماء . قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح . قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله .[4]

وقد يكون كلام الحافظ هنا – رحمه الله – في صدقة التطوع فلا خلاف بين ما قاله وما ذكره شيخ المفسرين .

---

(١) تفسير ابن جرير٣ / ٦١ – ٦٢ .

(٢) الحديث في : صحيح البخاري كتاب الجماعة والإمامة باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ١ / ٢٣٤، وصحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ٢ / ٧١٥

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٣ / ١٢٤ وقال شعيب الأرنؤوط – في تعليقه علي المسند –: إسناده ضعيف ، ورواه الترمذي في السنن ٥ / ٤٥٤ وقال الشيخ الألباني : ضعيف

(٤) ابن كثير ١ / ٣٢٢-٣٢٣ بتصرف واختصار

وقد فصل ذلك ابن الجوزي – رحمه الله – فقال : وقوله تعالى : { فهو خير لكم } يعني : الإخفاء واتفق العلماء على أن إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها وفي الفريضة قولان .

أحدهما: أن إظهارها أفضل . قاله ابن عباس في آخرين واختاره القاضي أبو يعلى. وقال الزجاج كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن فأما اليوم فالناس يسيئون الظن فإظهارها أحسن .

والثاني : إخفاؤها أفضل . قاله الحسن وقتادة و يزيد بن أبي حبيب وقد حمل أرباب القول الأول الصدقات في الآية على الفريضة وحملوا { وإن تخفوها } على النافلة وهذا قول عجيب و إنما فضلت صدقة السر لمعنيين أحدهما :يرجع إلى المُعطِي وهو بعده عن الرياء وقربه من الإخلاص والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية والثاني: يرجع إلى المُعْطَى وهو دفع الذل عنه باخفاء الحال لأنه في العلانية ينكسر[1] .

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي – رحمه الله – : بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف . ثم قال –ما ملخصه– : الوظيفة الثالثة الإسرار فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة .

وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء ومهما كانت الشهرة مقصودة لحبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة. الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذي سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله – عز وجل – : (إن تبدوا

(١) زاد المسير ١ / ٣٢٥ – ٣٢٦

الصدقات فنعما هي) وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان وهذا لأن في الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهي عنه فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها . وقد قال الله تعالى : { وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً } [الرعد : ٢٢] ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .[1]

والذي أميل إليه بعد عرض هذه الأقوال أن صدقة التطوع الأفضل فيها السر والإخفاء , وصدقة الفرض الأفضل فيها العلانية , إن أمن الإعجاب والرياء وكسر قلوب الفقراء , ولا سيما إن قصد الاقتداء . وعلي ذلك يمكن حمل الآيات والأحاديث الواردة في هذا الشأن .

وقوله تعالي : { يرجون تجارة لن تبور }

أي : يرجون تجارة تحصيل ثواب الطاعة وهو خبر إن وقوله تعالى : (لن تبور) أي : لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لأنه اشتراء باق بفان والأخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم.[2]

وقوله تعالي : {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ} أي ليعطيهم ثواب أعمالهم كاملة لا نقص فيها ويزيدهم علي الثواب المستحق لهم من فضله وكرمه . وقد نص الله تعالي علي نوع من هذه الزيادة فقال تعالي : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢) أبو السعود ٧ / ١٥٢

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) } البقرة. كما نص في آيات أخر علي عدم النقص فقال تعالي: { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)} طه.

وقوله تعالي :{ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ }.

تذييل لهذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإن من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر ، فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما هممت به ولم تفعله. وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة، والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو يشكر بالعمل لأن الذي يجازى على عمل عمله المجزي بجزاء وافر يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله ، وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها.[1]

وقوله تعالي : {وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ }.

أي : والذي أوحينا إليك من القرآن هو الحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة , إن الله عالم ببواطن الأمور وظواهرها وعالم من يكون أهلا لنزول هذا الكتاب عليه.

قال العلامة أبو السعود –رحمه الله–:(والذي أوحينا إليك من الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس أو للتبعيض . وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي حقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لان حقيته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام (إن الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمور هم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية[2] .

قال الرازي – رحمه الله – : المسألة الثانية : قوله: {هو الحق } آكد من قول القائل: الذي أوحينا إليك حق من وجهين {أحدهما } أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكن نكرة، لأن الإخبار في الغالب يكون إعلاما بثبوت أمر

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٠٨ .

(٢) أبو السعود ٧ / ١٥٢

لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فإن السامع ينبغي أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به، فإذا كان الخبر أيضا معلوما فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم في هذه المدينة إذا كان علمه مشهورا.(١)

وقوله تعالي : {مصدقا لما بين يديه } مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل أي: مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله – عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا في أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا في نزوله على النعت المذكور فيها وكذا في الشرائع التي لا تختلف باختلاف للأمم والأعصار ظاهر لا ريب فيه وأما في الشرائع المختلفة باختلافهما فمن حيث إن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم .(٢)

وقوله تعالي : {إن الله بعباده لخبير بصير } فيه وجهان:

أحدهما : أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر، فلا يكون باطلا في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر.

وثانيهما: أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم لم يترل على رجل عظيم؟ فيقال : " إن الله بعباده لخبير" يعلم بواطنهم و " بصير " يرى ظواهرهم فاختار محمدا – عليه الصلاة و السلام – ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل.(٣)

ما يؤخذ من الآيات :

١– الترغيب في تلاوة القرآن والصلاة والصدقة .

٢– مدح المؤمنين بأنهم يعممون صدقاتهم في جميع الأوقات والأحوال . فينفقون في السر حيث لا يعلم بنفقتهم إلا الله , فهم أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص , وينفقون في العلانية فيكونوا قدوة في الخير وأسوة للغير فيقتدي بهم غيرهم في البذل والإنفاق فالناس أسراب طير يتبع بعضها بعضاً .

٣– أن فعل الخيرات وعمل القربات تجارة من أنواع التجارات لكنها تجارة مع الله فلا

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٥١ – ٥٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ٤

(٣) تفسير الرازي ٢٤ / ٥٣ .

خسران فيها ولا كساد بل ربح دائم وازدياد .

٤- من فضل الله تعالي أنه غفور يتجاوز عن التقصير وشكور يقبل من العمل النادر القليل .

٥- التنويه بجلال القرآن وشرفه وبيان أنه وحي من الله , وأنه الحق الذي لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه وفي هذا إلهاب إلي تلاوته والعمل بما فيه , وفيه -أيضا - التنويه بفضل من نزل عليه , وهذه مسرة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وبشارة له بأنه أفـضل الرسـل وأن كتابه أفضل الكتب.

٦- بيان أن الله تعالي خبير عالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية. وبصير: عالم بالأمور المبصرة. وفي ذلك تهديد لمن كذب بالقرآن ,كما أن فيه رد علي من حسد النبي - صلي الله عليه وسلم - علي نزول القرآن العظيم عليه دون سائر أشراف مكة { اللّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }[الأنعام : ١٢٤].

من فضائل الأمة المحمدية
- زادها الله شرفاً -

قال تعالى : { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٣٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٣٣} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{٣٤} الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{٣٥} }

المناسبة :

وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمن التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم وعروج في مسرته وتبشيره فبعد أن ذكر بفضيلة كتابه وهو أمر قد تقرر لديه زيد تبشيرا بدوام كتابه وإيتائه أمة هم المصطفون من عباد الله تعالى وتبشيره بأنهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم لقوله (فمنهم ظالم لنفسه) الآية فهذه البشارة أهم عند النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار بأن القرآن حق مصدق لما بين يديه لأن هذه البشارة لم تكن معلومة عنده فوقعها أهم[1] .

المفردات :

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ : أي : أعطينا والميراث عطاء حقيقة أو مجازا فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر و (الكتاب) هاهنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن وهو قد تضمن معاني الكتب المترلة فكأنه ورث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا { اصطفينا } أي اخترنا واشتقاقه من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر وأصله اصتفونا فأبدلت التاء طاء والواو ياء .[2]

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١١
(٢) القرطبي ٨ / ٥٤٢٩

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِه : الظلم : وضْعُ الشيءِ في غير مَوْضعه والمَصدَرُ الحقيقيُّ : الظَّلْمُ بالفتح ظَلَمَ يَظْلِمُ ظَلْماً بالفتح فهو ظالمٌ وظَلومٌ وظَلَمَهُ حَقَّهُ وتَظَلَّمَهُ إيَّاهُ . وتَظَلَّمَ : أحالَ الظُّلْمَ على نفسه ومنه: شَكا من ظُلْمه . واظَّلَمَ كافْتَعَلَ وانْظَلَمَ : احْتَمَلَهُ . وظَلَّمَهُ تَظْليماً : نَسَبَهُ إليه . والمَظْلَمَةُ بكسر اللام وكُثمامة : ما تَظَلَّمَهُ الرجُلُ . وأرادَ ظلامَهُ ومُظالَمَتَهُ أي : ظُلْمَه . وقولُه تعالى: (ولم تَظْلِمْ منه شيئاً) [الكهف : ٣٣] أي : ولم تَنْقُصْ . وظَلَمَ الأرضَ : حَفَرَها في غير مَوْضعِ حَفْرِها و البَعيرَ : نَحَرَهُ من غيرِ داءٍ و الوادي : بَلَغَ الماءُ مَوْضعاً لم يَكُنْ بَلَغَهُ قَبْلَهُ و – الرَّجُلُ : أصابَ ظَلْماً[1] .

مُّقْتَصِدٌ : القَصْدُ إتيان الشيء وبابه ضرب تقول قَصَدَهُ وقصد له وقصد إليه كله بمعنى واحد وقَصَدَ قصده أي نحا نحوه و القَصيدُ جمع القَصيدة من الشعر مثل سفين وسفينة و القاصدُ القريب يقال بيننا وبين الماء ليلة قاصدةٌ أي هينة السير لا تعب فيها ولا بطء و القَصْدُ بين الإسراف والتقتير يقال فلان مُقْتصدٌ في النفقة و اقْصِدْ في مشيك و اقْصِدْ بذرعك أي أربع على نفسك و القَصْدُ العدل[2] .

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ : المسابقة إلي الخيرات المبادرة والمسارعة إليها .

قال الزبيدي : سَبَقَهُ يسبُقُه ويسبِقُه من حَدّيْ نصَرَ وضَرَبَ والكَسر: تَقَدّمه في الجَرْيِ وفي كُلِّ شيءٍ وسبق الفَرَسُ في الحَلْبة : إذا جَلَى .[3] .

والخير : ما يرغب فيه الكل، كالعقل مثلا، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده : الشر. قيل: والخير ضربان: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوبا فيه بكل حال، وعند كل أحد، وخير وشر مقيدان، وهو أن يكون خيرا لواحد شرا لآخر، كالمال الذي ربما يكون خيرا لزيد وشرا لعمرو.[4]

وجمع الخير خُيور والـ " خَيْراتُ " جمع خَيْرَةٍ وهي الفاضلة من كل شيء .[5]

بِإِذْنِ اللَّهِ: أي : بعلمه وتوفيقه وإرادته وتيسيره . وحول هذه المعاني دارت عبارة المفسرين .

قال العلامة أبو السعود : قوله(بإذن الله) أي : بتيسيره وتوفيقه .[6]

وقال القرطبي : { إلا بإذن الله }[سورة البقرة : ١٠٢] أي : بإرادته وقضائه [7]

وقال في موضع آخر: وقوله تعالى : { بإذن الله } [البقرة : ٩٧] أي بإرادته وعلمه .[8]

---

(١) ينظر : القاموس المحيط ٤ / ١٤٧ دار الجيل بيروت .

(٢) مختار الصحاح ٥٦٠

(٣) ينظر : تاج العروس ٢٥ / ٤٣٠

(٤) ينظر : مفردات القرآن ١٦٣

(٥) لسان العرب ٤ / ٢٦٤

(٦) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٣

(٧) تفسير القرطبي ١ / ٤٤٥

(٨) المرجع السابق ١ / ٤٢٨

ونلاحظ أن في كتب المعاجم تدور مادة (أذن) علي العلم .

قال الزبيدي : أَذِنَ بالشَّيءِ كسَمِعَ إِذْناً بالكسْرِ ويُحَرَّكُ وأَذاناً وأَذانَةً كسَحابٍ وسَحابَةً عَلِمَ به .(١)

وفي مختار الصحاح: أذن له في الشيء بالكسر إذْنا و أذِنَ بمعنى علم وبابه طرب.(٢)

جَنَّاتُ عَدْنٍ : أي جنات إقامة .

والجَنَّةُ : البُسْتانُ ومنه الجَنّات والعربُ تسمِّي النخيلَ جَنَّةً ، والجَنَّةُ : الحَديقةُ ذات الشجر والنخل وجمعها جنان ، وفيها تخصيص ويقال للنخل وغيرها ، وقال أبو علي في التذكرة لا تكون الجَنَّة في كلام العرب إلا وفيها نخلٌ وعنبٌ ، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجَنَّة ، والجَنَّةُ : هي دارُ النعيم في الدار الآخرة من الاجْتنان وهو السَّتْر لتكاثُف أَشْجارها وتظليلها بالتفاف أَغصانها قال وسميت بالجَنَّة وهي المرَّة الواحدة من مَصْدر جَنَّة جَنّاً إذا ستَرَه فكأَنها سترةٌ واحدةٌ لشدَّة التفافها وإظْلالها .(٣)

والعدن الإقامة : قال الرازي : عَدَنْتُ بالبلد توطنته وبابه ضرب و عَدَنَت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح ومنه {جنات عَدْنٍ} أي جنات إقامة ومنه سمي المَعْدِنُ بكسر الدال لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء ومركز كل شيء مَعْدِنُهُ و عَدَنُ بلد .(٤)

يحلون فيها : الحَلْيُ: ما تُزُيِّنَ به من مَصوغِ المَعْدنيَّات أَو الحجارةِ؛ والجمع حُلِيٌّ؛ قال الفارسي: وقد يجوز أَن يكون الحَلْيُ جمعاً، وتكون الواحدة حلْيَةً كشَرْيَةٍ وشَرْيٍ وهَدْيَةٍ وهَدْيٍ .(٥)

أساور : أساور جمع أسورة , وأسورة جمع سوار. يقال : هو سوار في اليد بالكسر , وقد حكي سوار – بفتح السين – وحكي قطرب إسوار , وذكر أن أساور جمع إسوار علي حذف الياء , لأن جمع اسوار أساوير.(٦)

ولؤلؤاً : اللُّؤْلُؤَةُ : الدُّرَّةُ، والجمع اللُّؤْلُؤُ واللآلِئ، وبائعُه لأْآءٌ، ولأْآلٌ، ولأْلاءٌ. قال أَبو عبيد: قال الفرّاءُ سمعت العرب تقول لصاحب اللؤْلؤ لأْآءٌ على مثال لَعَّاعٍ، وَكرِهَ قول الناس لأْآلٌ على مثال لَعَّالٍ. قال الفارسي: هو من باب سبطر. وقال عليّ ابنُ حمزة: خالف الفرّاءُ في هذا الكلام العربَ

(١) تاج العروس ٣٤ / ١٦١

(٢) مختار الصحاح ١ /١٢

(٣) لسان العرب ١٣ / ٩٢ .

(٤) مختار الصحاح ٤٦٧ مادة : " عدن "

(٥) ينظر : اللسان ١٤ / ١٩١ مادة " حلا "

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣ / ٢٨٣

والقياس، لأن المسموع لأآلٌ والقياس لُؤْلُؤِيٌّ، لأنه لا يبنى من الرباعي فَعَّالٌ، ولأآل شاذّ. الليث : اللُّؤْلُؤُ معروف وصاحبه لأآل. قال: وحذفوا الهمزة الأخيرة حتى استقام لهم فَعَّالٌ، وأنشد:

دُرَّةٌ مِنْ عَقائِلِ البَحْرِ بِكْرٌ لم تَخُنْها مَثاقِبُ اللَّأْآلِ

ولولا اعتلال الهمزة ما حسن حَذفها. ألا ترى أنهم لا يقولون لبياع السمسم سَمّاسٌ وحَذْوُهُما في القياس واحد. قال: ومنهم من يرى هذا خطأ.

واللِّئالةُ ، بوزن اللِّعالة: حرفة اللَّأْآلِ. وتَلأْلأَ النجمُ والقَمرُ والنارُ والبَرقُ، ولأْلأَ: أَضاءَ ولَمع.[1]

المقامة: المَقامُ والمَقامة: المجلس. ومَقامات الناس: مَجالسُهم ويقال للجماعة يجتمعون في مَجْلسٍ: مَقامة. ومَقاماتُ الناسِ: مَجالسهم أيضاً. والمَقامة والمَقام: الموضع الذي تَقُوم فيه. والمَقامةُ: السّادةُ.[2]

لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب :

قال الراغب : المس كاللمس ، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد، والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، وكني به عن النكاح، فقيل: مسها وماسها، والمسيس كناية عن النكاح، وكني بالمس عن الجنون. والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى.[3]

والنَّصَبُ: الإعْياءُ من العَناء. والفعلُ نَصِبَ الرجلُ، بالكسر،نَصَباً: أَعْيا وتَعِبَ؛ وأَنْصَبه هو، وأَنْصَبَني هذا الأَمْرُ. وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذو نَصَبٍ، مثل تامِرٍ ولابِنٍ، وهو فاعلٌ بمعنى مفعول، لأَنه يُنْصَبُ فيه ويُتْعَبُ.والنَّصَبُ: التَّعَبُ؛ قال النابغة :

كليني لَهَمٍّ، يا أُمَيْمَةَ، ناصبِ

واللُّغُوبُ : التَّعَبُ والإعْياءُ. لَغَبَ يَلْغُبُ، بالضم، لُغُوباً ولَغْباً ولَغِبَ، بالكسر، لغة ضعيفة: أَعْيا أَشدَّ الإعْياء. وأَلْغَبْتُه أَنا أَي أَنْصَبْتُه.[4]

المعني العام :

ثم أعطينا – بعد هلاك الأمم– القرآن مَن اخترناهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم: فمنهم ظالم لنفسه بفعل بعض المعاصي, ومنهم مقتصد, وهو المؤدي للواجبات المجتنب للمحرمات, ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله, أي مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة, فَرْضِها ونفلها, ذلك الإعطاء للكتاب واصطفاء هذه الأمة هو الفضل الكبير.

جنات إقامة دائمة للذين أورثهم الله كتابه يُحلَّون فيها الأساور من الذهب واللؤلؤ,

---

(١) ينظر: اللسان ١ / ١٥٠ مادة : " لألأ "

(٢) ينظر : اللسان ١٢ / ٤٩٦ مادة : " قوم "

(٣) ينظر : مفردات القرآن ٤٨٧ مادة " مسس "

(٤) ينظر : اللسان مادة : " لغب " ١ / ٧٤٢ / ومادة " نصب "١ / ٧٥٨

ولباسهم المعتاد في الجنة حرير أي: ثياب رقيقة. وقالوا حين دخلوا الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا كل حَزَن, إن ربنا لغفور: حيث غفر لنا الزلات, شكور: حيث قبل منا الحسنات وضاعفها. وهو الذي أنزلَنا دار الجنة من فضله, لا يمسنا فيها تعب ولا إعياء.

الشرح والبيان :

قوله تعالي : { ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا } .

المراد بالكتاب هنا القرآن الكريم , فقد سبق ذكره في قوله تعالي (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وقيل المراد بالكتاب الكتب المتقدمة .

وقوله تعالي : (الذين اصطفينا من عبادنا) الأشهر أن المراد به أمة محمد – صلي الله عليه وسلم – وقيل المراد بهم الأنبياء وأتباعهم .

قال ابن الجوزي – رحمه الله – : " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا " وفيهم قولان : أحدهما : أنهم أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – قاله ابن عباس والثاني : أنهم الأنبياء وأتباعهم قاله الحسن . وفي الكتاب قولان : أحدهما : أنه اسم جنس والمراد به الكتب التي أنزلها الله – عز وجل – وهذا يخرج على القولين فإن قلنا الذين اصطفوا أمة محمد فقد قال ابن عباس إن الله أورث أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – كل كتاب أنزله، وقال ابن جرير الطبري : ومعنى ذلك أورثهم الإيمان بالكتب كلها وجميع الكتب تأمر باتباع القرآن فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها واستدل على صحة هذا القول بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه " والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق " وأتبعه بقوله " ثم أورثنا الكتاب " فعلمنا أنهم أمة محمد إذ كان معنى الميراث انتقال شئ من قوم إلى قوم ولم تكن أمة على عهد نبينا انتقل إليهم كتاب من قوم كانوا قبلهم غير أمته فان قلنا هم الأنبياء وأتباعهم كان المعنى أورثنا كل كتاب أنزل على نبي ذلك النبي وأتباعه والقول الثاني : أن المراد بالكتاب القرآن وفي معنى أورثنا قولان أحدهما : أعطينا لأن الميراث عطاء قاله مجاهد . والثاني : أخرنا ومنه الميراث لأنه تأخر عن الميت فالمعنى أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناه هذه الأمة إكراما لها ذكره بعض أهل المعاني .[1]

وهذه الأقوال لها وجاهتها واستحسانها ، والذي أميل إليه أن المراد بالكتاب القرآن وبقوله " الذين اصطفينا " أمة محمد – صلي الله عليه وسلم – وهذا ما عليه الجمهور والمتبادر إلي الذهن .

قال الألوسي – رحمه الله – : " ثم أورثنا الكتاب " أي القرآن كما عليه الجمهور والعطف قيل : على " الذي أوحينا " وقيل على " أوحينا " بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول واستظهر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين , أي ثم أعطيناه من غير كد وتعب في طلبه " الذين اصطفينا

(١) زاد المسير ٦ / ٤٨٧

من عبادنا " وهم كما قال ابن عباس وغيره أمة محمد فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بالانتماء إلى أكرم رسله وأفضلهم – عليهم الصلاة والسلام – و ثم للتراخي الرتبي , فإن إيحاء الكتاب إليه أشرف من الإيراث المذكور كأنه كالعلة له وبه تحققت نبوته عليه الصلاة والسلام – التي هي منبع كل خير وليست للتراخي الزماني إذ زمان إيحائه إليه – عليه الصلاة والسلام – هو زمان إيراثه, وإعطائه أمته بمعنى تخصيصه بهم وجعله كتابهم الذي إليه يرجعون وبالعمل بما فيه ينتفعون وإذا أريد بإيراثه إياهم إيراثه منه –صلي الله عليه وسلم – وجعلهم منتفعين به فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء أو بالواسطة كغيرهم بعده – عليه الصلاة والسلام – فهي للتراخي الزماني والتعبير عن ذلك بالماضي لتحققه .[1]

هل كل هذه الأصناف في الجنة ؟

واختلف في عود الضمير من قوله : " فمنهم " فقال ابن عباس وغيره ما مقتضاه أن الضمير عائد على " الذين اصطفينا " وأن الأصناف الثلاثة هي كلها في أمة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – فالظالم لنفسه : العاصي المسرف ، والمقتصد : متقى الكبائر ، وهم جمهور الأمة ، والسابق : المتقى على الإطلاق . وقالت هذه الفرقة الأصناف الثلاثة في الجنة .وقاله أبو سعيد الخدرى – رضي الله عنه – ، والضمير في يدخلونها عائد على الأصناف الثلاثة ، قالت عائشة وكعب : دخلوها كلهم ورب الكعبة وقال أبو إسحاق السبيعي : أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج ، وقال ابن مسعود : هذه الأمة يوم القيامة أثلاث ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله – عز وجل ما هؤلاء ؟ وهو أعلم بهم . فتقول الملائكة : هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا فيقول عز وجل : أدخلوهم فى سعة رحمتي . وروى أسامة بن زيد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ هذه الآية وقال : كلهم فى الجنة ، وقرأ عمر هذه الآية ثم قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له).

وقال عكرمة والحسن وقتادة : ما مقتضاه أن الضمير فى (منهم) عائد على العباد فالظالم لنفسه الكافر والمقتصد المؤمن العاصي والسابق التقى على الإطلاق وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى: {وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً }الواقعة٧. والضمير في (يدخلونها) على هذا التأويل خاص بالمقتصد والسابق.[2]

(١) تفسير الألوسي ١٢ / ٢٨٨

(٢) تفسير الثعالبي ٣ /٢٥٢

فمن قال بأن هذه الأصناف كلها في الجنة جعل المراد ب (الظالم) العاصي من الموحدين . ومن قال بأن الصنف الأول من أهل النار جعل المراد ب (الظالم) الكافر. وذكر البيضاوي هذا القول بصيغة التمريض فقال : وقيل الظالم الكافر.

قال الشهاب: وجه تمريضه ظاهر لأن المتبادر أنه تفصيل للمصطفين لا للعباد فيخرج الكفرة وأما كون العباد المضاف لله مخصوصاً بالمؤمنين فليس بمطرد فإنما يكون إذا قصد بالإضافة التشريف. [1] والقول الأشهر الذي عليه الأكثر وتعضده الروايات أن الأصناف الثلاثة في الجنة .

قال الألوسي – رحمه الله – :والذي يعضده معظم الروايات والآثار أن الأصناف الثلاثة من أهل الجنة فلا ينبغي أن يلتفت إلى تفسير الظالم بالكافر إلا بتأويل كافر النعمة وإرادة العاصي منه. ثم قال :

أخرج الإمام أحمد والبيهقي والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي أنه قال في هذه الآية " ثم أورثنا الكتاب " إلى "الخيرات " (هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة).[2] وقوله – عليه الصلاة والسلام – : وكلهم الخ عطف تفسيري .

وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم – قال : (سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له) [3].

ثم ذكر الألوسي روايات عدة في هذا الشأن ، تتبعتها فوجدتها لا تسلم من مقال ، وتركتها مع التعقيب عليها دفعاً للإطالة .

ثم قال الألوسي بعد ذكر هذه الروايات : قال البيهقي إذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً والأخبار في هذا الباب كثيرة وفيما ذكر كفاية[4] .

سبب تقديم الظالم علي المقتصد والسابق :

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لما قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الظالمين وغلبتهم وعقب بالمقتصد لقلة المقتصدين بالنسبة إليهم وأخر السابق لأن السابقين أقل من القليل[5].

---

(١) حاشية الشهاب ٧ / ٢٢٧

(٢) الحديث أخرجه : الترمذي ٥ / ٣٦٣ وقال الشيخ الألباني : صحيح . والإمام أحمد في المسند ٣ / ٧٨ وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف لإبهام الرجل من ثقيف والرجل من كنانة وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين . والطبراني في المعجم الكبير ١٣ / ٧٩

(٣) سنن ابن منصور ٢ / ١٢٠ موقوفا علي عمر وعثمان – رضي الله عنهما –

(٤) تفسير الألوسي ١٢ / ٢٩٢

(٥) الكشاف ٣ / ٣٠٩

وقيل : قدم الظالم لأن الظلم بمعني الجهل والركون إلي الهوي مقتضي الجبلة أي : الطبيعة والخلقة كما قيل :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم[1]

وقيل : قدم لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلا لمسرته[2].

ولعـــل: هذا هو الراجح فالمقام مقام عفو وفضل والظالم لنفسه أولي بتعجيل المسرة.

وعلي كل فالتقديم لا يدل علي الفضل والتشريف وكم من موضع في القرآن قدم فيـــه أهل الشر على أهل الخير و المفضولون على الفاضلين ، فقد قال تعالي : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } النساء ٩٥ وقال عـــز وجل { قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ (١٠٠) } المائدة . وقال تعالي: { لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) } الحشر

المراد بهذه الأصناف :

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – :قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى (فمنـــهم ظـــالم لنفسه) وهو : المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات (ومنهم مقتصد) وهو : المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو الفاعل للواجبات والمـــستحبات التـــارك للجمعـــة للمحرمـــات والمكروهات[3].

قال الرازي – رحمه الله – : والمختار هو أن الظالم : من خالف فترك أوامر الله وارتكـــب مناهيه ، فإنه واضع للشيء في غير موضعه ، والمقتصد :هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق ، والسابق: هو الذي لم يخالف بتوفيق الله . ويدل عليه قوله تعالى: { بإذن الله } أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو ســـابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس ، والمقتصد يقع في قلبه فتردده النفس، والظـــالم تغلبه النفس، ونقول بعبارة أخرى : من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقصد ومن قهر نفسه فهو السابق[4].

---

(١) ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٢٧

(٢) ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٢٧

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٤

(٤) تفسير الرازي ١٣ / ٥٥

والإشارة في قوله (ذلك هو الفضل الكبير) إلى الاصطفاء المفهوم من (اصطفينا) أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب.

والفضل : الزيادة في الخير، والكبير مراد به ذو العظم المعنوي وهو الشرف وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإيمان والإسلام. وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى: ظالم، ومقتصد، وسابق. وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل.

ووجه هذا الانحصار أن هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل ٩٧]، وقال : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً }[النور٥٥] .(١)

وقوله تعالي :(جنات عدن يدخلونها) أي : جنات إقامة من عدن بالمكان إذا أقام به قال الراغب : : ﴿جنات عدن﴾ أي: استقرار وثبات، وعدن بمكان كذا: استقر، ومنه المعدن : لمستقر الجواهر.(٢)

وقوله تعالي :(يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) من الأولى تبعيضية ، والثانية بيانية أي : يحلون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها ولؤلؤا بالنصب عطفا على محل من أساور وقرىء بالجر عطفا على " ذهب " أي : من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب في صفاء اللؤلؤ.(٣)

قال الجمل : ولا حاجة لهذا – أي للقول بأن الذهب مرصع باللؤلؤ – بل المنقول أنهم يحلون فيها أسورة من ذهب وأسورة من فضة وأسورة من لؤلؤ . وفي تذكرة القرطبي : قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ (٤).

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية : يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة مأواهم جنات عدن أي : جنات

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٤

(٢) مفردات القرآن ٣٣٧ مادة " عدن "

(٣) تفسير أبو السعود ٧ /١٥٣

(٤) حاشية الجمل ٣ / ٤٩٦ وانظر : التذكرة ص ٥٩٣

الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله – عز وجل – يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤا كما ثبت في الصحيح[1] عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)[2].

وقوله تعالي : (ولباسهم فيها حرير)

قال النسفي : (ولباسهم فيها حرير) لما فيه من اللذة والزينة[3] ونظير هذه الآية ما ذكره الله تعالي في آيات أخري بقوله : {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) } الحج. وقوله تعالي :{ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ... (٣١) }الكهف. وقوله تعالي :{ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) }الإنسان .

قال الرازي – رحمه الله –:الثالث: قوله : {من أساور } بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله: {ولباسهم فيها حرير } ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى الرابع : ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى: {وحلوا أساور من فضة } وذلك لأن التحلي بمعنيين أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلئ والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلئ يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي.[4]

هل يحرم أهل الجنة من شيء ؟

ذكر العلماء أن من لبس الحرير في الدنيا ثم لم يتب حرم منه يوم القيامة واستدلوا علي

(١) صحيح البخاري كتاب اللباس : ،باب : نقض الصور ٥ / ٢٢٢٠ / وانظر مسلم الطهارة باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء١ / ٢١٨

(٢) ابن كثير ٥٥٨/٣

(٣) تفسير النسفي ٣ / ٣٤٢

(٤) تفسير الرازي ١٣ / ٥٧ – ٥٨

ذلك بما رواه بما رواه البخاري[1] ومسلم .

عن عمر– رضي الله عنه – قال : سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة).

وعن أنس– رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة) .

قال الشوكاني – رحمه الله – : الحديثان يدلان على تحريم لبس الحرير لما في الأول من النهي الذي يقتضي بحقيقته التحريم وتعليل ذلك بأن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة والظاهر أنه كناية عن عدم دخول الجنة وقد قال الله تعالى في أهل الجنة (ولباسهم فيها حرير) الحج. فمن لبسه في الدنيا لم يدخل الجنة .[2]

وقال بعض العلماء : ليس المراد أنه يحرم من دخول الجنة بل إنه يحرم من لبسه ولو دخل الجنة بحيث لا يشتهيه ولا تتطلع نفسه إليه .

وهذا رجحه ابن عبد البر[3] فقال وهذا أولى بالصواب إن شاء الله مستدلا بحديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ولو دخل الجنة يلبسه أهل الجنة ولا يلبسه هو)[4]

ونقل القرطبي في التذكرة عن أبي عمرو ابن عبد البر أنه قال : هذا عندي علي النحو الذي نزعنا في شارب الخمر أنه إذا دخل الجنة لا يشرب فيها خمراً ولا يذكرها ولا يراها ولا تشتهيها نفسه , فكذلك لابس الحرير في الدنيا إن لم يتب منه . قلت : وكذلك من استعمل آنية الذهب والفضة ولم يتب من استعمالها .[5]

وقوله تعالي : (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ...) . هذا بيان لما يقوله أهل الجنة بعد أن أزاح عنهم ر بهم كل كرب وأدخلهم دار النعيم فيحمدونه تعالي علي هذا الفضل العظيم .

---

(١) صحيح البخاري – كتاب اللباس ، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال٥ / ٢١٩٤ عن أنس . و صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال عن عبد الله بن الزبير٣ / ١٦٤٥.

(٢) نيل الأوطار ٢ / ٧٢

(٣) ينظر : التمهيد لابن عبد البر ١٤ / ٢٤٧

(٤) صحيح ابن حبان ١٢ / ٢٥٣ قال شعيب الأرنؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح غير داود السراج مسند الطيالسي ١ / ٢٩٤ وقال الحافظ في الفتح [/ ٣٢] أخرجه الطيالسي وصححه بن حبان.

(٥) التذكرة ٥٩٤

قال ابن الجوزي – رحمه الله – : ثم أخبر عما يقولون عند دخولها وهو قوله : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) والحَزَن والحُزْن : واحد كالبَخَل والبُخْل وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال :

أحدها : أنه الحزن لطول المقام في المحشر .

والثاني : أنه الجوع رواه أبو الدرداء .

والثالث : أنه حزن النار رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والرابع : حزنهم في الدنيا على ذنوب سلفت منهم رواه عكرمة عن ابن عباس والخامس : حزن الموت قاله عطية .

والآية عامة في هذه الأقوال وغيرها ومن القبيح تخصيص هذا الحزن بالخبز وما يشبهه وإنما حزنوا على ذنوبهم وما يوجبه الخوف . أ . هـ [1]

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – :(وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) رواه ابن أبي حاتم من حديثه .

وقال الطبراني حدثنا جعفر بن محمد الفريابي حدثنا موسى بن يحيى المروزي حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي عن عبد العزيز بن حكيم عن ابن عمر– رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات . أ . هـ [2] .

وقد أخبر الله – عز وجل – في آيات أخري بأن أهل الجنة إذا عاينوا الجنة ورأوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك الحمد لله .

قال تعالي مخبراً عن ذلك :{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) } الأعراف

(١) زاد المسير ٦ / ٤٩١

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥٨

وقال – عز وجل – : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)} يونس.

وقال – جل ثناؤه – : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) } الزمر

وقوله تعالى: (الذي أحلنا دار المقامة من فضله) أي : الإقامة لا نبرح ولا نفارقها يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة (من فضله) من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا .[١]

وقوله تعالى : (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيا لغوب) بيان لما يجده أهل الجنة من راحة ونعيم , فلا يمسهم فيها تعب أبدا , ولا ينالهم أدنى عناء أو مشقة فهم ينالون ما شاءوا من الطيبات دون جهد أو عمل .

" والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو شدة حر وشدة برد. واللغوب: الإعياء من جراء عمل أو جري." [٢] وقد يقال : لما أعاد الفعل المنفي في قوله (ولا يمسنا فيها لغوب) مع أن قوله : (لا يمسنا فيها نصب) يكفي عن ذلك ؟

والجواب : أعاده لتأكيد انتفاء المس. المرجع السابق .

وقيل: النصب تعب البدن واللغوب تعب النفس ونفي أحدهما لا يستلزم نفي الآخر.[٣]

ما ذكره الرازي بقوله : " ... ما قاله الله في غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين:

أحدهما: موضع نمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي.

والآخر: موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات , فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعدما يستريح فقال تعالى: { لا يمسنا فيها نصب } أي : ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي، فقال: {ولا يمسنا فيها لغوب } أي: لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء .

وقرىء {لغوب } بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك، وهذا لأن القوي السوي إذا قال ما تعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئا لجواز أنه عمل عملا لم يكن بالنسبة إليه متعبا لوقته.

---

(١) النسفي ٣ / ٣٤٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٧

(٣) حاشية الجمل ٣ / ٤٩٦

فإذا قال ما مسني ما يصلح أن يكون متبعا يفهم أنه لم يعمل شيئا لأن نفس العمل قد يصَلح أن يكون متعبا لضعيف أو متعبا بسبب كثرته . [1]

ما يؤخذ من الآيات :

١- أن الأمة المحمدية أمة مختارة ومصطفاة من بين سائر الأمم ولذلك أعطاهم الله تعالي آخر كتبه فهو عطية لجميعهم حتي لمن لم يحفظه لأنه قدوته وفيه هدايته وبركته .

٢- من شرف هذه الأمة انهم وإن كانوا ليسوا علي وتيرة واحدة من الإحسان بل هم أقسام فمنهم الظالم لنفسه والمقتصد والسابق ومع ذلك فكلهم في الجنة وهذا شيء من كرم الكريم وحلم الحليم سبحانه وتعالي .

٣- أن تقديم الشيء علي غيره في الذكر لا يعني تفضيله عليه فالله تعالي قدم الظالم – في الذكر- علي المقتصد والسابق مع أنه دونهم في الرتبة .

٤- أن ما يفعله العبد من طاعات راجع إلى فضل الله وتوفيقه وتيسيره .

٥- من تمام شكر المؤمنين في الجنة ومن المبالغة في التأدب ذكرهم أن من فضل الله عليهم أن جعل لهم الجنة جزاء على الأعمال الصالحة لأنه لو شاء لما جعل للصالحات عطاء ولكان جزاؤها مجرد السلامة من العقاب،وكان أمر من لم يستحق الخلود في النار كفافا، أي لا عقاب ولا ثواب فيبقى كالسوائم، وإنما أرادوا من هذا تمام الشكر والمبالغة في التأدب.

٦- أن الجنة دار الخلود والنعيم فلا هم فيها ولا حزن ولا تعب .

(١) الرازي ١٣ / ٥٩ – ٦٠

من أحوال أهل النار وأقوالهم

قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ{٣٦} وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ{٣٧} ﴾

مناسبة النص الشريف لما قبله :

لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم[١] .

المفردات :

لا يقضي عليهم : القضاء: حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى : {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}[القصص : ١٥] . وهو هنا محتمل للحقيقة، أي لا يقدر الله موتهم، فقوله (فيموتوا) مسبب على القضاء. والمعنى : لا يقضي عليهم بالموت فيموتوا، ومحتمل للمجاز وهو الموت[٢] .

يصطرخون : أي يصيحون ويصرخون من شدة العذاب .

قال في اللسان : الصَّرْخَةُ الصيحة الشديدة عند الفزع أَو المصيبة ، وقيل الصُّراخُ الصوت الشديد ما كان ، صرخ يصرُخُ صُراخاً ، والصريخ المستغيث وفي المثل عَبْدٌ صَريخُهُ أَمَةٌ أَي ناصره أَذل منه وأَضعف ، والصارخ المستغيث والمصرخ المغيث والمستصرخ المستغيث ، الاستصراخ الاستغاثة والاستصراخ الاغاثة ،قال ابن الأَثير اسْتُصْرِخ الإِنسان إِذا أَتاه الصارخ وهو الصوت يعلمه بأَمر حادث ليستعين به عليه أَو ينعى له ميتاً واسْتَصْرَخْتُهُ إِذا حملته على الصراخ ، واصْطَرَخَ القَومُ وتصارخوا واستصرخوا: استغاثوا .[٣]

نعمركم : التعمير المد في الحياة وتطويل العمر . عَمِرَ الرجلُ يَعْمَرُ عَمَراً وعَمارةً وعَمْراً وعَمَر يَعْمُرُ

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٤٣٤

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٧ – ٣١٨ .

(٣) ينظر : لسان العرب ٣ / ٣٣ مادة " صرخ "

ويَعْمِر الأخيرة عن سيبويه كلاهما عاشَ وبقي زماناً طويلاً قال لبيد :

وعَمَرْتُ حَرْساً قبل مَجْرَى داحسٍ لو كان للنفس اللَّجُوجِ خُلُودُ

ومنه قولهم أَطال الله عَمْرَك وعُمْرَك وإن كانا مصدرين بمعنًى إلا أنه استعمل في القسم أَحدُهما وهو المفتوح وعَمَّرَه الله وعَمَرَه أَبقاه وعَمَّرَ نَفْسَه قدَّر لها قدْراً محدوداً . (١)

والتعمير : إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء .(٢)

فذوقوا : – الذوق : وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فإن ما يكثر منه يقال له : الأكل واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب لأن ذلك – وإن كان في التعارف للقليل – فهو مستصلح للكثير فخصه بالذكر ليعم الأمرين وكثر استعماله في العذاب نحو : { ليذوقوا العذاب } [النساء / ٥٦] { وقيل لهم ذوقوا عذاب النار } [السجدة / ٢٠] { فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون } [الأنفال / ٣٥] { ذق إنك أنت العزيز الكريم } [الدخان / ٤٩] { إنكم لذائقوا العذاب الأليم } [الصافات / ٣٨] { ذلكم فذوقوه } [الأنفال / ١٤] { ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر } [السجدة / ٢١] وقد جاء في الرحمة نحو : { ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة } [هود / ٩] { ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته } [هود / ١٠] ويعبر به عن الاختبار فيقال : أذقته كذا فذاق ويقال : فلان ذاق كذا وأنا أكلته أي : خبرته فوق ما خبر وقوله : {فأذاقها الله لباس الجوع والخوف } [النحل / ١١٢] فاستعمال الذوق مع اللباس من أجل أنه أريد به التجربة والاختبار أي : فجعلها بحيث تمارس الجوع والخوف وقيل : إن ذلك على تقدير كلامين كأنه قيل : أذاقها طعم الجوع والخوف وألبسها لباسهما . وقوله : { وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة } [الشورى / ٤٨] فإنه استعمل في الرحمة الإذاقة وفي مقابلتها الإصابة فقال : { وإن تصبهم سيئة } [الشورى / ٤٨] تنبيها على أن الإنسان بأدنى ما يعطى من النعمة يأشر ويبطر إشارة إلى قوله : { كلا إن الإنسان ليطغى ... أن رآه استغنى } [العلق / ٦ – ٧] (٣)

نصير : معين , ومخلص ومنجي من العذاب قال في القاموس : نصَرَ المَظْلومَ : أعانَهُ. ونَصَرَهُ منه: نَجَّاهُ وخَلَّصَهُ .(٤)

المعنى العام :

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة حال السعداء ذكر هنا حال الأشقياء فذكر تعالى أن الذين كفروا بالله ورسله ، لهم نار جهنم مخلدين فيها لا حظ لهم في الجنة ولا نعيمها، لا يقضى

(١) ينظر : لسان العرب ٤ / ٦٠١ مادة " عمر "

(٢) ينظر : مفردات القرآن ٣٥٩

(٣) ينظر : المرجع السابق ١٨٥ – ١٨٦ .

(٤) ينظر : القاموس المحيط ٢ / ١٤٨

عليهم بالموت فيموتوا لأنهم لو ماتوا لاستراحوا من العذاب ، ولا يخفف عنهم العذاب ، بل هم في عذاب دائم ، وهكذا يكافئ كل جحود لنعم ربه يوم القيامة بأن يدخلهم نار جهنم بسيئاتهم التي قدموها في الدنيا ، وهم يصيحون في النار من شدة ما نابهم من عذاب ويستغيثون ويضجون في النار يقولون : يا ربنا أخرجنا نعمل بطاعتك غير الذي كنا نعمل قبل من معاصيك فلا يجيبهم الله تعالى إلى ذلك ؟ فقد عاشوا في الدنيا أعمارا طويلة ، فلو كانوا متبعين للحق منتفعين به لانتفعوا به في مدة عمرهم السابقة . فقد عمرهم الله تعالى من السنين ما يتذكر فيه من تذكر من ذوي الألباب والعقول واتعظ منهم من اتعظ وتاب من تاب وجاءكم من الله منذر ينذركم ما أنتم فيه اليوم من عذاب الله فلم تتذكروا مواعظ الله ولم تقبلوا من نذير الله الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم ، فذوقوا اليوم العذاب فليس لكم ناصر من الذين زعمتم أنهم أولياؤكم ونصراؤكم[1] .

الشرح والبيان :

قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا }

يبين الله تعالى في هذه الآية دار الكفار وأن لهم نار جهنم خالدين فيها لا يموتون فيها ولا يستريحون من عذابها ، وهذا في مقابلة أهل التوحيد الذين سبق ذكرهم ، فلهم الجنة

يقول الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) هذا مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان ، وفي قوله تعالى في الكفار (ولا يخفف عنهم من عذابها) إيماء إلى أن نار عقاب المؤمنين خفية عن نار المشركين .[2]

فالخلود في النار وعيد الكفار، وأما أهل التوحيد فمن دخلها من عصاتهم فلا يخلد فيها.

روي الإمام مسلم – رحمه الله – عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – : أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية . [3]

وقوله تعالى:{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} أي

(١) المعني العام مقتبس من تفسير ابن جرير وابن كثير٣ / ٥٥٨– ٥٥٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٧

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار جزء ١ / ١٦٧

يستغيثون ويرفعون أصواتهم بشدة قائلين: ربنا. أو يصيحون ويصرخون بقولهم ربنا.

قال السمين الحلبي : قوله (ربنا) علي إضمار القول وذلك القول إن شئت قدرته فعلا مفسرا ليصطرخون أي : يقولون في صراخهم (ربنا أخرجنا) وإن شئت قدرته حالا من فاعل (يصطرخون) أي : قائلين (ربنا) ، ويصطرخون يفتعلون من الصراخ ، وهو شدة رفع الصوت ، فأبدلت التاء صاداً لوقوعها قبل الطاء .[1]

والمعني : يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردنا إلى الدنيا { نعمل صالحا } قال ابن عباس نقل : لا إله إلا الله وهو معنى قولهم : { غير الذي كنا نعمل } أي من الشرك أي نؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية ونمتثل أمر الرسل .[2] ، وهذا وعد بالتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة ولكنها إنابة بعد فوات أوانها .

مقدار هذا التعمير ا الذي هو حد للتذكير :

ثم أخبر الله عز وجل بأنه عمرهم في الدنيا مدة كانت تكفيهم للإيمان فقال : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) .

والاستفهام للتقريع والتوبيخ والواو للعطف على مقدر كما في نظائره وما نكرة موصوفة : أي أو لم نعمركم عمرا يتمكن من التذكر فيه من تذكر .[3]

و في مقدار هذا التعمير الذي هو حد للتذكير أقوال :

أحدها : أنه سبعون سنة قال ابن عمر هذه الآية تعبير لأبناء السبعين .

والثاني : أربعون سنة .

قال ابن عطية : وهذا قول حسن ورويت فيه آثار وروي : أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه وقال بابي وجه لا يفلح .

وقال مسروق بن الأجدع من بلغ أربعين سنة فليأخذ حذره من الله .

ومنه وقول الشاعر :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتي حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

والثالث : ستون سنة قال ابن عباس وغيره : الحد في ذلك ستون وهي من الأعذار.

والرابع : ثماني عشرة سنة قاله عطاء ووهب بن منبه وأبو العالية وقتادة .[4]

أقول : والذي جاء من طريق صحيح من هذه الآثار أنه ستون سنة .

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٥ / ٤٧٠

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٣٤

(٣) فتح القدير ٤ / ٥٠٣

(٤) – زاد المسير ٦ / ٤٩٤

وقد ترجم البخاري –رحمه الله– باب: (من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر)

ثم روي عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة . [1]

قال الخطابي – رحمه الله : (أعذر إليه) أي بلغ به أقصى العذر ومنه قولهم : قد أعذر من أنذر أي أقام عذر نفسه في تقديم نذارته والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر لأن الستين قريب من معترك المنايا وهو سن الإنابة والخشوع وترقب المنية ولقاء الله تعالى ففيه إعذار بعد إعذار الأول بالنبي – صلى الله عليه وسلم – والموتان في الأربعين والستين . [2]

المراد بـ (النذير) وقوله تعالي :

وقوله { وجاءكم النذير } معطوف علي قوله تعالي (أولم نعمركم) .

قال صاحب الكشاف – رحمه الله – : فإن قلت : علام عطف وجاءكم النذير ؟ قلت : على معنى : أو لم نعمركم ؛ لأن لفظه لفظ استخبار . ومعناه معنى إخبار كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير .[3]

وفي المراد بالنذير هنا أقوال لخصها ابن الجوزي – رحمه الله – فقال : قوله : (تعالى وجاءكم النذير) فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشيب قاله ابن عمر وعكرمة وسفيان بن عيينة والمعنى أولم نعمر كم حتى شبتم

والثاني : النبي– صلى الله عليه وسلم – قاله قتادة وابن زيد وابن السائب ومقاتل.

والثالث : موت الأهل والأقارب .

والرابع : الحمى . [4]

أقول : وهذه الأقوال لا تعارض بينها إذ كل ما ذكر فيها من النذر ، فالرسل – عليهم السلام – نذر ، والأمراض نذر، والشيب والهرم نذر ، وموت الأقران والأقارب نذر وإن كان حمل الآية علي الرسل هو المتبادر إلي الذهن والظاهر منها .

قال أبو حيان–رحمه الله–:والنذير جنس وهم الأنبياء كل نبي نذير أمته وقرىء: (النذر) جمعاً.[5]

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى : { وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ

---

(١) – صحيح البخاري – كتاب الرقائق – باب : من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر جزء ٥ – صفحة ٢٣٥٩ برقم ٦٠٥٥

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ٤٣٤ ٥ – ٥٤٣٥

(٣) الكشاف ٣ / ٣١١

(٤) زاد المسير ٦ / ٤٩٤ .

(٥) تفسير البحر المحيط ٧ / ٣٠٢

كَارِهُونَ }[الزخرف : ٧٧ – ٧٨] أي : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتهم وقال تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }الإسراء١٥ .وقال تبارك وتعالى : { كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ } [الملك : ٨ – ٩].أ . هـ [١]

وقوله تعالى : (فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) الفاء هنا لترتيب الأمر بالذوق علي ما قبلها من التعمير ومجيء النذر .

أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسأوا في جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذابها الذين كنتم تكذبون به في الدنيا ، فليس للمصرين علي كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئاً من العذاب الذي يستحقونه .[٢]

ما يستفاد من النص الشريف :

١ – أن عذاب الكفار في النار دائم , وأنهم لا يستريحون منه ، بتخفيف أو موت .

قال الرازي – رحمه الله – :

العذاب في الدنيا إن دام كثيراً يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجاً فاسداً متمكناً لا يحس به المعذب ٬ فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، إما أن يفني وإما أن يألفه البدن ٬ بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم .[٣]

٢ – أن صراخ الكفار في النار ، وطلبهم الرجوع الي الدنيا ٬ وعدم الاستجابة لهم ، فيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه وأما المعذب فلا .[٤]

٣ – علي الإنسان أن يتعظ بتقدم العمر ، وبالأمراض ٬ وبفقد الأقران ، وبالشيب ، فهذه الأشياء وما شاكلها من نذر المنايا ، ولله در القائل :

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير

وقائلة تخضب يا حبيبي ... وسود شعر شيبك بالعبير

فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسوداً وجه النذير[٥]

(١) تفسير ابن كثير جزء ٣ /٧٣٥

(٢) التفسير الوسيط ١١ / ٢٦٣

(٣) تفسير الرازي : ص٦٠

(٤) المرجع السابق ص ٦١

(٥) الأبيات من تفسير الألوسي ٢٢ / ٢٩٩

تبكيت المشركين ومناظرتهم
وبيان فساد عقيدتهم

قال تعالي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٣٨} هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً{٣٩} قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً{٤٠} ﴾

المناسبة :

بعد أن بين الله تعالي في الآيات السابقة ، عذاب الكفار وأنهم دائمون في نار جهنم، لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب ، بين هنا أنه لا يخفي عليه شيء وأنه عليم بخفايا الصدور , ومن مظاهر هذا العلم : أن الكفر متمكن من قلوبهم فلو ردوا إلي الدنيا لعادوا إلي الكفر .

قال الرازي : (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) تقريراً لدوامهم في العذاب وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) ولا يزاد عليها فلو قال قائل الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة فكان ينبغي أن لا يعذب إلى مثل تلك الأيام فقال تعالى إن الله لا يخفي عليه غيب السموات فلا يخفي عليه ما في الصدور وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .[1]

المفردات :

ذات الصدور : الأحوال المصاحبة لضمائر النفوس فالصدور أطلقت على ما حل فيها من النوايا والمضمرات فكلمة (ذات) بمعنى صاحبة وهي مؤنث " ذو " أحد الأسماء الخمسة فأصل ألفها الواو

(١) التفسير الكبير ٢٦ / ٦٣ – ٦٤

ووزنها " ذوت " انقلبت واوها ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها قال في الكشاف : قوله تعالى (إن الله عليم بذات الصدور) هي تأنيث ذو وذو موضوع لمعنى الصحبة من قوله : لتغني عني ذا إنائك أجمعا يعني إن ذات الصدور الحالة التي قرارتها الصدور فهي صاحبتها وساكنتها فذات الصدور النوايا والخواطر وما يهم به المرء وما يدبره ويكيده[1] .

خَلَائفَ : الخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه ؛ وإما لموته وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف . وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض.[2]

قال صاحب الكشاف : يقال للمستخلف : خليفة ؛ فالخليفة تجمع خلائف والخليف : خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصريف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة[3] .

مقتاً: المَقْتُ أَشَدُّ الإِبْغاضِ مَقُتَ مَقاتَةً ومَقَتَه مَقْتاً أَبْغضه ، وهو بغض شديد يكون عن أمر قبيح[4].

خسارا : مادة (خسر) تدور حول الضلال والغبن والنقص والهلاك .

قال في القاموس : خَسَرَ كفَرِحَ وضَرَبَ خَسْراً وخَسَراً وخُسْراً وخُسُراً وخُسْراناً وخَسارَةً وخَساراً : ضَلَّ فهو خاسِرٌ وخَسِيرٌ وخَيْسَرَى و التاجِرُ : وُضِعَ في تجارَتِه أو غُبِنَ . والخَسْرُ : النَّقْصُ كالإِخْسارِ والخُسْرانِ . خاسِرَةً : غيرُ نافِعةٍ . والخَنْسَرَى : الضَّلالُ والهلاكُ والغَدْرُ واللُّؤْمُ كالخَسارِ والخَسارَةِ والخَناسِيرِ[5] .

المعني الإجمالي :

لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين وذكر أعمال الفريقين أخبر عن سعة علمه تعالى واطلاعه على غيب السموات والأرض التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم وأنه عالم بالسرائر وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر فيعطى كلا ما يستحقه وينزل كل أحد منزلته

ثم أخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضا في الأرض ويرسل لكل أمة من الأمم النذر فينظر كيف يعملون فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله فإن كفره عليه وعليه إثمه وعقوبته ولا يحمل عنه أحد ولا يزداد الكافر بكفره إلا

(١) ينظر : الكشاف ٣ / ٣١١

(٢) مفردات القرآن ١٥٧ الكشاف ١ / ٢٧١

(٣) الكشاف ٣ / ٣١١

(٤) ينظر : اللسان ٢ / ٩٠ ، تاج العروس ٥ / ٩٥ ، مفردات القرآن ٤٩٠

(٥) القاموس المحيط ٢ / ٢٠

مقت ربه له وبغضه إياه وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم ؟ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا حيث يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران والخزي عند الله وعند خلقه .

ثم يقول تعالى معجزا لآلهة المشركين ومبينا نقصها وبطلان شركهم من جميع الوجوه قل يا أيها الرسول لهم أخبروني عن معبوداتكم من دون الله هل هم مستحقون للدعاء أروني هل خلقوا بحرا أم خلقوا جبالا أو خلقوا حيوانا أو خلقوا جمادا ؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى أم لهم مشاركة في خلق السموات وتدبيرها ؟ سيقولون ليس لهم شركة في ذلك فإذا لم يخلقوا شيئا ولم يشركوا الخلق في خلقه فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم ودل على بطلانها ثم ذكر الدليل السمعي وأنه أيضا منتف فلهذا قال أم آتيناهم كتابا يتكلم بما كانوا به يشركون يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان فهم في شركهم على بينة منه أي من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك ليس الأمر كذلك . فالرسل والكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله ، بل ذلك الذي مشوا عليه من الشرك ليس لهم فيه حجة وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال وأماني مناها الشياطين وزينت لهم سوء أعمالهم فنشأت في قلوبهم وصارت صفة من صفاتها فعسر زوالها وتعسر انفصالها فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل .[1]

الشرح والبيان :

الكفر تمكن في قلوب الكفار ولذلك استحقوا الخلود في النار :

قوله تعالي : (إنه الله عالم غيب السموات والأرض) كأنه تعليل لخلود الكفار في النار ، وأنه تعالي يعلم أنهم لو ردوا إلي الدنيا لعادوا إلى كفرهم وضلالهم . وبذلك ترد الآية علي من زعم أن النار تفني ، إذ الخلود فيها ينافي العدل الإلهي ذلك لأن الكافر ما كفر إلا مدة محدودة فالعدل إذن أن يعذب مدة محدودة .

وممن زعم بفناء النار : الجهم بن صفوان فقد زعم أن الجنة والنار تفنيان ويفني من فيهما!!![2]

قال الإمام الرازي – رحمه الله – (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ) تقريراً لدوامهم في العذاب وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) ولا يزاد عليها فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة فكان ينبغي أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام فقال تعالى

(١) تفسير السعدي ١ / ٦٩١

(٢) ينظر : الفرق بين الفرق ١ / ١٩٩

إن الله لا يخفي عليه غيب السموات فلا يخفي عليه ما في الصدور وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .(١)

وقول تعالي : (إنه عليم بذات الصدور) قيل إنه تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها . (٢)

فالآية الكريمة كالتعليل لخلود الكفار في النار وهي أيضاً تأكيد علي عدم النصير لهم مهما طال تضرعهم واستغاثتهم .

يقول الألوسي – رحمه الله – : ويمكن أن يقال إن قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) متضمن نفي أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار ومستدع خلودهم في العذاب فكان مظنة أن يقال : كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار والعادة في الشاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه ؟ فأجيب : بأن الله عالم غيب السموات والأرض على معنى أنه تعالى محيط بالأشياء علما فلو كان لهم نصير في وقت من الأوقات لعلمه ولما نفى ذلك على سبيل الاستمرار. وكذا مظنة أن يقال كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلموا في أيام معدودة ؟ فأجيب بأنه عليم بذات الصدور على معنى أنه تعالى يعلم ما أنطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فكل من الجملتين مستأنف استئنافا بيانيا فتأمل .(٣)

خلافة الأرض نعمة من الله يجب أن تقابل بالإيمان والشكر

وقوله تعالي : (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) يحتمل أن يكون معناه تخلفون من سبقكم فيها من عاد وثمود وغيرهم وأورثكم ما كان بأيديكم من متاع الدنيا وهذا يوجب عليكم أن تشكروه بالإيمان والطاعة .

قال ابن جرير – رحمه الله – : يقول تعالى ذكره : الله الذي جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض من بعد عاد وثمود ومن مضى من قبلكم من الأمم فجعلكم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم كما حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن .(٤)

ويحتمل أن يكون المعني : هو استخلفكم في الأرض وألقي اليكم أمور التصرف فيها .

---

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ٦٣

(٢) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٥

(٣) روح المعاني ٢٢ / ٣٠٠

(٤) تفسير الطبري ٢٢

قال العلامة أبو السعود – رحمه الله – : يقال للمستخلف خليفة والأول يجمع خلائف والثاني خلفاء والمعنى : أنه تعالى جعلكم خلفاءه في أرضه والقي إليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها . (١)

وقوله تعالي : (فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) أي : من كفر بهذه النعمة فإن وبال كفره يعود إلية ولا يتعداه إلى غيره . (٢)

وقوله تعالي : (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً) أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين فانهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه رب العالمين .

يقول الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – : وتركيب جملة (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) تركيب عجيب لأن ظاهره يقتضي أن الكافرين كانوا قبل الكفر ممقوتين عند الله فلما كفروا زادهم كفرهم مقتا عنده في حال أن الكفر هو سبب مقت الله إياهم ولو لم يكفروا لما مقتهم الله . فتأويل الآية : أنهم لما وصفوا بالكفر ابتداء ثم أخبر بأن كفرهم يزيدهم مقتا علم أن المراد بكفرهم الثاني الدوام على الكفر يوما بعد يوم ، وقد كان المشركون يتكبرون على المسلمين ويشاقونهم ويؤيسونهم من الطماعية في أن يقبلوا الإسلام بأنهم أعظم من أن يتبعوهم وأنهم لا يفارقون دين آبائهم ويحسبون ذلك مقتا منهم للمسلمين فجازاهم الله بزيادة المقت على استمرار الكفر قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ } [غافر –١٠] يعني : ينادون في المحشر وكذلك القول في معنى قوله (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) والخسار : مصدر خسر مثل الخسارة وهو : نقصان التجارة . واستعير لخيبة العمل شبه عملهم في الكفر بعمل التاجر والخاسر أي : الذي بارت سلعته فباع بأقل مما اشتراها به فأصابه الخسار فكلما زاد بيعا زادت خسارته حتى تفضي به إلى الإفلاس . (٣)

عبادة الأصنام ليس علي صحتها دليل عقلي ولا نقلي :

وقوله تعالي : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)

(١) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٥

(٢) ينظر : القرطبي ٨ / ٥٤٣٧ والشوكاني ٤ / ٣٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٢٣

أي : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات .

وهنا يكون القرآن قد حاكم هؤلاء المشركين إلي عقولهم ، إذ هذه الشركاء العاجزة التي لم تخلق شيئا ، لا تستحق العبادة ، وإنما المستحق للعبادة الخالق المتفرد بخلق السموات والأرض .

وهذا قرره القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالي : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } الأعراف١٩١. وقوله تعالي : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } النحل ١٧ . وقوله تعالي : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } الحج٧٣ . وقوله تعالي : { قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }الأحقاف٤.

وإنما أوثر انتفاء الشركة بالنسبة للشركة في السماوات دون انتفاء الخلق كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها وأن ليس لما يدعونهم دون الله أدنى عمل في إيجادها وأما الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطورها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام في إيجاد شيء منها ولكن لما لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه . (١)

وقوله تعالي : (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ) نفي لإلهية معبوداتهم الباطلة بالدليل النقلي بعد أن نفي إلاهيتها بالدليل العقلي .

والمعني : أم أنزلنا عليهم كتابا بالشركة فهم على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب ، والضمير في (آتيناهم) يجوز رجوعه إلي الشركاء ويجوز رجوعه إلي المشركين .

قال العلامة أبو السعود – رحمه الله – : (أم آتيناهم كتابا) ينطق بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين .(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦ / ١٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ج٧:ص١٥٥

ونظير هذه الآية قوله تعالي : { أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } [الروم : ٣٥]

من أسباب عبادة الأصنام خداع السادة لمن دونهم بأنها تنفعهم وتقربهم وتنصرهم :

وقوله تعالي : (بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً) لما نفى سبحانه ما نفى من الحجج في ذلك أضرب – عزوجل – عنه بذكر ما حملهم على الشرك وهو تقرير الأسلاف للأخلاف وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله تعالى يشفعون لهم بالتقرب إليهم والآية عند الكثير في عبدة الأصنام وحكمها عام وقيل في عبدة غير الله – عزوجل – صنما كان أو ملكا أو غيرهما .(١)

وقد جاءت آيات الكتاب المجيد مصرحة بأن من أقوي أسباب الشرك خداع السادة للسفلة بأن هذه المعبودات الباطلة تنفعهم ، وتزيين الكفر لهم ، وكم من دين أفسده الملوك ، وكم من عقيدة شوهوها بالشرك ، وكم من تعاليم السماء طمسوها ومسخوها ، لاسيما وإن انضم إليهم علماء سوء ، فحدث عن فسادهم للأديان ولا حرج ، وما أحسن ما قال عبد الله بن المبارك – رحمه الله – :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها .

ويصور القرآن الكريم موقف هؤلاء السادة وأتباعهم يم القيامة فيقول : ﴿(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ{٣١} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ{٣٢} وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٣٣ })﴾ [سورة : سبأ] .

ما يؤخذ من الآيات :

١ــ أن الكفار مخلدون في النار لتمكن الكفر في قلوبهم وإصرارهم عليه والله تعالي عالم بأنهم لن يقلعوا عن الكفر أبدا ، لذلك استحقوا العذاب الدائم .

٢ــ العمر كرأس المال والرابح هو من يشتري به رضا الله تعالي .

٣ــ الخلافة في الأرض ، وتسخيرها للإنسان ، وتمكينه من التصرف فيها ، والانتفاع بها ، من

(١) روح المعاني ٢٢ / ٣٠٣

دواعي شكر الله – عز وجل .

٤ــ أن الكافر يتحمل وحده نتيجة كفره ، وأن التبعة فردية ، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً .

٥ــ أن هذا الكون العظيم من إبداع الله وحده , وهو يحمل آثار صنعته ، وليس لأحد تدخل في إيجاده ولو بمجرد الشركة ، لذلك فالله وحده المستحق للعبادة ، أما باقي المعبودات الباطلة ، فلا تستحق العبادة لأنها لم تخلق شيئاً .

٦ــ أن المشركين لم يترل عليهم كتاب من عند الله يأمرهم بعبادة الأصنام ، لذلك كل معبود من دون الله – عز وجل – عبادته باطلة عقلاً ونقلاً .

٧ــ الذي حمل الكفار علي عبادة غير الله – عز وجل – : الأماني الباطلة ، وخداع الرؤساء للسفلة ، بأن هذه المعبودات ستشفع لهم ، وأن طريقتهم هي المثلي ، وأنهم المنتصرون في النهاية ، وما هذا في الحقيقة إلا غروراً غرهم الشيطان ، وأباطيل زينها الرؤساء للأتباع .

بيان عظيم قدرة الله وموقف قريش من موقف كفار مكة من النبي ﷺ

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{٤١} وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً{٤٢} اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً{٤٣} ﴾

المناسبة :

لما بين أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السماوات والأرض بين أن خالقهما وممسكهما هو الله فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ولا يبقى إلا ببقائه . (١)

المفردات :

يمسك : إمساك الشيء : التعلق به وحفظه . قال تعالى : { فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان } [البقرة / ٢٢٩] وقال : { ويمسك السماء أن تقع على الأرض } [الحج / ٦٥] أي : يحفظها واستمسكت بالشيء : إذا تحريت الإمساك . قال تعالى : { فاستمسك بالذي أوحي إليك } [الزخرف / ٤٣] وقال : { أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون } [الزخرف / ٢١] ويقال : تمسكت به ومسكت به قال تعالى : { ولا تمسكوا بعصم الكوافر } [الممتحنة / ١٠] . يقال : أمسكت عنه كذا أي : منعته . قال : { هن ممسكات رحمته } [الزمر / ٣٨] وكني عن البخل بالإمساك . (٢)

---

(١) ينظر : تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٣٨

(٢) ينظر : مفردات القرآن ٤٨٨ - ٤٨٩

تَزُولَا : الزَّوَال : الذّهاب والاسْتحالة والاضْمحْلال .[1]

جَهْدَ أَيْمَانهمْ : الجُهد بضم الجيم الوُسع والطاقة والجَهْدُ المبالغة والغاية ومنه قوله عزّ وجل (جَهْد أَيمانهم) أي : بالغوا في اليمين واجتهدوا فيها .[2]

إحْدَى الْأُمَم : الأَحَدُ بمعنى الواحد وهو أَوّل العَدد تقول أَحدٌ واثنان وأَحدَ عَشَرَ وإحدَى عَشْرة . وفُلانٌ أَحَدُ الأَحَدينَ محرّكةً فيهما وواحدُ الأَحَدينَ : هذا أَبلغُ المَدْحِ ويُقَال للأَمْرِ المُنَفاقم العَظيم المشتَدّ الصَّعْب الهَائل : إحْدَى – مؤنّث وأَلفُه للتأْنيث ، وإحْدَى الإحَد – إذا استعمل في العقلاء – : الّذي لا نَظير له . ويقال فلان إحْدى الإحَد أَي واحدٌ لاَ نظَير[3]

يَحيقُ : حاقَ به يَحيقُ حَيْقاً وحُيوقاً وحَيَقاناً : أَحاطَ به كأَحاقَ ، و بِهِم الأمرُ : لَزِمَهُم ووَجَبَ عليهم ونَزَلَ . وأَحاقَ اللّهُ بهم مَكْرَهم . والحَيْقُ : ما يَشْتَمِلُ على الا نْسان من مَكْرُوهِ فِعْلِه ، وحايَقَهُ : حَسَدَهُ وأَبْغَضَهُ .[4] و يحيق معناه يحيط ويحل ويزل ولا يستعمل إلا في المكروه .[5]

سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ : السَّنَنُ الطريقة يقال استقام فلان على سنن واحد ويقال امض على سَنَنِكَ وسُنَنِكَ أي على وجهك وتنح عن سَنَنِ الطريق و سُنَنِه و سِنَنِه ثلاث لغات و السُّنَّةُ السيرة[6]

المعنى العام :

يقول الله تعالى إن الله يمسك السماوات والأرض لئلا تزولا من أماكنهما ولو زالتا ما أمسكهما أحد سواه إن الله كان حليما عمن أشرك وكفر به من خلقه في تركه تعجيل عذابه له ، غفورا لذنوب من تاب منهم وأناب إلى الإيمان به والعمل بما يرضيه ، ثم ذكر عز وجل أن هؤلاء المشركين أقسموا بالله أشد الأيمان فبالغوا فيها لئن جاءهم من الله منذر ينذرهم بأس الله ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولا لما يأتيهم به النذير من عند الله من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم فلما جاءهم نذير ينذرهم عقاب الله على كفرهم ما زادهم مجيء النذير من الإيمان بالله واتباع الحق وسلوك هدى الطريق إلا نفورا وهربا ، نفروا استكبارا في الأرض وخدعة سيئة ، وذلك أنهم صدوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به ، ولا يزل المكر السيئ إلا بالذين يمكرونه ، ولا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم ، فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم ، فلن تجد يا محمد لسنة الله تغييرا ولن تجد لسنة الله في

(١) ينظر : لسان العرب ١١ / ٣١٣

(٢) ينظر : لسان العرب ٣ / ١٣٣

(٣) ينظر : تاج العروس ٧ / ٣٧٦

(٤) ينظر : تاج العروس ٢٥ / ٢١٢ ، اللسان ١٠ / ٧١

(٥) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤ / ٤٤٣

(٦) ينظر : مختار الصحاح ١ / ٣٢٦

خلقه تبديلا ولن يغير ذلك ولا يبدله لأنه لا مرد لقضائه ولن يغير الله سنته ، ولن يحول عذاب الله عن الأمم المكذبة أحد . [1]

الشرح والبيان :

السماء والأرض محفوظة بقدرة الله :

قوله تعالي (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا) هذا إثبات أن الله تعالي هو الحافظ بقدرته نظام السموات والأرض ، كما قال تعالي في سورة الحج : { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥) } وقال سبحانه : { إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ }(سبأ : ٩). فهذه النصوص تفيد أن الله تعالي هو الحافظ لنظام السماء والأرض وأنه هو الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض فتهلك من فيها وأنه لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها .

وقوله تعالي (أَن تَزُولَا) يجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي : كراهة أن تزولا وقيل : لئلا تزولا ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانياً علي إسقاط الخافض أي : يمنعها من أن تزولا ، ويجوز أن يكون بدل اشتمال ، أي : يمنع زوالها .[2] ، وعبر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التمثيل . [3]

وقوله تعالي (وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ) أى : ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه أو من بعد زوالهما ، والجملة سادة مسد جواب القسم والشرط ، ومعنى : لئلا تزولا أو كراهة أن تزولا قال الزجاج المعنى: أن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا فلا حاجة إلى التقدير ، قال الفراء أى : ولو زالتا ما أمسكهما من أحد ، وقيل المراد زوالهما يوم القيامة . [4]

قال أبو حيان : (وَلَئِن زَالَتَا) إن تدخل غالباً على الممكن فإن قدرنا دخولها على الممكن فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة عند طي السماء ونسف الجبال فإن ذلك ممكن ثم واقع بالخبر الصادق أي ولئن جاء وقت زوالهما ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفرض أي ولئن فرضنا زوالهما فيكون مثل لو في المعنى وقد قرأ ابن أبي عبلة (ولو زالتا) وإن نافية وأمسكهما في معنى المضارع جواب للقسم المقدّر قبل لام التوطئة في لئن .[5]

ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء . [6]

---

(١) المعني العام مقتبس من تفسير ابن جرير ٢٢ / ٩٤ – ٩٦ و ابن كثير ٣ / ٥٦١

(٢) الدر المصون ٥ / ٤٧٢

(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٢٧

(٤) فتح القدير ٤ / ٣٥٥

(٥) البحر المحيط ٧ / ٣٠٣

(٦) تفسير أبي السعود ٧ / ١٥٦

لولا حلم الله لزالت السماء والأرض :

وقوله تعالي (إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) حليماً حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب[1] .

قال أبو حيان – رحمه الله – : وقالت طائفة اتصافه بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفرة فيمسكها حلماً منه عن المشركين وتربصاً ليغفر لمن آمن منهم كما قال في آخر آية أخرى { تَكَادُ السَّمَاوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } [مريم : ٩٠] .[2]

وقال الزمخشري (حَلِيمًا غَفُورًا) غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكها وكانتا جديرتين بأن تهد هداً لعظم كلمة الشرك .[3]

موقف المشركين من النذير قبل وبعد مجيئه إليهم :

وقوله تعالي : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى) حكاية لما كان يقوله كفار قريش قبل مبعث النبي – صلي الله عليه وسلم – أقسموا لئن جاءهم نذير لا يكذبونه كما كذب أهل الكتاب رسلهم .

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم – حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فلعنوا من كذب نبيه منهم وأقسموا بالله – جل اسمه – (لئن جاءهم نذير) أي : نبي (ليكونن أهدى من إحدى الأمم) يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم نفروا عنه ولم يؤمنوا به .[4]

والمراد بـ (إحدى الأمم) اليهود والنصارى وغيرهم أو من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة .[5]

قال السمين الحلبي : قوله (من إحدى الأمم) أي من الأمة التي يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها كقولهم هو أحد الأحدين .[6]

---

(١) التفسير الكبير ٢٤ / ٦٦

(٢) تفسير البحر المحيط ٧ / ٣٠٤

(٣) الكشاف ٣ / ٣١٢

(٤) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٤٠

(٥) تفسير أبي السعود ج٧ / ١٥٦

(٦) الدر المصون ٥ / ٤٧٢

وقوله تعالي : (فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً) وأي نذير وهو أشرف الرسل محمد – صلى الله عليه وسلم – ما زادهم النذير أو مجيئه إلا تباعدا عن الحق وهربا منه وإسناد الزيادة إلى ذلك مجاز لأنه هو السبب لها والجملة جواب لما[1] .

سبب إعراض المشركين عن الدعوة :

وقوله تعالي : (اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ) أى نفروا لأجل الاستكبار والعتو ولأجل مكر السيء أي مكر العمل السيء أو مكروا المكر السيء والمكر هو الحيلة والخداع والعمل القبيح وأضيف إلى صفته كقوله مسجد الجامع[2] .

والخلاصة : إنه تبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفي الناس ، ولا صدق لهم مع جزمهم أنهم أصدق الخلق ، وصار مثلهم مثل الإبل التي نفرت من ربها ، فضلت عن الطريق ، فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها .[3]

المكر يعود ضرره علي الماكر :

وقوله تعالي : (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) بيان لشؤم المكر وأن ضرره يعود علي الماكر ويحيط به .

ومن كلام أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر .[4]

وللأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – كلاماً جميلاً هنا أذكره إتماماً للفائدة قال – رحمه الله – : وجملة (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) تذييل أو موعظة ويحيق : يترل بشيء مكروه حاق به أي نزل وأحاط إحاطة سوء أي لا يقع أثره إلا على أهله . وفيه حذف مضاف تقديره : ضر المكر السيء أو سوء المكر السيء كما دل عليه فعل (يحيق) فإن كان التعريف في (المكر) للجنس كان المراد ب (أهله) كل ماكر . وهذا هو الأنسب بموقع الجملة ومحملها على التذييل ليعم كل مكر وكل ماكر فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين فيكون القصر الذي في الجملة قصرا ادعائيا مبنيا على عدم الاعتداد بالضر القليل الذي يحيق بالممكور به بالنسبة لما أعده الله للماكر في قدره من ملاقاة جزائه على مكره فيكون ذلك من النواميس التي قدرها القدر لنظام هذا العالم لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض والله بنى نظام

(١) ينظر : الألوسي ٢٢ / ٣٠٥ – ٣٠٦
(٢) ينظر : فتح القدير ٤ / ٣٥٦
(٣) تفسير المراغي ج ٢٢ ص ١٣٩
(٤) جمهرة خطب العرب ١ / ٤٤٦

هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض لأن الإنسان مدني بالطبع فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضا تنكر بعضهم لبعض وتبادروا الإضرار والإهلاك ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم والله لا يحب الفساد ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء ولهذا قيل في المثل " وما ظالم إلا سيبلى بظالم " قال الشاعر :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها وقد قال الله تعالى :{ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ } [البقرة : ٢٠٥] . وفي كتاب ابن المبارك في الزهد بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تمكر ولا تعن ماكرا فإن الله يقول (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ومن كلام العرب " من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا " ومن كلام عامة أهل تونس " يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك " [1]

نواميس الله في الكون لا تتغير :

وقوله تعالي : (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)

أي : فهل ينتظرون إلا أن يترل العذاب بهم كما نزل بالأمم المكذبة قبلهم فلن تجد لسنة الله في العذاب تبديلا وإن تأخر ولن تجد لسنة الله تحويلا أي لا يقدر أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم .

ما يستفاد من الآيات :

١ – أن الله – عز وجل – هو الحافظ للسموات والأرض من الزوال والاضمحلال ومن كان هذا شأنه يجب أن يفرد بالعبادة .

٢ – من صفات الله تعالي الحلم والمغفرة لذا لم يعجل عذابه بالمشركين بل أمهلهم ، وأعطاهم الفرصة للتوبة والرجوع إليه .

٣ – بيان موقف المشركين من النبي وأنهم قبل الرسالة كانوا ينقمون ويعيبون علي اليهود انحرافهم وسوء سلوكهم وقتلهم لرسلهم وإعراضهم عن الحق ، وكان يقسمون بالله مشددين في القسم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدي منهم ، وبيان مسلكهم بعد ما جاءهم النذير وأنهم لم يتبعوه استكباراً وكفرا .

٤ – بيان شؤم المكر وأن ضرره يعود علي الماكر ، وأن وبال الماكر يعود عليه ، وأن الله تعالي يمهل ولا يهمل ، وأن هذه سنة الله في الكون لا تتبدل ولا تتغير .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٣٥

من الشواهد علي هلاك المكذبين وبيان أن المعاصي سبب للهلاك العام

قال تعالي : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً{٤٤} وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً{٤٥} ﴾

المناسبة :

لما هدد الله – عز وجل – فيما سبق كفار قريش بالعذاب وبين أن سنته في عذاب المكذبين ثابتة لا تتغير ساق هذه الآية لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده حيث حثهم علي الاتعاظ بما أنزل بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تتبدل ولا تتحول وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم .

المفردات :

يَسيرُوا: السَّيْرُ المضي والذَّهابُ في الأرض ، نهاراً وليلاً وأما السُّرَى فلا يكونُ إلا ليْلاً كالمَسير يقال: سارَ القومُ يَسيرونَ سَيْراً ومسيراً إذا امتدّ بهم السَّيْرُ في جهة توجَّهُوا لها والمَسيرَة : المَسَافَة التي يُسَارُ فيها من الأَرْض .(١)

عَاقِبة : عَقبُ كُلِّ شيء وعَقْبُه وعاقبُه وعاقبتُه وعُقْبَتُه وعُقْباهُ وعُقْبانُه آخرُه .(٢) وأَعْقَبه بطاعته أَي جازاه والعُقْبَى جَزاءُ الأَمْر. والعِقابُ والمُعاقَبة أَن تَجْزي الرجلَ بما فَعل سُوءًا والاسمُ العُقُوبة وعاقَبه

(١) ينظر : تاج العروس ١ / ٢٩٨٠

(٢) ينظر : لسان العرب ١ / ٦١١

بذنبه مُعاقَبة وعِقَاباً أَخَذَه به وتَعَقَّبْتُ الرجلَ إِذا أَخَذْتَه بذَنْبٍ كان منه.[1]

لِيُعْجِزَهُ : العجز الضعف وعدم إدراك الشيء وعدم القدرة عليه .

قال الراغب : والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي : مؤخره كما ذكر في الدبر وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة[2]

وقال ابن منظور : الإِعْجاز الفَوْتُ والسَّبْقُ يقال أَعْجَزَنِي فلان أَي فاتني ، وقال الليث أَعْجَزَنِي فلان إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه ، ويقال عَجَزَ يَعْجِزُ عن الأَمر إِذا قَصَرَ عنه. [3]

ظهرها : الظَّهْر من كل شيء خِلافُ البَطْن .[4]

واستعير لظاهر الأرض فقيل : ظهر الأرض وبطنها . قال تعالى : { ما ترك على ظهرها من دابة } [فاطر / ٤٥] .[5]

المعني العام

بعد أن هدد الله – تعالي – المشركين بجريان سنته فيهم ، بإهلاكهم كما اهلك المكذبين من قبلهم نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعرق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كما القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد وما أغني عنهم شيئاً ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما اجترحوا من سيئات ما ترك علي ظهر الأرض إنسانا يدب علي وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلي يوم القيامة فيحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ، وهو البصير بحال عباده[6] .

الشرح والبيان :

قوله تعالي :(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) يستنكر الله – عز وجل – علي كفار قريش المكذبين لنبيه محمد ﷺ يستنكر عليهم عدم اعتبارهم بأحوال الأمم الماضية وآثار القرون الخالية من عاد وثمود وغيرهم الذين كذبوا أنبياءهم وعصوا رسل فدمرهم الله تدميرا ولم يبق فيهم ساكن دار ولا نافخ نار وهذه آثارهم تشهد عما نزل بهم ، فهل عمي هؤلاء المشركون من كفار قريش عن التدبر فلم يتعظوا بهم .

---

(١) ينظر : لسان العرب ١ / ٦١٩

(٢) ينظر : مفردات القرآن ١ / ٩٥٢

(٣) ينظر : لسان العرب ٥ / ٣٦٩ مختار الصحاح ٤٦٧

(٤) لسان العرب ٤ / ٥٢٠

(٥) مفردات القرآن ١ / ٩٣٦

(٦) ينظر: تفسير المراغي – الشيخ أحمد مصطفي المراغي ٢٢ / ١٤١ الناشر مصطفي البابي الحلبي – الطبعة الرابعة/ ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : يقول تعالى : قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من نعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئا ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء .(١)

والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أي اقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .(٢)

أقول : إن حال الكثيرين في هذا الأمر كحال كفار قريش فإنهم إذا مروا بديار المهلكين لا يتعظون ولا يعتبرون بل إما يمرون غافلين معرضين وإما يقتصر أمرهم علي الإشادة بحضارة من سبقوهم والحديث عن قوتهم وعلمهم ، دون النظر إلي مصارعهم وسبب هلاكهم .

وقوله تعالي : (وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) هذه الجملة منصوبة علي الحالية والمعني : وكانوا اشد منهم قوة وأطول أعمارا فما نفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى .(٣)

وجيء بهذا الحال في هذه الآية لما يفيد موقع الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثارا للإيجاز لاقتراب ختم السورة . ولذلك لم يؤت في نظائرها بجملة الحال ولكن أتى فيها بجملة وصف في قوله في سورة غافر {الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ }[غافر : ٢١] وفي سورة الروم { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ } [الروم : ٩]حيث أوثر فيها الإطناب بتعداد بعض مظاهر تلك القوة .(٤)

وقوله تعالي : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) أي ليسبقه ويفوته وهذا اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة .(٥)

فكل شيء تحت مشيئته ، خاضع لقدرته وتصرفه . فلا نجاة لمكذب من عذابه مهما كانت قوته أو اشتدت حيلته وكثرت أنصاره وعشيرته .

وقوله تعالي : (إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) إخبار من الله تعالي بأنه كان عليما بأعمال هؤلاء المكذبين قديرا علي إهلاكهم .ومن كانت هذه صفته فلن يعجزه أحد ولن يفلت من عقابه أحد .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٦٢

(٢) تفسير الألوسي ٢٢ / ٣٠٨

(٣) أبو السعود ٧ / ١٥٧

(٤) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٣٨

(٥) أبو السعود ٧ / ٧ / ١٧٥

قال ابن عاشور : وقد حصر هذان الوصفان انتفاء أن يكون شيء يعجز الله لأن عجز المريد عن تحقيق إرادته : إما أن يكون سببه خفاء موضع تحقق الإرادة وهذا ينافي إحاطة العلم أو عدم استطاعة التمكن منه وهذا ينافي عموم القدرة .[1]

وقوله تعالي : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ) يبين الله تعالي هنا شؤم المعصية وأنها سبب للهلاك العام فالله عز وجل لو أخذ الناس بما يرتكبون لأهلكهم وأهلك معهم جميع من علي الأرض .

قال صاحب الظلال – رحمه الله – : ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله ، من شر في الأرض وفساد ، ومن ظلم في الأرض وطغيان ، لو أخذهم الله بذلك لتجاوزهم – لضخامته وشناعته وبشاعته – إلي كل حي علي ظهر هذه الأرض ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقاً ؛ لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخري ! والتعبير بذلك يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة .[2]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه – : لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق .[3]

والضمير في (ظهرها) يعود إلي الأرض فقد سبق ذكره في قوله تعالي : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) .

قال الألوسي – رحمه الله – : (ما ترك على ظهرها) أي : ظهر الأرض وقد سبق ذكرها في قوله تعالى: (في السموات ولا في الأرض) فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضى .[4]

ونظير هذه الآية قوله تعالي :{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل:٦١]

يقول ابن جرير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا عبد الرحمن قال : حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال : كاد الجعل[5] أن يعذب بذنب بني آدم وقرأ { لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة } .

---

(١) التحرير والتنوير٢٢ / ٣٣٩ .

(٢) ينظر: في ظلال القرآن – الأستاذ / سيد قطب ٥ / ٢٩٥٠ – ٢٩٥١

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٦٢

(٤) الألوسي ٢٢ / ٣٠٨

(٥) الجعل : كصرد ورطب وجمعه جعلان بكسر الجيم والعين ساكنه والناس يسمونه : أبا جعران , دويبة أكبر من الخنفساء ، شديد السواد يوجد كثيرا في مواضع الروث ومن شأنه جمع النجسة وادخارها [ينظر حياة الحيوان للدميري ١ / ١٨٨ – ١٨٩]

حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي قال : حدثنا محمد بن جابر الجعفي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه قال : فالتفت إليه فقال : بلى والله إن الحبارى[1] لتموت في وكرها هزالا بظلم الظالم .

حدثني يعقوب قال : حدثنا أبو عبيدة الحداد قال : حدثنا قرة بن خالد السدوسي عن الزبير ابن عدي قال : قال ابن مسعود : خطيئة ابن آدم قتلت الجعل .

حدثنا أبو السائب قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله : كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة ابن آدم . أ . هـ [2]

وقد أورد الإمام الرازي – رحمه الله – سؤالاً فقال :

المسألة الأولى : إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟

نقول : الجواب من وجوه :

أحدها : أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامي إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان .

الثاني : هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع ولا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف.

الثالث : هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات .[3]

وقوله تعالي : (وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلي أجل حدده عنده لا يقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه . [4]

هذا وفي المراد بـ (الأجل المسمي) هنا أقوال :

---

(١) الحباري : بضم الحاء وفتح الباء ، طائر ، أهل مصر يسمونه الحبرج وهو من أشد الطير طيراناً وأبعدها شوطاً، وهو طائر طويل العنق رمادي اللون ، في منقاره بعض طول [ينظر : حياة الحيوان ١ / ٢١٧]

(٢) تفسير ابن جرير ١٤ / ٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٣ / ٧٢ – ٧٣

(٤) تفسير المراغي ٢٢ / ١٤٢

الأول : يوم القيامة وهذا أشهر الأقوال وعليه أكثر المفسرين .

قال البيضاوي : هو يوم القيامة [1] وقال الحافظ ابن كثير : { ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى } أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية . [2] وقال الشوكاني : هو يوم القيامة . [3]

الثاني : قال مقاتل : الأجل المسمي هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ . [4]

الثالث : يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن .

الرابع : لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر[5]

وكل هذه الأقوال محتملة إذ الأفراد يؤخرهم إلي انقضاء أعمارهم ، والجماعات إلي انقضاء جيلهم ، والجنس إلي يوم القيام .

وإلي هذا أشار صاحب الظلال – رحمه الله – فقال : يؤخرهم أفراداً إلي أجلهم الفـــردي حتى تنقضي أعمارهم في الدنيا ، ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم في الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموا إلى جيل آخر , ويؤخرهم جنساً إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العلم ومجيء الساعة الكبرى ، ويفسح لهم في الفرصة لعلهم يحسنون صنعا .[6]

وقوله تعالي : (فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً) أي إذا جاء وقت عقابهم فإن الله تعالي بصيرا بعباده ، أهل الطاعة وأهل المعصية ، وبمن يستحق العقاب منهم ومن لا يـــستحق ، فيجازي العباد بحسب ما كان منهم من خير أو شر .

قال ابن جرير – رحمه الله – : وقوله { فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا} يقول تعالى ذكره : فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيرا من الذي يستحق أن يعاقب منهم ومن الذي يستوجب الكرامة ومن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعا ومن كان فيها به مشركا لا يخفى عليه أحد منهم ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم .[7]

وقال البغوي – رحمه الله –: (فإن الله كان بعباده بصيرا } قال ابن عباس – رضـــي الله

(١) تفسير البيضاوي ٤ / ٤٢٢
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٧٤٢
(٣) فتح القدير ٤ / ٣٥٦
(٤) تفسير القرطبي ٨ / ٥٤٤٤
(٥) تفسير الرازي ٢٤ / ٧٤
(٦) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٥١
(٧) تفسير الطبري ١٠ / ٤٢٣

عنهما – : يريد أهل طاعته وأهل معصيته .[1]

وفي تذيل الآية بقوله (بصيرا) تطمين للمؤمنين وبيان أنهم إما في منأي عن العذاب فهم ناجون منه ، وقد يكون العذاب في الدنيا هلاكا وعقوبة للكافر وتطهيرا للمؤمن .

وقد روي البخاري – رحمه الله – بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم) . قالت : قلت : يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ . قال (يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم) .[2]

قال الشيخ ابن عاشور – رحمه الله – :وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقا إلى النجاة كما نجى هودا ومن معه ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار.[3]

وقال الرازي – رحمه الله – : وقوله :(بصيرا) اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحاله دون أن يراه .[4]

ما يؤخذ من النص الشريف :

١ – علي الإنسان أن يتعظ بما حل بالأمم المكذبة من عذاب ، وأن يراعي في تنقله وترحاله في الأرض جانب العظة والاعتبار .

٢ – أن هناك أمما كانت قوية قاهرة ، وقد سلبهم الله تعالي ما كانوا فيه من نعيم بسبب ذنوبهم ، ولم تغن عنهم قوتهم من الله شيئا .

٣ – بيان حلم الله بعباده ، وأنه تعالي لو أخذهم بذنوبهم ما ترك واحدا منهم يدب علي الأرض ، ولكنه أخر عقابهم إلي يوم القيامة .

٤ – تطمين الله – عز وجل – لعباده المؤمنين وبيان أنهم في أمان من عذابه ، فهو تعالي بصير بهم فلا يصيبهم في الآخرة ما يصيب الكفار من عذاب .

---

(١) تفسير البغوي ١ / ٤٢٧

(٢) صحيح البخاري – كتاب : البيوع . باب : ما ذكر في الأسواق ٢ / ٧٤٦

(٣) التحرير والتنوير١ / ٣٥٠٣

(٤) تفسير الرازي ٢٤ / ٧٤ .

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه ، ومن تبع نهجه واهتدي بهديه وبعد :

فهذا ما يسر الله تعالي لي جمعه ونظمه حول المقاصد والأهداف التي تناولتها سورة فاطر ، وأرجو من كل من يطالع عملي هذا أن يتفضل فيدعو الله لي بمغفرة ما عساه أن يكون قد صدر مني من خطأ أو زلل ، فالكمال لله وحده ، والعصمة لأنبيائه ورسله ،وأتوجه إلي الله تعالي بهذا الابتهال : { ... رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }البقرة٢٨٦

وصلي الله تعالي علي أفضل خلقه ، وخاتم رسله ، سيدنا ومولانا محمد وعلي آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

المصادر والمراجع

كتب التفسير :

☜أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي. ، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر. – بيروت. – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م. ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

☜الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوي – دار السلام للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

☜التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر .

☜التفسير القرآني للقرآن – للشيخ عبد الكريم الخطيب طبع ونشر : دار الفكر العربي .

☜التفسير الوسيط – فضيلة الدكتور : محمد سيد طنطاوي – مطبعة السعادة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

☜الفتوحات الإلهية في تفسير الجلالين للدقائق الخفية – سليمان بن عمر العجيلي – الشهير بالجمل – دار إحياء الكتب العربية – فيصل الحلبي .

☜المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م، الطبعة: الاولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد

☜ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف : علي بن أحمد الو احدي أبو الحسن

☜ تفسير القرآن، تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، دار النشر: المكتبة العصرية – صيدا، تحقيق: أسعد محمد الطيب

☜ تفسير ابن جرير (جامع البيان في تفسير القرآن) الإمام : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – دار الحديث القاهرة – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

☜– تفسير ابن عجيبة – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس – الناشر : الدكتور : حسن عباس زكي – طبع : القاهرة سنة : ١٤١٩ هـ – تحقيق : أحمد عبد الله قرشي رسلان .

☜– تفسير ابن كثير – (تفسير القرآن العظيم) للحافظ : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ –٧٧٤هـ] تحقيق : سامي بن محمد سلامة الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

☜تفسير أبو السعود – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

☜ تفسير الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

☜ تفسير البحر المحيط، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١) د.زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د / أحمد النجولي الجمل

☜ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، تأليف: ناصر الدين أبو الخير، عبد الله ابن عمر بن محمد بن علىّ، البيضاوى الشافعى ، نشر : دار الفكر – بيروت

☜ تفسير الثعالبي –الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت .

☜ تفسير الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – شهاب الدين أبي العباس بن يوسف الشهير بـ (السمين الحلبي) . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

☜ تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، تأليف: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٩٩٣

☜ تفسير الرازي : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار النشر: دار الغد العربي ٢٢ – تفسير السعدي

☜ تفسير الشوكاني – فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر – بيروت

☜ تفسير الظلال – في ظلال القرآن للإستاذ : سيد قطب – دار الشروق بيروت – الطبعة الثانية والعشرون ١٤١٤هـ – ١٩٩٢م .

☜ تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب – القاهرة .

☜ تفسير الكشاف – (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل) محمود بن عمر الزمخشري الملقب بجار الله – دار الفكر بيروت .

☜ تفسير اللباب لابن عادل – اللباب في علوم الكتاب – أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٩ هـ –١٩٩٨ م الطبعة : الأولى تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض

☜ تفسير المراغي – الشيخ أحمد مصطفي المراغي ٢٢ / ١٤١ الناشر مصطفي البابي الحلبي – الطبعة الرابعة / ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

☜ تفسير النسفي : للإمام : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي – الناشر : دار إحيء الكتب العربية – عيسي الحلبي .

☜ تفسير الواحدي – الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، دار النشر: دار القلم , الدار الشامية – دمشق , بيروت – ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي .

☜– تفسير مجاهد: مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج الناشر : المنشورات العلمية – بيروت تحقيق : عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي .

☜– حاشية الجمل (الفتوحات الإلهية في تفسير الجلالين للدقائق الخفية) سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل – دار إحياء الكتب العربية – فيصل الحلبي .

☜– حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي علي تفسير البيضاوي) للشهاب الخفاجي – دار صادر بيروت .

☜ – زاد المسير في علم التفسير، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار النشر: المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة

☜ – مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي . تحقيق : هاشم الرسول المحلاتي ، وفضل الله الطباطبائي . نشر : دار المعرفة .

كتب علوم القرآن :

☜ الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي الناشر : دار الفكر .

☜ أسرار ترتيب القرآن لكتاب : أسرار ترتيب القرآن المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل الناشر : دار الاعتصام – القاهرة تحقيق : عبد القادر أحمد عطا.

☜ تنزيل القرآن / ابن شهاب الزهري الناشر : دار الكتاب الحديث – بيروت – الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ تحقيق : د. صلاح الدين المنجد

☜ مناهل العرفان في علوم القرآن الأستاذ الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني – دار إحياء الكتب العربية عيسي الحلبي .

☜ لباب النقول في أسباب النزول، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، دار النشر: دار إحياء العلوم – بيروت

☜ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي

كتب الحديث الشريف :

☜ الترغيب والترهيب للشيخ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري – الناشر : دار الحديث .

☜ التمهيد لابن عبد البر الناشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب ، ١٣٨٧ تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي , محمد عبد الكبير البكري .

☜ المستدرك على الصحيحين، : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .

☜ – المعجم الأوسط المؤلف : أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الناشر : دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥ تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ,عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .

☜سنن ابن ماجة –محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني الناشر : دار الفكر – بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي مع الكتاب : تعليق محمد فؤاد عبد الباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها .

☜سنن سعيد ابن منصور – بدون ذكر الطبعة وتاريخ الطبع .

☜سنن الترمذي – : الجامع الصحيح سنن الترمذي المؤلف : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها .

☜ شعب الإيمان : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٠ تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول

☜ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان المؤلف : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١٤ – ١٩٩٣ تحقيق : شعيب الأرنؤوط الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها .

☜ صحيح البخاري – الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المؤلف : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧ تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق.

☜ صحيح مسلم – الإمام : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

☜– فتح الباري شرح صحيح البخاري : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى : ٨٥٢هـ) المحقق : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها : محمد فؤاد عبد الباقي الناشر : دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية)

☜مسند الإمام أحمد بن حنبل : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة . الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها

☜مسند الشافعي – الإمام / محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

☜المعجم الكبير – سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣ تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي

☜مسند أبي يعلي – أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي . الناشر : دار المأمون للتراث – دمشق
الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤ تحقيق : حسين سليم أسد . الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها .
☜مسند الشهاب – محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦ تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي
☜: مسند أبي داود الطيالسي المؤلف : سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي الناشر : دار المعرفة – بيروت .
☜ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الجيل – بيروت – ١٩٧٣

كتب المعاجم واللغة :

☜ الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل / بهجت عبد الواحد صالح – دار الفكر للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولي ١٩٩٢ م – ١٤١٤هـ .
☜ التعبير القرآني د/ فاضل السمرائي الناشر دار عمار عمان الطبعة الثالثة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.
☜تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين .
☜ تهذيب اللغة ، تأليف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى ، تحقيق: محمد عوض مرعب .
☜جمهرة اللغة لابن دريد الناشر: دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق :رمزي منير بعلبكي .
☜الصحاح دار النفائس الرياض الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .
☜ لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى .
☜ القاموس المحيط، تأليف: –محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت
☜ المحكم والمحيط في اللغة لابن سيده تحقيق د / مراد كامل – معهد المخطوطات العربيه – الطبعة الأولي ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م
☜ المحيط في اللغة / أبي القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني . دار النشر : عالم الكتب – بيروت / لبنان – ١٤١٤هـ –١٩٩٤ م الطبعة : الأولى تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين .

☜ مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبدا لقادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنـــان ناشـــرون – بيروت – ١٤١٥ – ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر .

☜ معاني القرآن وإعرابه – أبي إسحاق إبراهيم بن السري لزجاج – دار الحديث القاهرة – شرح وتحقيق دكتور / عبد الجليل عبه شلبي الطبعة الأولي ١٤١٤ هـــ – ١٩٩٤ م .

☜ مفردات القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق نديم مرعشلي – دار الفكر بيروت .

☜ النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار النـــشر: المكتبـــة العلمية – بيروت – ١٣٩٩هـــ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي .

كتب الوعظ والرقائق

☜ إحياء علوم الدين – حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي أبو حامد الناشر : دار المعرفة . بيروت

☜ التذكرة في الوعظ المؤلف : عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي الناشر : دار المعرفة – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ – ١٩٨٦ تحقيق : أحمد عبد الوهاب فتيح.

☜ تعظيم قدر الصلاة لمؤلف : محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله , الناشر : مكتبة الـــدار – المدينة المنورة الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ تحقيق : د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي

☜ تفسير أسماء الله الحسنى – أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ,الناشر : دار الثقافة العربيـــة – دمـــشق ، ١٩٧٤ تحقيق : أحمد يوسف الدقاق

كتب العقائد والفرق :

☜ العقيدة الطحاوية – شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي . تحقيق : مجموعة من العلماء ، تخـــريج الأحاديث : محمد ناصر الدين الألباني الناشر : المكتب الإســـلامي – بـــيروت الطبعـــة : الثامنـــة – ١٤٠٤هـــ ١٩٨٤ .

☜ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية المؤلف : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبـــو منـــصور الناشر : دار الآفاق الجديدة – بيروت الطبعة الثانية ، ١٩٧٧

☜ مرهم العلل المعضلة في الرد علي أئمة المعتزلة المؤلف : عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي الناشـــر: دار الجيل –بيروت, الطبعة الأولى، ١٩٩٢ تحقيق : محمود محمد محمود حسن نصار

☜ شرح العقائد النسفية – للعلامة سعد الدين التفتازاني – تحقيق أحمد حجازي السقا ، طبـــع ونـــشر : مكتبة الكليات الأزهرية – الطبعة الأولي ١٤٠٧ – هـــ – ١٩٨٧ م .

كتب أخري

☜ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة المؤلف : أحمد زكي صفوت ، الناشر : المكتبة العلميـــة – بيروت

☜ حياة الحيوان للشيخ كمال الدين الدميري . الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنـــان – الطبعة الأولي ١٤١٦ هـــ – ١٩٩٥ م .